دكتور جمال الدين الشيال

تاريخ مصر الإسلامية

الجزء الأول



تاريـــخ
مصر الإسلامية

الجزء الأول

من الفتح العربى إلى نهاية العصر الفاطمى

الدكتور

جمـال الدين الشيـال

أستاذ التاريخ الإسلامى

وعميد كلية الآداب - جامعة الإسكندرية سابقًا

الطبعـــة الثانيـة



دار المعارف

تصميم الغلاف : **منى جامع**

الناشر : دار المعارف ـ ١١١٩ كورنيش النيل ـ القاهرة ـ ج . م . ع .
هاتف: ٢٥٧٧٧٠٧٧ـ فاكس : ٢٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg

تقدمـة

هذا الموقع الجغرافى الحربى الممتاز عند ملتقى الطرق بين القارات القديمة الثلاث .

وهذا النهر الخالد ، مبارك الغدوات والروحات ، وما يجلبه لـلأرض الطيبـة وسـاكنيها مـن رى وخصب .

وهذا الشعب الكاد الكادح ، الذى بنى الأهرام ، وصنع التماثيل ، وعرف التقويم الشمسى، ومارس الطب ، وقاد الجيوش ، وشق البحار ، وأقام الإمبراطوريات .

وهذه الحضارات المزدهرة التى كانت مصدر إشعاع لكل البـلاد المجـاورة فـى آسيا وأفريقيـا قرونا طويلة .

كل هذه العناصر جعلت لمصر فى كل عصورها التاريخية - سواء أكـانت عصـور اسـتقلال أو ٢
تبعية - شخصية مستقلة متميزة .

ونحن لا نستطيع فى هذا المجال أن نخطو مع التاريخ خطواته البطيئـة لـيرصد مصـر وهـى تبنى الحضارات ، ولكننا نقفز قفزة سريعة نعبر بـها العصـور عصـرًا فعصـرًا إلى أن نطـل علـى الجزيرة العربية ونور الرسالة الإسلامية يبزغ من بين طيـات تهائمـها وجبالهـا ووهادهـا فيشـع ويملأ الكون ضياء ، وبسرعة الضوء انتشرت الرسالة فى قلب الجزيرة ثم فيما جاورها من أقطار وبلدان .

ولم يكد يمضى على الهجرة النبوية عشرون عامًا حتى كان نفر من رجالات العـرب يقرعـون أبواب مصر يحملون إليها وإلى أهليها رسالة الدين الجديد .

وكان أقباط مصر قد لاقوا من عسف الـروم وظلمـهم مـا أثقـل كواهلـهم وأقـض مضاجعـهم ، ولهذه رحبوا بالعرب حين مقدمهم وكانوا عونًا لهم على الروم إلى أن تم لهم الفوز وعقـدت لهـم ألوية النصر ، فكان أول عمل قام به القائد العربى المنتصر أن استدعى بطرق الأقباط بنيامين من منفاه فى الصحراء ، وأعاده إلى كرسيه .

وبدأ عهد جديد ، وعاش الأقباط مع العرب أخوة متحابين وانتشـر مـع مـرور الزمـن الديـن الإسلامى بين المصريين ، وانتشرت معه اللغة العربية . فلم تكد تمضى قرون ثلاثة حتى كـانت غالبية الشـعب المصـرى تدين بالإسلام ، وحتى كان المصريون جميعًا يتكلمـون اللغـة العربيـة، واصطلح المؤرخون بعد هذا على أن يسموا تاريخ مصر فى هذه الحقبة منذ الفتح العربـى إلى الآن بتاريخ مصر الإسلامية .

وتاريخ مصر الإسلامية هو موضوع هذا الكتاب بجزئيه ، يؤرخ الجزء الأول للحقبة الأولى التى تمتد من الفتح العربى إلى نهاية العصر الفاطمى ، ويؤرخ الجزء الثانى للحقبة التالية التى تشتمل على العصرين الأيوبى والمملوكى .

ومنهجنا فى هذا الكتاب يختلف كثيرًا عن المنهج الذى التزمه من عالجوا هذا الموضوع من قبل ، فنحن لم نجعل للتاريخ السياسى المكانة الأولى ، فلم تتبع سير الولاة والحكام والخلفاء ، ولم نتحدث عن حروبهم وألوان حياتهم الخاصة ، وإنما عنينا أكثر ما عنينا بالبلد نفسه وبشعبه ، وبالنواحى الحضارية التى امتاز بها هذا العصر ، وبالدور الذى لعبته مصر كمركز للثقل السياسى وللإشعاع الحضارى فى هذه المنطقة التى تحيط به والتى تضم الشرقين الأدنى والأوسط ، وبالدور الذى أداه الشعب المصرى - صانع الحضارات على طول العصور - فى بناء صرح الحضارة العربية الإسلامية بصفة عامة .

وقد بدأنا بعرض سريع موجز لحوادث الفتح العربى ، وأظهرنا كيف كان الإيمان العامل الأول والأكبر فى انتصار العرب رغم تفوق الروم عليهم فى العدد والعدة والمعرفة بفنون القتال واستعمال أسلحة الحرب .

وقد أشاح العرب بوجوههم - بعد الفتح - عن مدينة الإسكندرية عاصمة مصر فى العصرين البطلمى والرومانى ، وأنشأوا لأنفسهم عاصمة جديدة هى الفسطاط ، وإذ كانت المدن فى تلك العصور هى مراكز الإشعاع الحضارى فقد اتخذنا الفسطاط مركزًا لدراسة تاريخ مصر فى العصر الإسلامى الأول ، وأحسب أن المقريزى عميد مؤرخى مصر الإسلامية قد قصد ما قصدناه حين وضع كتابه الأول للتأريخ لهذه الحقبة وسماه (عقد جواهر الأسفاط فى تاريخ مدينة الفسطاط) وإن كنا لم نتعرف على منهجه فى هذا الكتاب لأنه فقد ولم يصلنا .

وقد قدمنا فى الباب الأول دراسة جديدة ناقشنا فيها الأسباب التى دعت العرب لاختيار المكان الذى أقاموا عليه عاصمتهم ولتسميتها بهذا الاسم ، ثم تتبعنا المدينة وهى تنمو مع الزمن خطوة خطوة وكيف امتدت شرقًا وغربًا بأرباضها وتوابعها من المدن التى أنشئت بعدها ثم التحمت بها .

وقد أصبحت الفسطاط بعد اكتمال نموها مركزًا لنشاط حضارى مزدهر فى مختلف نواحى الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، ولهذا خصصنا بابًا للتأريخ للحياة الاقتصادية فى مدينة الفسطاط فصلنا فيه الحديث عن النشاط التجارى وعن أنواع الصناعات التى نشأت فى الفسطاط ومهر فيها أهلوها .

وأفردنا بعد ذلك بابًا للحياة الفكرية فى الفسطاط تتبعنا فيه نشأة المدارس الدينية والتاريخية والأدبية والعلمية فى فجر مصر الإسلامية ، وعرفنا بالأعلام الذين وضعوا أسس هذه المدارس الفكرية وشادوا صروحها حتى خلقوا من الفسطاط مركزًا من أهم المراكز العلمية فى العالم

الإسلامى ، يتوافد عليها العلماء والأدباء وطلاب المعرفة من مختلف الأقطار العربية والإسلامية الأخرى .

وهذه الجهود كلها بذلها الشعب لإقامة صروح المجد الحضارى فى فجر مصر الإسلامية ، ثم أضاف كل جيل من الأجيال المتتابعة جديدًا حتى علت هذه الصروح وارتفعت ، فمن هو هذا الشعب ؟ هل هو الأقباط سكان مصر الأصليون ؟ أم هل هو العرب القادمون ؟

الحقيقة أنه لا هؤلاء ولا هؤلاء ، وإنما هو شعب مصرى جديد ، خليط من الشعبين ، نتج عن امتزاجهما وتزاوجهما ، فكيف ومتى تم هذا الاختلاط والامتزاج وتكوين هذا الشعب المصرى الجديد الذى أصبحت الغالبية العظمى منه تدين بالدين الإسلامى ، والذى أصبح كله يتكلم باللغة العربية ، ويتثقف بالثقافة العربية ، ولا يعرف غيرهما لغة أو ثقافة .

هذه تجربة فذة لم يعرف لها التاريخ أشباها كثيرة ، فقد أصلت الشعب المصرى عروبته وربطته بالعالم العربى ربطًا وثيقًا - وفرضت على مصر بحكم موقعها الجغرافى والاستراتيجى والثقافى الممتاز واجبات والتزامات قيادية كان شعبها يقوم بها دائمًا فى صدق وإخلاص .

ولهذا كان من الواجب أن ندرس هذه التجربة دراسة مستقصية لأنها - فيما نرى - مفتاح كل الدراسات المتصلة بتاريخ مصر الإسلامية ، وقد تتبعنا فى هذه الدراسة موجات الهجرات العربية إلى مصر فى العصر الإسلامى الأول ، وتتبعنا ثورات أو انتفاضات الأقباط وحاولنا شرح أسبابها ونتائجها ، ثم شرحنا العوامل الكبرى التى أسرعت بتعريب مصر وشعبها وأهمها : إسقاط الجند العرب من الديوان فى عهد الخليفة العباسى المعتصم وما نتج عنه من استقرار العرب فى وادى النيل واشتغالهم بالزراعة وغيرها من المهن المدنية ، واضطرارهم تبعًا لهذا للزواج من المصريات وإنجاب أجيال جديدة تدين بالإسلام وتتكلم العربية ، ثم الأمر بتعريب الدواوين فى عهد عبد الملك بن مروان وأثره الواضح القوى فى إقبال المصريين وتدافعهم لتعلم اللغة العربية .

رحبت مصر بالفتح العربى - كما أسلفنا - لأنه أنجاها من ظلم الروم وعسفهم واضطهادهم الدينى، ولأنه حمل معه السماحة والعدل والمساواة والمثل الإنسانية العليا حين حمل إليها الإسلام، ولكن مصر بعد الفتح العربى لم يتغير مركزها السياسى الدولى ، فقد كانت من قبل ولاية تابعة للإمبراطورية البيزنطية ، ثم أصبحت إمارة تابعة للخلافة الإسلامية .

غير أن مصر لم تكن فى عهد التبعية للخلافة إمارة ككل الإمارات ، بل برزت شخصيتها المستقلة المتميزة منذ اللحظة الأولى ، فلعبت دورًا هامًا فى الفتنة الكبرى التى انتهت بمقتل عثمان بن عفان وتولية على بن أبى طالب ، ثم قيام الدولة الأموية .

وعندما انتقلت الخلافة الأموية إلى مروان بن الحكم أدرك ما لمصر من أهمية خاصة بين ولايات الدولة المختلفة ، فاختار لولايتها ابنه عبد العزيز بن مروان ، الذى ظل واليًا عليها

إحدى وعشرين سنة ، كان فى خلالها أشبه ما يكون بالحاكم المستقل ، وكانت مصر أشبه ما تكون بالدولة المستقلة .

وعندما نشب النزاع بين الأمين والمأمون برزت مصر كالعادة إلى مسرح الحوادث ، وبدأت محاولاتها للانفصال عن الخلافة والاستقلال ، وكان بطلاً هذه المحاولة الاستقلالية الأولى السرى بن الحكم وعبد العزيز الجروى ، غير أن هذه المحاولة انتهت بالفشل ، لأنها لم تقم على أسس قومية واضحة ، بل قامت بها شخصيات قومية طموحة .

ثم ثارت مصر فى عصر المأمون ثورة قومية خطيرة شارك فيها العرب والقبط ، وكادت الأمور تنتهى فيها إلى فوضى شاملة وانفصال عن الخلافة ، لولا أن تداركها المأمون فحضر إلى مصر وعمل بنفسه لإخضاع الثورة وإزالة الأسباب التى أدت إلى قيامها .

ولم تكن المقومات المكونة للشخصية المصرية لتسمح لمصر أن تظل ولاية تابعة أمدًا طويلاً، فلم تكد الخلافة العباسية تحس شيئًا من الضعف حتى بدأت مصر تجدد محاولاتها الاستقلالية، ونجحت هذه المحاولات على يد أحمد بن طولون أولاً ، ثم على يد محمد بن طغج الإخشيد ثانيًا ، وكان الاستقلال فى عهد هاتين الدولتين – الطولونية والإخشيدية – يشوبه شىء من النقص ، تمثله تلك الخيوط الواهية التى كانت تربط مصر بالخلافة ، كالخطبة باسم الخليفة ، أو ضرب السكة باسمه، أو إرسال مبالغ من المال سنويًا إلى عاصمة الخلافة .

غير أن هاتين المحاولتين كانت لهما من الخطورة فوق ما يقدر المؤرخون ، ففيهما تكون لمصر جيش مستقل وصنع لها أسطول كبير ، وفيهما وضعت نواة صالحة لتنظيمات مصر الإدارية والمالية كانت هى الأسس التى بنت عليها الدول التى تعاقبت بعد ذلك على حكم مصر والتى نجحت فى تحقيق استقلالها التام، وفيهما قام كل من أحمد بن طولون ومحمد بن طغج الإخشيد بمحاولة بالغة الخطورة لنقل الخلافة العباسية من بغداد إلى القطائع أو الفسطاط ، ولو كان قدر لأحدهما النجاح فى تحقيق هذه الأمنية لتحقق له ولمصر تبعًا لهذا كل أسباب الاستقلال التام ، ولأصبحت مصر منذ عهد مبكر لا دولة مستقلة وحسب ، بل ومقرًا للخلافة الإسلامية .

هذا الدور الهام الذى لعبته مصر فى فجر الإسلام ، وهذه العلاقات المتراوحة بين مد وجزر، بينها وبين الخلافة الإسلامية سواء أكانت فى المدينة أم فى دمشق أم فى بغداد هى موضوع الباب الخامس من الكتاب الأول من هذا الجزء .

وكانت للتجربة التى تمر بها مصر بعد الفتح العربى أبعاد كثيرة ، فلم تكن مقصورة على تكوين شعب جديد بدين جديد ولغة جديدة وثقافة جديدة ، بل كانت التجربة تعمل فى نفس الوقت لتكوين نظم حكم جديدة يسير بمقتضاها دولاب الحكومة ، فيها الكثير مما أتت به التشريعات الإسلامية ، وفيها الكثير مما توارثه المصريون من الدول السابقة وبما فرضته وتفرضه

دائمًا طبيعة الأرض وطبيعة نهر النيل ونظم الرى والخراج والاقتصاد بوجه عام .. إلخ ولهذا أفردنا الباب الأخير من الكتاب الأول لدراسة نظم الحكم ودواوينه ، غير أننا لم نقدم فيه إلا حديثًا واحدًا عن نظام الإمارة ودواوينها ، آملين أن نشفعه بعرض أوفى لبقية نظم الحكم فى الطبعة التالية بإذن الله .

وقد توجت محاولات الاستقلال بظهور الخلافة الفاطمية واتخاذها مصر مقرًا لحكمها ، ففى عهد الدولة الفاطمية استقلت مصر لأول مرة فى العصر الإسلامى استقلالا تامًا كاملاً لا تشوبه أية شائبة ، بل لقد أصبحت مركزًا لإمبراطورية واسعة قوية ذات حضارة مجيدة مزدهرة تضم مصر والمغرب والشام وبلاد العرب واليمن وجزيرة صقلية ، وقد أفردنا الكتاب الثانى من هذا الجزء للتأريخ لمصر فى العصر الفاطمى وهو تاريخ مجمل موجز نرجو أن نزيده تفصيلاً فى الطبعة التالية ، ولكنه رغم إجماله وإيجازه يعنى - تبعًا للخطة التى التزمناها - بإبراز النواحى الحضارية وبعلاقات مصر الخارجية ، وقد قدمنا - كنموذج لهذه العلاقات - حديثاً عن العلاقات بين مصر واليمن فى العصر الفاطمى ، يرى القارئ فيه بوضوح أن الروابط الوثيقة كانت تربط بين البلدين العربيين منذ عصور بعيدة ، وسيرى عند قراءته لسياسة صلاح الدين يوسف بن أيوب نحو اليمن - فى الجزء الثانى من هذا الكتاب - أن هذه العلاقات لم تنفصم، بل زادت قوة مع مرور الزمن .

وبعد ، فليس هذا كل ما قصدت أن أقدم له فى هذا الكتاب بجزئيه ، ولكننى أشبهه بدار رسمت خطتها وأقيمت عمدها وحيطانها ، وبقيت فيها حائط ناقصة هنا ، ونافذة لم تكتمل هناك، ثم بقى عليها أخيرًا اللمسات الأخيرة حتى تتم زينتها وزخرفتها لتخرج للناس فى أبهى حللها كاملة ألوانها تسر الناظرين ، وكنت أحب أن أرجىء طبع هذا الكتاب حتى يتم له هذا كله ، ولكن تلاميذى ألحوا علىّ فى ضرورة الإسراع بإخراجه على أن أكمل الناقص وأستوفيه فى طبعات تالية ، واستجبت لطلبهم واقتنعت به لأنى أعتقد أن بحار العلم واسعة وعميقة ، وأن ما يحصله الباحث بجهده المتواضع قليل من قليل، ولو انتظرت حتى أدرك الكمال الذى أنشده لما وصلت إليه ، فالكمال لله وحده ، وغاية ما يطلب من الباحث أن يضع لبنة فى بناء المعرفة ثم يستأنف الجهد فقد يوفق لإضافة لبنة أخرى ، وقد تكون إضافة هذه اللبنة مهمة باحث آخر من جيل جديد .

اللهم إنى أسألك عونًا من عندك وتوفيقًا لخدمة هذا الوطن وتاريخه .

جمال الدين الشيال

الإسكندرية : ٥ شعبان ١٢٨٦هـ
١٨ نوفمبر ١٩٦٦م

الكتاب الأول

فجر مصر الإسلامية

أو

عصـر الـولاة

المدخل

الفتح العربى لمصر :

(أ) عمرو بن العاص، كيف فكر فى فتح مصر وكيف سار إليها ؟

(ب) حوادث الفتح .

(أ) عمرو بن العاص

كيف فكر فى فتح مصر وكيف سار إليها ؟

كان عمرو أحد القواد الذين يعملون لفتح الشام ، وقد اختص بفتح الجزء الجنوبى وهو فلسطين ، ولما تم للعرب فتح بيت المقدس أبى بطريقها (صفرونيوس) أن يسلم مفاتيح المدينة إلا للخليفة عمر نفسه ، فرحل عمر قاصدًا الشام فى بساطة العربى يتبادل الركوب وخادمه على ناقة واحدة .

ويقول بتلر[1] : ولعل عمرًا قد أفضى إلى عمر برأيه فى فتح مصر منذ كان فى بيت المقدس، ولكن الخليفة رأى أن وقت ذلك الفتح لم يحن بعد ، فلما ظهر العرب ، وانتهت الحرب أو كادت عاد عمرو إلى عرض رأيه .

وكان عمرو بن العاص - شأن سراة العرب جميعًا - يشتغل بالتجارة قبل ظهور الإسلام، ويتردد بها على بلاد الحبشة واليمن جنوبًا ، وبلاد الشام ومصر شمالاً، يقول الكندى :

(إن عمرو بن العاص كان يختلف بتجارته إلى مصر

وهى الأدم والعطر[2] .

وقد اختلط عمرو فى هذه البلاد بطبقات الناس المختلفة ، فالتاجر أكثر الناس اتصالاً ومعرفة بأخبار البلد التى يعمل فيها أو يرحل إليها .

درس عمرو أحوال هذه البلاد التى زارها ، وقارن بينها ، وأدرك بفطرته أن مصر ترجحها جميعًا ، فهى أغنى بخيراتها ، وأرقى بفنها وصناعاتها ، ولكنه سمَع - ولا شك - من سكان مصر شكواهم التى تدل على كره شديد لحكم الرومان وظلمهم ، ولعله لمس بنفسه بعض آيات هذا الظلم والاضطهاد ، وبعض علامات هذا الكره والمقت .

نشأ عمرو تاجرًا ، والتاجر يقدر دائمًا كل شىء قدره ، ويعرف لكل شىء قيمته ، فلا يقبل على أمر إلا إذا كان من ورائه ربح وفير ، هكذا نظر عمر للإسلام بعد الهجرة بسبع أو ثمانى سنوات هذه النظرة ، فلما تقدم يبايع النبى - عليه السلام - قال له :

(يا رسول الله - إنى أبايعك على أن يغفر لى ما مضى من ذنبى) .

هذا هو الثمن الذى يريده عمرو مقابل إسلامه ، وإنه لكثير ، ولكن الرسول الذى كان يريد أن يعتز الإسلام بشجاعة عمرو ودهائه أرضاه بقوله :

---

(١) بتلر : فتح العرب لمصر ، الترجمة العربية للأستاذ محمد فريد أبو حديد ، ص ١٧٢ .

(٢) الكندى : الولاة والقضاة ، ص ٧ .

(أسلم يا عمرو ، فإن الإسلام والهجرة يجبان ما كان قبلهما) .

وقد ولاه رسول الله بعد ذلك قيادة سرية ذات السلاسل ، وفيها أرسل يستمد الرسول ، فأمده بجند على قيادتهم أبو عبيدة بن الجراح، وأبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب ، وكانت الإمرة أثناء الحرب لعمرو بن العاص .

وقد ولاه الرسول بعد هذه السرية على عمان ، فأقام واليًا عليها حتى توفى النبى ﷺ، وبعد وفاته بنحو سنتين اختاره أبو بكر قائدًا مع القواد الذين سيرهم لفتح الشام - كما أسلفنا - فأبلى هناك بلاء حسنًا ، وتم له فتح فلسطين قبل أن يتم لأقرانه فتح سوريا ، فأرسل إليهم بعدد ليساعدهم .

ولما فتح بيت المقدس وجاء عمر فتسلم مفاتيحها بنفسه . قيل إنه أسر إليه هناك برغبته فى فتح مصر ، وأن عمر استمهله ليفكر فى الأمر .

فلما أتى عمر بعد ذلك إلى الجابية - وهى من قرى دمشق - خلاً به عمرو مرة أخرى، واستأذنه فى فتح مصر ، ولكن عمر كان يخاف الله فى دماء المسلمين جميعا ، كان يخشى أن يراق دم مسلم واحد ظلمًا أو خطأ فيسأل عنه أمام ربه فى اليوم الآخر، كان عمر أحرص الناس على رعيته ، وكان يرى أن أمر العرب لم يستقر بعد فى الشام ، فكيف يستطيع أن يرسل جيشًا جديدا لفتح جديدًا فى مصر ؟؟ .

هكذا كان يفكر عمر ، ولكن عمرًا ما كان يعزم على أمر إلا بعد تفكير وتقدير واقتناع ، وإذا اقتنع ما كان يثنيه شيء عن رأيه ، فهو يقارع عمر الحجة ، ويقول له :

(إنها أكثر الأرض أموالاً)[1] .

ومع هذا لا يقتنع عمر بقوله ، فعمر لا يرى المال إلا عارية ، أما غرضه الأسمى فهو نشر الإسلام ، ثم هو يخشى ألا يستطيع العرب الغلبة على جيوش الرومان فى مصر ، فأنه يعتقد أنهم لابد قد اختصوا مصر بأقوى الجيوش وأكثرها عددًا وعدة لأهميتها بالنسبة للإمبراطورية ، ولكن عمر كان أعرف من عمر بمصر وقوتها فيرد عليه حجته ويقول :

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج١ ، ص ٥ ، ويقول الكندى : الولاة والقضاة ، ص ٧ : (حتى فتح المسلمون الشام فخلاً عمرو بأمير المؤمنين عمر بن الخطاب فاستأذنه فى المضى إلى مصر ، وقال : إنى عالم بها وبطرقها ، وهى أقل شيء منعة وأكثر أموالاً ، فكره أمير المؤمنين الإقدام على من فيها من جموع الروم ، وجعل عمرو يهون أمرها ، وقد أمر أصحابه أن يتسللوا بالليل ثم اتبعهم ، فبعث إليه أمير المؤمنين : كن قريبًا منى حتى أستخير الله ، وذلك فى سنة تسع عشرة) .

(وهى أعجزها – أى أعجز الأرض – عن القتال والحرب)[1].

ومع هذا لا يقتنع عمر ، ولا يطمئن لقول عمرو وتحريضه ، فيضطر عمرو أن يفجأ خليفته بآخر حججه وأقواها التى تدفعه إلى التردد أولاً ثم الموافقة ثانيًا ، فيبين له أن العرب إن لم يلاحقوا الرومان فى مصر قبل أن يلموا شتاتهم بعد هزيمة الشام ، فإنهم لا شك جامعون جموعهم ومهاجمون الشام من صحراء العريش جنوبًا ، ومندفعون إليها من آسيا الصغرى شمالاً ، ومحاصروها بأساطيلهم من البحر ، وبهذا تضيع جهود المسلمين فى فتح الشام هباء ويسترد الرومان هذا القطر منهم ، والرومان أيضًا باحتفاظهم بمصر يستطيعون أن يستعينوا بثروتها – وهى بلد غنى – على تنفيذ هذا البرنامج الحربى ، وختم عمرو حديثه بقوله :

(إنك إن فتحتها كانت قوة للمسلمين وعونًا لهم)[2].

أمام هذه الحجج القوية وافق عمر على فتح مصر ، وعقد لعمرو على أربعة آلاف رجل كلهم من عك[3] ، وذلك فى أواخر سنة ٦٣٩هـ.

هذا هو الرأى الذى نميل إلى الأخذ به ، يمليه علينا التفكير السليم ومنطق الحوادث وطبيعة الرجلين عمر وعمرو ، وإن كانت هناك آراء أخرى لا بأس من أن نذكرها نقلاً عن البلاذرى .

١ – أول هذه الآراء أن عمرًا ، مضى إلى مصر من تلقاء نفسه فى ثلاثة آلاف وخمسمائة ، فغضب عمر لذلك وكتب إليه يوبخه ويعنفه على افتئانه عليه برأيه ، وأمره بالرجوع إلى موضعه إن وافاه كتابه دون مصر ، فورد الكتاب عليه وهو فى العريش)[4] .

٢ – وثانى هذه الآراء أن (عمر كتب إلى عمرو بن العاص يأمره بالشخوص إلى مصر ، فوافاه كتابه وهو محاصر قيسارية ، وكان الذى أتاه شريك بن عبدة ، فأعطاه ألف دينار ، فأبى شريك قبولها ، فسأله أن يستر ذلك ولا يخبر به عمر)[5] .

٣ – وثالثها ما ذكرناه أولاً – وهو الأرجح .

---

(١) انظر الصفحة السابقة ، هامش ١ .

(٢) انظر الصفحة السابقة ، هامش ١ .

(٣) يقول الكندى: الولاة والقضاة ص ٨: (إن عمرو بن العاص قدم مصر بثلاثة آلاف وخمسمائة، ثلثهم من غافق).

(٤) البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ٢١٦ ، ويروى الكندى : الولاة والقضاة ، ص ٧ – ٨ عن ابن لهيعة عن يزيد بن أبى حبيب أن عمرو بن العاص كان بفلسطين على ربع من أرباعها ، فتقدم أصحابه إلى مصر فكتب إلى عمر فيه وكان سار بغير إذن ، فكتب إليه عمر بن الخطاب بكتاب أتاه وهو أمام العريش فحبس الكتاب ولم يقرأه ، حتى بلغ العريش فقرأه فإذا فيه : من عمر بن الخطاب إلى العاص بن العاص ، أما بعد فإنه بلغنى أنك سرت ومن معك إلى مصر وبها جموع الروم ، وإنما معك نفر يسير .. فإذا جاءك كتابى هذا فإن لم تكن بلغت مصر فارجع) ، فقال عمرو : الحمد لله ، أية أرض هذه؟ قالوا : (من مصر) ، فتقدم إلى الفرما وبها جموع الروم فقاتلهم) .

(٥) البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ٢١٦ ، وانظر كذلك : المقريزى : **الخطط** ، ج ٢ ، ص ٦٣ .

لم يكد عمرو يحصل على موافقة عمر حتى أسرع بالمسير فخرج فى جوف الليل ، وترك عمر يفكر ويعيد التفكير ، وبينا هو كذلك إذ دخل عليه عثمان بن عفان - وهو من نعرف ورعًا وتؤدة - فسأل عمر ما به ، فأخبره بما كان من موافقته عمرو على المسير إلى مصر ، فأجاب عثمان فى الحال :

(يا أمير المؤمنين : إن عمرًا لمجرأ وفيه إقدام وحب للإمارة ، فأخشى أن يخرج فى غير ثقة ولا جماعة فيعرض المسلمين للهلكة رجاء فرصة لا يدرى تكون أم لا)(1).

وبهذا القول أصاب عثمان الهدف فى نفس عمر ، فأثار مخاوفه من جديد ، وكان هذا رأيه فى عمرو من قديم ، وإنه ليذكر أنه رأى عمر مرة يمشى فما تمالك أن قال لصحبه الذين حوله :

(ما ينبغى لأبى عبد الله أن يمشى على الأرض إلا أميرًا)(2).

وندم عمر على ما فعل ، ولكنه لا يدرى ماذا يفعل الآن وقد سار عمر بجيشه نحو مصر ، فسأل عثمان الرأى ، فقال عثمان :

- (فاكتب إليه : إن أدركك كتابى هذا قبل أن تدخل مصر فارجع إلى موضعك ، وإن كنت دخلت فامض لوجهك)(3).

وخرج الرسول يحمل خطاب عمر ، وأسرع يريد اللحاق بجيش عمرو ، واستشف عمرو ما فى الخطاب ، وأيقن أن عمر يستدعيه لأنه بذل جهدًا كبيرًا فى إقناعه ، وخرج والشك يلعب بنفس عمر ، فاستمهل الرسول حتى يستريح ويزيل عنه آثار السفر، فلما وصل بجيشه إلى الوادى الصغير الذى عند العريش أخذ الكتاب وقرأه، ثم سأل من حوله - وهو أعلم منهم بأرض مصر وحدودها -:

«أنحن فى أرض مصر أم فى الشام؟..»

فقيل له: «نحن فى مصر».

فقرأ عليهم كتاب الخليفة، ثم قال:

«إذن نسير فى سبيلنا على بركة الله كما يأمرنا أمير المؤمنين»(4).

---

(1) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٢ ، ص ٦ ، والمقريزى : الخطط ج ٢ ، ص ٦٤ .

(2) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ٦٣ .

(3) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ٧ .

(4) انظر بتلر: فتح العرب لمصر، ص ١٧٤.

(ب) الفتح العربى لمصر

نستطيع أن نقسم حوادث الفتح العربى لمصر إلى أدوار ثلاثة.

١ - الدور الأول من بدء الفتح إلى وصول المدد.

٢ - الدور الثانى وينتهى بانتهاء موقعة عين شمس والاستيلاء على حصن بابليون.

٣ - الدور الثالث وينتهى بفتح الإسكندرية.

الدور الأول

وصل العرب إلى أرض مصر فى الشهر الأول من سنة ١٩ للهجرة (الشهر الأول من سنة ٦٤٠م)[1] وكانت العريش أول مدينة استولوا عليها، ثم غادروها، وسلكوا بعد ذلك الطريق التى تصل بين العريش والفرما، وهى طريق رملية بعيدة شيئًا ما عن البحر تتخللها عيون وقرى صغيرة، وقد سلكها منذ أقدم العصور كل وافد على مصر أو غاز لها من الشرق، فكانت طريق إبراهيم ويعقوب ويوسف، ثم شهدت مقدم قمبيز والإسكندر وأسرة المسيح - عليه السلام - وقبيل الفتح بسنوات قلائل شهدت هذه الطريق مقدم الفرس ثم عودتهم، وعبر هذا الطريق كذلك كان يمر الرحالة والتجار والحجاج من أفريقيا إلى آسيا فى رواحهم ومجيئهم.

ووصل عمرو بجنده القلائل إلى الفرما (بلوزيوم) شرقى بور سعيد الحالية، وقد كانت مدينة قوية ذات حصون، وكان لها مرفأ قريب على البحر، وإلى شرقها كان ينتهى الفرع البلوزى، أحد أفرع النيل القديمة، فيصب فى البحر، وهى إلى هذا كله كانت على رأس الطريق الصحراوى القديم المؤدى إلى مصر. ومع كل ذلك فإنها لم تكن منيعة فإن الفرس وقد كانوا مبرزين فى فنون الحصار لم يعانوا مشقة كبرى فى فتحها، ولعلهم دكوا أسوارها وخربوا حصونها كما خربوا كنائسها.

وكان من المنتظر أن يقدر الرومان لهذه المدينة أهميتها فيرمموا حصونها ويزودوها بقوة دفاع كبيرة لتقيم على مناوشة العرب أطول مدة ممكنة حتى يستطيعوا الاستعداد داخل مصر، غير أنه يبدو أن الرومان فوجئوا بالفتح العربى، أو أنهم لم يكونوا يقدرون أن هذه القوة الضئيلة ستستطيع أن تتقدم بالسرعة التى تقدم بها عمرو.

كانت المدينة ذات حصون كما ذكرنا، ولم تكن لدى العرب وقتذاك خبرة ما بدك الحصون أو تخريبها، كما لم تكن معهم الأسلحة التى تساعدهم على ذلك، ولم تكن لهم معرفة باستعمالها، فكان لابد لهم - للاستيلاء على المدينة - أن يوالوا الهجوم على المدينة، أو يطيلوا

---

(١) أول عام سنة ١٩ هـ هو ٢ يناير سنة ٦٤٠م، وآخرها هو يوم ٢٠ ديسمبر ٦٤٠م.

حصارها حتى ينال الجوع ممن فيها، وقد فضل عمرو الوسيلة الثانية، لأنه يريد فتحًا سريعًا يطمئن به قلب عمر، وقد ساعد على تحقيق أمنيته أن حامية المدينة كانت تتركها لتنازل العرب بين الحين والحين، فحدث مرة أن نزلت الحامية للقتال ثم كرت راجعة فسبقها العرب إلى الأبواب واقتحموها قبلهم، وهكذا استولى العرب على الفرما بعد حصار دام شهرًا واحدًا.

وأدرك عمرو بعد استيلائه على هذه المدينة ذات الموقع الممتاز والأهمية الكبيرة، وبعد الصدام الأول مع هذه الفئة القليلة من جند الروم أنه سوف لا يستطيع الاستيلاء على حصون مصر الأخرى وخاصة حصن بابليون إلا إذا وصلته إمداد جديدة من عمر، وهو يعلم أن الفرما تقع كما ذكرنا على رأس الطريق التى لابد أن يسلكها المدد عند مجيئة إلى مصر فلابد له إذن أن يترك بها حامية لحمايتها وحماية هذا الطريق،ولكن جنده كما نعلم قليل عديدهم، وهو فى أشد الحاجة لأن يزيد هذا الجند لا أن ينقصهم بترك طائفة منهم لحماية الفرما، ولعل عمرًا أيضًا قدر أنه فى حاجة لحماية هذه المدينة ليضمن طريق العودة إن قدر له أن يهزم فيرتد، وهو أيضًا فى حاجة إلى أن يسرع فى تقديمه ليفاجئ الروم قبل أن يستعدوا، لهذا كله قرر عمرو أن يهدم حصون المدينة وأسوارها ليخلص من هذا المشكل، ولكى لا يستفيد منها الروم إذا فكروا فى العودة إليها بعد مسيره.

ولنا أن نتساءل بعد ذلك لِمَ يقدر الروم هذه المدينة حق قدرها فيهتموا بالدفاع عنها وكان فى استطاعتهم - كما يقول بتلر - أن يرسلوا إليها عشرة آلاف جندى ليقضوا على قوة العرب الضئيلة ويؤخروا بذلك زمن الفتح العربى - ولا نقول يمنعوه - وقد كان فى مكنتهم هذا لأن الحصار دام شهرًا كاملاً، ولكنهم لم يرسلوا أى نجدة للمدينة وحاميتها، فكان قعودهم عن الفرما وإسلامهم لها كما يقول بتلر «أول ما ارتكبوه من خطل فى تلك الحرب»[١].

تقدم عمرو بعد ذلك جنوبًا - ولم ينقص جيشه بل زاد بمن انضم إليه من بدو الصحراء حتى وصل إلى مدينة بلبيس حيث ظل يحاصرها شهرًا آخر،استطاع فى نهايته أن يدحر جيش الروم هناك، وأن يسير بعد هذا النصر قدما نحو نهر النيل.

وصل عمرو إلى قرية أم دنين وكانت مرفأ هامًا على النيل شمالى حصن بابليون، وموقعها الحالى فى قلب القاهرة عند المكان الذى تشغله حديقة الأزبكية وما يجاورها، عند ذلك أدرك تيودور قائد الجيش الرومانى - كما أدرك قيرس - خطورة الحال، فانحدرا إلى حصن بابليون ينظمان قوة الدفاع فيه، وكان من الممكن الاتصال عن طريق النيل بين هذا الحصن وبين حامية أم دنين، فكان من السهل على الجيش الرومانى أن ينزل فى أى وقت شاء لملاقاة العرب ثم يعود فى يسر وسهولة بعد ذلك ليحتمى بأسوار الحصن، وقد فقد الجيش العربى كثيرًا من

---

(١) بتلر، ص ١٨٩.

أفراده أثناء هذه المناوشات وبدأت الكفتان تتكافآن، وأصبح مركز عمرو وجيشه حرجًا إن لم يتداركه عمر بالمدد، إذ لم يكن فى استطاعته البتة أن يفتح مدينة مصر وحصن بابليون الذى يحميها بمن معه من جند يقل عددهم يومًا بعد يوم، وهنا يقول بعض المؤرخين إن عمرا أرسل يستحث عمر لإرسال المدد، ثم أراد أن يشغل جنده بفتح آخر حتى يصل المدد، فعبر النيل وذهب ففتح إقليم الفيوم، وإن كان هذا الرأى مشكوكًا فيه، إذ كيف يخاطر عمرو فيعبر النيل بجنده ويسير جنوبًا ويعرض جيشه بذلك لهجوم الروم عليه من الشمال أو قطع الطريق بينه وبين المدد المنتظر.

ومهما يكن من أمر هذا الفتح فقد وصل المدد المنتظر[1] حوالى اليوم السادس من شهر يونيو، فأصبح جيش عمرو خمسة عشر ألفًا وستمائة جندى، فقوى بذلك بأسه وبدأ يستعد لموقعة عين شمس ولحصار حصن بابليون.

الدور الثانى

استقر عمرو بجيشه عند مدينة عين شمس، وجعل خطته أن يجتذب إليه جنود الرومان لينازلهم خارج الحصن، لأنه لم يكن للعرب كما ذكرنا خبرة بكيفية الاستيلاء على الحصون أو معرفة باستعمال الأسلحة التى تعينهم على ذلك.

وخرجت جيوش الروم رجالاً وفرسانًا وسلاحهم السيوف والرماح وعليهم عدة الدفاع من خوذ ودروع لملاقاة العرب فى السهل الواقع بين الحصن ومدينة عين شمس، وكانت العيون التى أرسلها عمرو من جيشه قد نقلت إليه عزم الرومان على القتال فى هذا السهل، فأعد لهم عمرو خطة حربية فذة قدر لها النجاح التام. فقد استقر بقلب جيشه عند عين شمس، وأرسل فى جنح الليل كمينًا من جنده استقر غربًا فى قرية أم دنين وكمينًا آخر اختبأ عند جبل المقطم[2]، ويقول بتلر: «ولعله كان فى ثنية الجبل بقرب الموضع الذى فيه اليوم قلعة الجبل، وأصدر عمرو أوامره إلى الكميتين أن ينقضا على جانبى الجيش الرومانى ومؤخرته فى الوقت المناسب».

وفى الصباح خرج جنود الرومان من الحصن وانتشروا فى السهل، ولم يفطنوا لخطة عمرو ومكيدته، لأنهم رأوه يتقدم بجنوده نحوهم من ناحية عين شمس (هليوبوليس)، والتقى

---

(١) يقول بتلر، ص ١٩٩: «وكان الأمير على المدد الزبير بن العوام ابن عمة النبى وصاحبه وأحد رجال الشورى الستة، وكان معه أربعة آلاف رجل، ثم جاء فى عقبه كتيبتان كل منهما أربعة آلاف رجل، فكان جميع من جاء من الإمداد اثنى عشر ألفًا».

(٢) كانت هذه الموقعة فى النصف الأول من شهر يوليو سنة ٦٤٠م.

الجيشان فى مكان وسط بين معسكريهما فى المكان المعروف باسم (العباسية) وبدأت المعركة، واشتد القتال وحمى وطيسه، فانقضت كتيبة الجبل - وعلى رأسها خارجة بن حذافة - على مؤخرة الرومان كما تنقض الصاعقة، وأعملت السيوف فى رقاب الرومان، فتولاهم الفزع وتملكهم الرعب، وانحدروا قليلاً جهة الغرب نحو قرية أم دنين؛ فخرجت إليهم الكتيبة الثانية، وأحاطت بهم، فاشتد بهم الذعر، وأيقنوا أنهم أحيطوا بالعرب من كل مكان، فتشتت شملهم، وقتل منهم العدد الأكبر، وفر من استطاع النجاة برًا إلى الحصن، ولجأ آخرون إلى القوارب النيلية فحملتهم إلى الحصن كذلك.

كان لهذه الهزيمة أثر سيء جدًا فى نفس الرومان، ولكن العرب أفادوا من نصرهم فائدة جليلة، فقد فتحت لهم هذه الموقعة الطريق إلى مدينة مصر، فاستولوا عليها ونقلوا إليها جيوشهم، فأصبحت معسكراتهم تشرف على الحصن مباشرة من جهتيه الشمالية والشرقية. وكان من أثر هذه الموقعة أيضًا أن فزع دومنتيانوس حاكم الفيوم، فتركها ليلاً دون حام يدافع عنها، وفر إلى نقيوس فى الشمال، فلما علم عمرو بفراره أرسل إليها فرقة من جنده فتحتها وضمتها لحكم المسلمين.

كان لعمرو بعد هذه الموقعة أن يختار أحد أمرين: أن يذهب بجيشه فيتتبع فلول الجيش الرومانى الذين فروا إلى الشمال ويتم وهو فى طريقه فتح الوجه البحرى، أو أن يقيم محاصرًا للحصن حتى يتم له فتحه، وقد فضل عمرو الأمر الثانى، وذلك لأن بلاد الوجه البحرى تفصل بينها فروع النيل وترعه ومجاريه المائية، وكان الوقت وقت فيضان والمياه تملأ هذه المجارى (نحو أوائل أغسطس سنة ٦٤٠م)، ثم إنه لو اتجه هذا الاتجاه لكان لزامًا عليه أن يشطر جيشه شطرين، شطر يبقى على حصار الحصن، وشطر يسير لفتح بلاد الوجه البحرى والإسكندرية، وعمرو يدرك أنه لا يستطيع أن يخلف وراءه عدوًا رابضًا فى الحصن، كما أنه لا يستطيع أن يفتح الإسكندرية بنصف جنده، لهذا فضل أن يرابط بجيشه كله حتى يستولى على الحصن، ثم يسير بجيشه كله لإتمام بقية الفتح، وهكذا فعل.

كان حصن بابليون قويًا منيعًا بأبراجه وأسواره، ويطل على النيل من ناحية الغرب، وكانت تقابله على الضفة الغربية جزيرة الروضة وهى منيعة أيضًا بأسوارها وحصونها، وكان الاتصال سهلاً دائمًا بين حامية الحصن وحامية الجزيرة وكانت مجانيق الرومان أفعل بالعرب مما كانوا يرمون به الحصن من حجارة وسهام ونبال.

غير أن الحالة المعنوية كانت فى جيش العرب على النقيض تمامًا مما كانت عليه الحالة المعنوية فى جيش الرومان، فبينما الجيش العربى يملأه الإيمان بعدالة فكرته، يندفع نحو القتال وهو يرجو الموت ليفوز بالجنة قبل أن يرجو الحياة فى النصر، وقد زادته سلسلة

الانتصارات المتتالية حماسًا فرق حماس وقوة إلى قوة إذا بجيش الرومان قد أثرت فيه سلسلة الهزائم، وبهرته قوة العرب واستبسالهم فى القتال، فانحلت قوى قواده قبل جنوده.

لهذا لم يمض على الحصار شهر حتى لعب اليأس بنفس المقوقس (قيرس)، فجمع من يثق بهم من رؤساء الحرس وأشرك معهم أسقف بابليون الملكانى (وذلك فى أوائل شهر أكتوبر سنة ٦٤٠م) وشرح لهم الموقف، وأفهمهم أن جيش العدو أصبح يفوق جيشهم عددا، وهو أقوى وأشجع وأكثر حماسًا، وأشد إقبالاً على القتال وإذا هم طلبوا المدد فإنه لا يصل إليهم قبل مضى شهر، ثم اقترح عليهم أن يفتدوا أنفسهم ومصر بمبلغ من المال يدفعونه إلى العرب ليتركوا مصر ويعودوا إلى بلادهم.

واستطاع قيرس أن يقنع أصحابه بحجته،ولكنه خشى أن يطلع جنود الحصن على رأيه وهم مصرون على القتال إلى النهاية، فاتفق مع صحبه أن يخرج من الحصن فى جنح الليل ويعبر إلى جزيرة الروضة حيث يستطيع أن يتصل بعمرو ويعرض عليه اقتراحه دون أن تعلم بذلك حامية الحصن.

وصل المقوقس إلى جزيرة الروضة، ومن هناك أرسل رسله ومن بينهم أسقف بابليون لمقابلة عمرو، فطلبوا منه أن يرسل إلى المقوقس بعض رجاله ليتفاهم الطرفان على إنهاء الحرب، ولم ينس رسل المقوقس أن يخيفوا عمرا ويحذروه من استمرار القتال، فذكروا له أن جيوش الروم كثيرة العدد ومزودة بالعدة والسلاح.

واحتجز عمرو الرسل يومين فى معسكره، وسمح لهم أن يتنقلوا بين جنوده، ثم بعث معهم برده وفيه يقول: ليس بنى وبينكم إلا إحدى ثلاث خصال: إما إن دخلتم فى الإسلام فكنتم إخوانا وكان لكم مالنا، وإن أبيتم فأعطيتم الجزية عن يد وأنتم صاغرون، وإما إن جاهدناكم بالصبر والقتال حتى يحكم الله بيننا وهو أحكم الحاكمين».

ثم أرسل عمرو بعد ذلك إلى المقوقس وفدًا من عشرة رجال على رأسهم عبادة بن الصامت. ودار بين الرجلين: المقوقس وعبادة نقاش طريف، عرض المقوقس خلاله على وفد العرب أن يصالحهم على أن يفرض لكل رجل منهم دينارين، ولأميرهم مائة دينار، ولخليفتهم ألف دينار على أن ينصرفوا إلى بلادهم، فسخر عبادة من هذا العرض، ورد عليه ردًا قويًا ختمه بقوله: فليس «بيننا وبينك خصلة نقبلها منك ولا نجيبك إليها إلا خصلة من ثلاث، فاختر أيها شئت ولا تطمع نفسك فى الباطل، بذلك أمرنى الأمير، وبها أمره أمير المؤمنين وهو عهد رسول الله ﷺ من قبل إلينا»».

وخلاً المقوقس بأصحابه، وعرض عليهم الأمر، فوجد منهم إعراضًا شديدًا عن الموافقة على الخصلة الأولى، لأنهم يعتزون بدينهم ولا يرون أن يتركوه لغيره، وأما عن الخصلة الثانية فقد

كانت إجابتهم «إنا إذا أذعنا للمسلمين ودفعنا الجزية لم نعد أن نكون عبيدًا، وللموت خير من هذا».

وعلى هذا انفض الجمع وهم مصرون على القتال عازمون عليه، وإن كان هذا يخالف رأى المقوقس الذى كان يعتقد وقتذاك بأن النصر سيكون حتما فى جانب العرب، وأنه من الواجب أن يعقد معهم صلحًا مشرفًا حقنا للدماء وصيانة للأرواح، وخاصة أن عبادة قد ذكر له أنهم إن دفعوا الجزية كانوا آمنين على أنفسهم وأموالهم وذرياتهم، مسلطين فى بلادهم على ما فى أيديهم وما يتوارثونه فيما بينهم، وحفظت لهم كنائسهم، لا يتعرض لهم أحد فى أمور دينهم[1].

ويبدو أن كبار الروم قد طلبوا من العرب عندما اختلفت آراؤهم الهدنة لمدة شهر، ولكن عمرًا لم يوافق إلا على إمهالهم ثلاثة فقط، غير أنهم لم يلبثوا أن عادوا إلى الحصن، وانتشر بين الجند خبر المفاوضات ورغبة قيروس فى عقد الصلح، فأصر الجنود على القتال.

وانتهت الأيام الثلاثة، ولم يتلق عمرو ردًا، فبدأ فى اليوم الرابع يفكر فى خطته القادمة، وإذا بحامية الحصن تأخذ العرب على غرة وتهاجم دون إنذار، ولكن العرب لم تبغتهم هذه المفاجأة، فسارعوا إلى أسلحتهم، وإلى عدوهم فأشبعوه قتلاً حتى فر راجعًا إلى الحصن، وقوت هذه الهزيمة إيمان قيروس بأن العرب لا يمكن أن يهزموا، وأن النصر لابد مكتوب لهم، كما أضعفت هذه الهزيمة من عزيمة الفريق المعارض لقيروس، فخضعوا مرغمين لرأيه.

وبدأت مفاوضات الصلح تتجدد غير أن عمرًا أصر على شروطه، لم يغير فيها حرفًا واحدًا، فاختار الروم الأمر الثانى وهو الإذعان مع دفع الجزية، وكتبت شروط الصلح على أن ترسل لإمبراطور الرومان هرقل كى يوافق عليها، وأخذ قيروس على عاتقه أن يتولى هو إرسالها، واتفق الطرفان على أن تهدأ الحالة بينهما ويبقى الحصن فى يد الرومان حتى يصل الرد من هرقل.

أسرع المقوقس فغادر الحصن إلى الإسكندرية، ومن هناك أرسل شروط الصلح إلى إمبراطوره، وأصحبها رسالة يبرر فيها موقفه ويعتذر لسيده لاضطراره إلى عقد الصلح، ويبين له أن العرب قوة لا يمكن أن تهزم، وأنه رأى بتصرفه هذا أن يحقن الدماء ويحمى مصر من الخراب؛ ويحلل بتلر فى الكلمات الآتية شعور هرقل عندما وصلته هذه الرسالة تحليلاً جميلاً فيقول:

«وليس بعجيب أن يكون هرقل قد حار فى أمر تلك الكتب التى جاءته من المقوقس، فإنها لا تبين إذا كان الصلح خاصًا بحصن بابليون أو إنه كان صلحًا على ترك بلاد مصر جميعها حتى الإسكندرية للعرب، ولا تبين هل يبقى العرب فى البلاد بعد أخذ الجزية أو يرحلون

---

(١) بتلر، ص ٢٢٦ – ٢٢٧.

عنها، فهل كان معنى ذلك الصلح نزع مصر من دولة الروم وإسلامها لأعداء المسيحية، لقد كان الإمبراطور منذ شهور يلوم قواده ولاسيما قيروس خليفته على مصر لأنهم فرطوا فى الأمر حتى استطاعت فئة قليلة من العرب أن ترفع ألويتها فى مصر وتغلب جيوش الدولة وتتحداها، فإذا به وقد بعث إليه بصلح ليس يدرى هل معناه رشوة العدو بمال يأخذه على أن يخرج عن تلك البلاد أم معناه إسلامها فيبقى ذلك العدو سيد الأرض يجبى له خراجها ويتنعم بقمحها وبخيراتها، عجب الإمبراطور ولم يدر ما الذى أدى إلى ذلك الإذعان، وعزم على أن يدعو (قيروس) المقوقس ليحاسبه على ما كان منه فى مصر»..

وأرسل هرقل رسالة إلى قيروس يستدعيه إليه، وكان لقاء عجيب بين الرجلين: فالإمبراطور يلوم عامله على مصر ويؤنبه على تهاونه وتقصيره حتى استطاع العرب — رغم قلة عديدهم — أن يوطدوا أقدامهم فى مصر، وقيروس ينتحل الأعذار ويبرر فعلته بما كان من ضعف الروم واستبسال العرب وتفانيهم فى القتال، غير أن هذه الأعذار لم تشفع له لدى سيده الذى رماه — وهو يتقد غضبًا وغيظًا — بالإجرام والخيانة والجبن، ثم أشبعه تقريعًا وتعنيفًا وأرسله إلى والى القسطنطينية فشهره وأهانه، وانتهى به الأمر إلى النفى.

وكان معنى هذه الحملة من هرقل أنه رافض لشروط الصلح، ووصلت أخبار هذا الرفض إلى مصر مع نهاية عام ٦٤٠م فانتهت بذلك الهدنة، واستؤنف القتال، وكانت المياه قد غاضت من الخنادق المحيطة بالحصن، فاستعاض عنها الرومان بحسك الحديد وألقوه فى قيعان هذه الخنادق.

واستمر حصار العرب للحصن طول فصل الشتاء وهم يناوشون الروم ليلاً ونهارًا، ويقال إن جماعة من جند الروم الذين كانوا بالفيوم — وكانوا أكثر معرفة بفن مهاجمة الحصون — قد انضموا للعرب أثناء الحصار فكانوا يعبرون النيل فى سفنهم ليلاً فينهبون جزيرة الروضة أو يسلبون سفن الروم العابرة بين الجزيرة والحصن، ثم فتكت الأمراض بالجنود داخل الحصن وتناقص عددهم، وظلوا يترقبون وصول المدد من بلاد الروم، ولكن جنديًا واحدًا لم يصلهم، وإنما وصلتهم أنباء تنذر بالشر ولا تبشر بالخير، فقد علموا بالغضب الذى استحوذ على هرقل، كما وصلهم ما أصاب المقوقس من تعذيب وتعنيف وتشهير ونفى، ثم ألقى إليهم أخيرًا ما كان من رفض الإمبراطور للصلح.

وفى أوائل شهر مارس سنة ٦٤١م حملت إليهم الريح أصوات جند العدو جميعا تقصف كالرعد مهللة مكبرة، وتساءلوا فعلموا أن إمبراطورهم الشيخ الباسل قد مات، ففت ذلك الخبر فى عضدهم، وقضى على البقية الباقية فى نفوسهم من أمل، ومع ذلك فقد ظل الحصن شرًا بعد ذلك يبذل الجهد الأخير ولا يسلم، فلما أبطأ الفتح قيل إن الزبير بن العوام وهب نفسه لله ووضع خطة جريئة لفتح الحصن تتفق وروحه وشجاعته، وكان العرب قد تمكنوا — رغم دفاع

حامية الحصن – من طم جزء من الخندق، وفى جنح الليل تقدم الزبير فوضع سلمًا على السور، ويرجح أنه اختار الناحية الجنوبية الغربية منه[1] وصعد عليه، فلم يشعر الروم إلا والزبير على رأس الحصن يكبر وسيفه فى يده، فاندفعوا يسعون لصده ورده، غير أن العرب طاردوهم بسهامهم التى أرسلت كالمطر المنهمر خارج الحصن إلى داخله، وتسارع أيضًا أنصار الزبير إلى السلم، واعتلوا السور إلى جانبه، غير أنه يبدو أن الروم كانوا يتوقعون هجوم العرب من هذه الناحية، فأقاموا هناك حائطًا تعترض المشى فوق السور من جانبى ذلك الموضع.

وكان من الممكن لو صمد الروم وثبتوا قليلاً أن يردوا العرب الذين تسلقوا عليهم الحصن ويفنوهم قتلاً بسهامهم، غير أن خطة الزبير الجريئة كانت قد قضت على آخر شعاع من حماس، أو رغبة فى الدفاع، أو قوة على النضال عند الروم، فلم تكد الشمس تشرق حتى أرسل جورج قائد الحصن يعرض الصلح على عمرو بعد حصار دام سبعة أشهر، ويقال إن الزبير عارض فى أمر هذا الصلح وقال لعمرو: «إنك لو انتظرت قليلاً لفتحنا الحصن عنوة»، غير أن عمرًا لم يستمع له، وأجاب دعوة قائد الحصن فى الحال، وكتب عهد الصلح بين الفريقين، وأهم شروطه:

١ – أن يخرج الجند من الحصن فى مدى ثلاثة أيام.

٢ – أن يرحلوا عن طريق النهر ويحملوا معهم من القوت ما يكفيهم لبضعة أيام.

٣ – أن يستولى العرب على الحصن وجميع ما فيه من ذخائر وآلات الحرب.

وكانت هذه الحملة الأخيرة على الحصن يوم الجمعة السادس من أبريل سنة ٦٤١م، وبعد ثلاثة أيام، أى فى يوم عيد الفصح من تلك السنة، كان رحيل الروم عن الحصن وعن جزيرة الروضة متجهين شمالا إلى العاصمة آخر معقل لهم فى مصر.

الدور الثالث

اتخذ عمرو بجيشه بعد ذلك الطريق إلى الإسكندرية، واستطاع أن يتغلب على المدن الحصينة التى قابلته، وأهمها: طرنوط – أو الطرانة كما يسميها العرب – ونقيوس، وسلطيس، وكريون وكانت آخر حصن فى الطريق إلى الإسكندرية، فلما افتتحها العرب خلالهم هذا الطريق، وأشرفوا على المدينة الحصينة، وحل موسم الفيضان من جديد، وكان الأسطول البيزنطى يحمى المدينة ويزودها بالمؤن والسلاح، فرأى عمرو أنه من العبث أن يستطيع العرب التغلب على حصونها وأسوارها، فترك قوة مسلحة ترابط جنوب المدينة، وخرج بفرق من جيشه لإخضاع بعض مدن مصر السفلى، ثم عاد إلى بابليون وخرج منها إلى الصعيد، فأكمل فتح الجزء الأكبر من مصر الوسطى.

---

(١) انظر: بتلر، ص ٢٣٦، هامش ٣.

وكانت الأمور فى القسطنطينية تسير بعد موت هرقل من سيء إلى أسوأ، فقد تولى الحكم من بعده ولداه قسطنطين وهرقل الثانى تساعدهما الإمبراطورة التى استدعت قيروس من المنفى وأعادته إلى مصر مزودًا بالسلطة التامة لعقد الصلح مع العرب، وقد وصل قيروس بأسطوله إلى الإسكندرية، ثم غادرها إلى بابليون حيث عقد مع عمرو بن العاص الصلح الأخير، ويسميه بتلر صلح الإسكندرية، لأنه خاص فى جملته بأهالى الإسكندرية، وتمييزًا له عن صلح بابليون الذى عقده جورج عند تسليم الحصن، وأهم شروط الصلح الأخير:

١ - أن يدفع الجزية كل من دخل فى العقد.

٢ - أن تعقد هدنة لنحو أحد عشر شهرًا يجلو الروم خلالها عن مصر ويبحرون إلى بلادهم.

٣ - أن يبقى العرب فى مواضعهم أثناء هذه الهدنة على أن يعتزلوا وحدهم ولا يسعوا أى سعى لقتال الإسكندرية، وأن يكف الروم كذلك عن القتال.

٤ - أن ترحل مسلحة الإسكندرية فى البحر ويحمل جنودها معهم متاعهم وأموالهم جميعها، على أن من أراد الرحيل عن طريق البر فله أن يفعل على أن يدفع كل شهر جزءًا معلومًا ما بقى فى أرض مصر أثناء رحلته.

٥ - أن لا يعود جيش الروم إلى مصر أو يسعى لردها.

٦ - أن يعد العرب بعدم التعرض لكنائس المسيحيين أو لشئونهم الدينية.

٧ - أن يسمح لليهود بالإقامة فى الإسكندرية.

٨ - أن يبعث الروم مائة وخمسين من جنودهم وخمسين من غير الجند رهائن لتكون ضمانًا لتنفيذ شروط هذه المساعدة.

وقد أمضيت هذه المعاهدة فى أوائل شهر نوفمبر سنة ٦٤١م، وأبحرت الجنود الرومانية إلى بلادها فى ١٧ سبتمبر سنة ٦٤٢م (٢١ هـ).

الباب الأول

مدينة الفسطاط، تأسيسها ونموها

الفصل الأول : الفسطاط، كيف اختير مكانها ولم سميت بهذا الاسم ؟

الفصل الثانى : مدينة الفسطاط من الناحية العمرانية :

(أ) تخطيط المدينة .

(ب) نمو المدينة شرقا وغربا :

١ - النمو شرقا : العسكر، القطائع، القاهرة .

٢ - النمو غربا : جزيرة الروضة، الجيزة .

(جـ) نمو المدينة ذاتها .

الفصل الأول

مدينة الفسطاط - تأسيسها ونموها

كيف اختير مكانها ؟ ولم سميت بهذا الاسم ؟

يستطيع القارئ لأخبار الفتح العربى لمصر أن يلمح فى يسر ووضوح أن الحرب لم تكن قائمة إلا بين العرب والروم ، وأن القبط قد وقفوا من الجيشين موقف المحايد ، وإن كانوا فى سرائرهم يتمنون النصر للعرب ، لما سمعوه عنهم من حسن السياسة وطيب المعاملة ، ولهذا استمر الروم يدافعون عن مصر وراء حصن نابليون سبعة أشهر طوالاً ، والعرب يستمدون من الحماسة الدينية والإيمان قوة لا تأبه للعقبات وصبرًا لا يعرف الملل .

ولما سقط هذا الحصن فى أيدى العرب زالت من طريقهم أكبر عقبة من عقبات الفتح ، وتراجع الروم إلى الإسكندرية ، فتبعهم المسلمون وحاربوهم حتى استولوا عليها ، وبسقوط العاصمة الرومانية فى أكتوبر سنة ٦٤١م تم فتح العرب لمصر ، فانتشروا فى ربوعها حتى وصلوا إلى الشلال الأول ، وبذلك أصبحت مصر ولاية من ولايات الخلافة الإسلامية .

عمرو يريد أن يتخذ لمصر عاصمة :

روى أن ابن عبد الحكم عن يزيد بن أبى حبيب أن عمرو بن العاص لما فتح الإسكندرية ورأى بيوتها وبناءها مفروغًا منها هم أن يسكنها وقال : (مساكن قد كفيناها) ، فكتب إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه يستأذنه فى ذلك ، فسأل عمر الرسول :

(هل يحول بينى وبين المسلمين ماء ؟) .

قال : (نعم يا أمير المؤمنين إذا جرى النيل) .

فكتب عمر إلى عمرو : (إنى لا أحب أن ينزل المسلمون منزلاً يحول الماء بينى وبينهم فيه شتاء ولا صيفا ، فتحول عمرو بن العاص من الإسكندرية إلى الفسطاط[1] .

قد تبعث هذه الرواية على التساؤل : لم كان عمر يخشى الماء ؟ يقول بعض المؤرخين إن العرب لم تكن أمة بحرية ، وبذلك أبى بعد النظر على عمر أن يلقى بجنود المسلمين فى مكان يفصل بينه وبين المدينة ماء حتى لا يكون هذا الماء إذا حزبهم الأمر حائلاً بينهم وبين الوصول إلى مركز قوتهم ، وإذا أراد الخليفة أن يبعث إلى جنده بمصر مددًا لم يكن هناك ماء يعترض سبيل هذا المدد ويمنع وصولهم .

---

(١) السيوطى : حسن المحاضرة ، القاهرة ١٣٢٧هـ ، ج ١ ، ص ٥٧ .

ولنا أن نتساءل مرة أخرى . لم اختار عمرو هذا المكان دون غيره لبناء مدينة الفسطاط ؟

وهنا تتشعب الآراء وتتعدد ، ولكنها برغم تشعبها وتعددها لا تصل إلى رأى حاسم معقول، فغالبية المؤرخين المصريين كابن عبد الحكم ، وابن دقماق ، والمقريزى ، وأبى المحاسن، والسيوطى وغيرهم يروون حادث اليمامة على أنه السبب الأساسى لاختيار عمرو لهذا المكان ، ونزوله وجيشه بين ربوعه ، وغالبية المؤرخين الفرنجة كبتلر ، ولين بول ، وكازانوفا وغيرهم لا يهتمون بمناقشة الأسباب التى دعت لاختيار هذا المكان دون غيره ما يهتمون بمناقشة الآراء المختلفة فى سبب تسمية هذه الحاضرة بالفسطاط .

ورغم أنهم يستطرفون قصة اليمامة فإنهم يرجعون هذا الاسم إلى الكلمة الإغريقية Fossatum (أى المدينة) ، ويقولون بأن العرب نقلوها عن الروم الشرقيين عند اتصالهم بهم فى حروب الشام .

غير أننا نحب أن نعنى بالأمرين جميعًا لما لكل من الأهمية ، ولذا سنحاول :

أولاً : مناقشة الأسباب التى دعت لاختيار هذا المكان ليكون حاضرة الديار المصرية بعد إتمام الفتح العربى .

ثانيًا : مناقشة الأسباب التى دعت لتسمية هذا المكان بالفسطاط.

١ - أسباب اختيار هذا المكان :

أما عن الأمر الأول فيقول المقريزى فى خططه : (أعلم أن موضع الفسطاط الذى يقال له اليوم مدينة مصر كان فضاء ومزارع فيما بين النيل والجبل الشرقى الذى يعرف بجبل المقطم ، وليس فيه من البناء والعمارة سوى حصن يعرف اليوم بعضه بقصر الشمع وبالمعلقة، ينزل به شحنة المتولى على مصر من قبل القياصرة ملوك الروم عند سيره من مدينة الإسكندرية ، يقيم فيه ما يشاء ثم يعود إلى دار الإمارة)[1] .

من هذا يبدو أن العرب قد أنشأوا مدينتهم (الفسطاط) فى الفضاء المجاور لحصن بابليون - مقر الدفاع الرومانى - ، وهنا نجد اختلافًا آخر بين المؤرخين بشأن كلمة (بابليون) . فالبعض يطلقها على الحصن فحسب ، والبعض الآخر يقول بوجود مدينة حول الحصن كانت تسمى بهذا الاسم ، وزعيم الفريق الثانى هو الدكتور بتلر ، وقد لخص رأيه فى هذه الفقرة .

---

(١) المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ٥٩ ، مطبعة النيل بالقاهرة سنة ١٣٢٤هـ .

١ – كانت تقوم فى زمن الفراعنة مكان مصر القديمة (الفسطاط) مدينة ذات شأن يدل عليها وجود بعض التماثيل المصرية ، مثل (سرية أبى الهول) وأن بعضًا من هذه التماثيل بقى حتى زمن الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمى[1] .

٢ – وفى القرن السادس قبل الميلاد اتخذ البابليون لهم فى هذا المكان معسكرًا حربيًا وأنشأوا هناك حصنًا على المرتفعات الصخرية التى سماها العرب فيما بعد (الرصد) .

٣ – ومن هذا المعسكر انتشر اسم (بابليون) ختى شمل الإقليم المجاور وأصبح الاسم المميز لمدينة عظيمة تمتد بعيدًا شمال الرصد حتى تتصل بأطراف المدينة القديمة العظيمة المنحلة وقتذاك : (هليوبوليس أو عين شمس) .

٤ – وعندما أراد تراجان أن يعزز قوته عند رأس الدلتا ، واعتزم أن يبنى حصنًا قويًا كقلعة لبابليون ترك حصن الفرس القائم على الرصد وأنشأ قلعته على شاطىء النيل ، وذلك ليضمن وجود الماء بالقرب من حاميته ، ولتستطيع تلك الحامية الاتصال – بوساطة النيل – بسائر جهات القطر المصرى ، وسمى هذا الحصن بحصن بابليون (أى حصن مدينة بابليون) أو قلعة مصر – Castle of Khemi ، وقد حرف العرب هذا الاسم فيما بعد فسموه قصر الشمع .

٥ – وبذلك هجر حصن الرصد الفارسى واستولت عليه عوامل الانحلال والنسيان ، حتى إذا كان الفتح العربى بعد ذلك بخمسة قرون ونصف كانت الأخبار على وجوده عامة لا تكاد تذكر.

٦ – أن اسم بابليون الذى وجده العرب عند قدومهم يطل على مدينة مصر قد تلاشى بمرور الزمن ، وحل مكانه الاسم العربى الجديد (الفسطاط) ، حتى إذا ابتدأ مؤرخو العرب يدونون كتبهم كان اسم (بابليون) قد أصبح يطلق على قصر الشمع فحسب بعد أن انتزع من المدينة التى أصبحت بعد اتساعها ونموها تسمى بالفسطاط.

٧ – ولكن هذا الاستعمال المحدود للاسم ابتدأ كذلك يتلاشى فى مصر فى الأزمنة الحديثة ، وغادر الاسم الأنقاض الباقية من قصر الشمع ، وتضاءل حتى غدًا يطلق على دير قبطى صغير

---

(١) يذكر ابن دقماق فى كتاب (الانتصار لواسطة عقد الأمصار) ، جـ ٤ ، ص ٢١ – ٢٢ بولاق ١٣٠٩هـ ، عند كلامه عن الأزقة التى كانت بالفسطاط (زقاق الصنم) ، ويقول إنه سمى بهذا الاسم لوجود صنم به كان يسمي (سرية أبى الهول) ، وقد هدمه الأمير بلاط سنة ٧١١هـ ، فى سلطنة الناصر محمد بن قلاوون (انظر أيضًا : المقريزى، الخطط، جـ ٣ ، ص ٢٨٨)، ويتفق مع هذا أيضًا ما رواه ابن الفقيه فى كتابه البلدان ، ص ٦٠ عن وجود تمثال من الحجر لامرأة كات بالفسطاط ، وما رواه المقدسى فى كتابه (أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم) ص ٢١١، ليدن، سنة ١٨٧٧م ، إذ يقول : (وفى الفسطاط عند قصر الشمع امرأة ممسوخة على رأسها سفرة من حجر.. إلخ)، هذا وقد عثر فى السنوات الأخيرة على قطع من الحجر فى حفائر الفسطاط مكتوب عليها بالخط الهيروغليفى وقد نقلت إلى دار الآثار المصرية .

يقع عند البوابة الجنوبية من الحصن ويسمى (دير بابليون) ، وعند ذلك الدير الصغير استقر ذلك الاسم التاريخى القديم بعد أن خلفه فى تسمية المدينة (لفظ الفسطاط) ، وبعد أن خلفه فى تسمية الحصن لفظ (قصر الشمع)[1] .

ونحن لا يهمنا من هذا التحليل كله لتطور استعمال كلمة بابليون إلا أن نعرف أن المكان الذى أنشأت عليه الفسطاط كانت تشغله منذ أيام الفراعنة مدينة كبيرة ذات شأن اتخذها البابليون مكانًا لاستقرارهم ، ثم اتخذها الرومان مقرًا لدفاعهم يصلون به الوجهين البحرى القبلى ، ويدفعون منه كل مغير على مصر .

وهذا ما يؤيد الرأى الذى نريد أن نذهب إليه من أنه كان فى مصر وقت الفتح مدينتان هامتان: إحداهما الإسكندرية، وتعتبر العاصمة الأولى وذلك لقربها من الدولة الرومانية الشرقية صاحبة السيادة وقتذاك ، ولإشرافها على البحر الأبيض المتوسط ؛ وبابليون أو (مصر) وتعتبر العاصمة الثانية ، وذلك لموضعها من رأس الدلتا بحيث تشرف على الوجهين القبلى والبحرى، ولوقعها على شاطئ النيل بحيث تكون سهلة الاتصال – بوساطة هذا النهر – بكل أطراف القطر المصرى، ولتوسطها بين النيل غربًا (وهو مورد من الماء لا ينفد) وبين جبل المقطم شرقًا – وهو حد طبيعى لحمايتها – ولهذا نلاحظ أن المصريين منذ القدم كانوا يختارون هذا المكان مقرًا لحكمهم للأسباب المتقدم ذكرها[2] ، فاتخذوا منف عاصمة لهم مدة ليست بالقليلة، وكانت هليوبوليس (عين شمس)[3] كذلك حاضرة لمصر مدة طويلة[4] ، وبابليون كما ترى تقع بين المدينتين[5]، يقول ابن حوقل فى كتابه (المسالك والممالك) : (عين شمس ومنف قريتان قد خربتا، كانتا منتزها لفرعون .. عين شمس عن شمال الفسطاط، ومنف عن جنوبه) .

ويؤيد هذا الرأى القائل بوجود هذه المدينة أيضًا قول المقريزى : (وكان بجوار هذا الحصن (بابليون) من بحريه وهى الجهة الشمالية أشجار وكروم وصار موضعها الجامع العتيق ، وفيما بين الحصن والجبل عدة كنائس وديارات للنصارى فى الموضع الذى يعرف اليوم براشدة ، وبجانب الحصن فيما بين الكروم التى بجانبه وبين الجرف الذى يعرف اليوم بجبل يشكر

---

(١) Butler : Babylon of Egypt. Oxford, 1914, p. 62-63.

(٢) يقارن هذا بما ذكره ابن خلدون فى مقدمته ، ص ١٩٠ – ١٩١ ، القاهرة سنة ١٣٢٢ هـ ، عما تجب مراعاته فى أوضاع المدن .

(٣) يقول ابن دقماق ، جـ ٤ ، ص ٣ ، نقلاً عن ابن سعيد : (كانت مبانيها (أى مبانى مصر) فى قديم الزمان متصلة بمبانى عين شمس) .

(٤) وقد بنيت العواصم المصرية الأخرى كلها شمال هذا المكان (العسكر سنة ١٣٣هـ ، والقطائع سنة ٢٥٦هـ ، والقاهرة سنة ٣٥٨هـ) .

(٥) يعين ابن الفقيه فى كتابه (مختصر البلدان) موقع الفسطاط (بابليون) بالنسبة للمدينتين القديمتين فى قوله : (وعين شمس على ٣ فراسخ من الفسطاط ومنف مساكن بينها وبين عين شمس ٣ فراسخ) .

حيث جامع ابن طولون والكبش عدة كنائس وديارات للنصارى فى الموضع الذى كان فى أوائل الإسلام بالحمراء)[1] .

وقول ابن سعيد فى كتابه المغرب :

(وأما فسطاط مصر فإن مبانيها كانت فى القديم متصلة بمبانى عين شمس ، وجاء الإسلام وبها يعرف بالقصر حوله مساكن)[2] .

ونحن نعرف أن المعابد عامة - من هياكل وبيع وكنائس ومساجد ٠ منذ أقدم العصور إلى اليوم - لا تبنى إلا فى المدن أو الأماكن الآهلة بالسكان ، فوجود هذه الكنائس والديارات فى الأماكن التى يذكرها المقريزى تثبت إثباتًا قاطعًا وجود مساكن آهلة ومبان عامرة فى هذه المدينة القديمة وقت الفتح ، وقول ابن سعيد لا يحتاج إلى هذا الاستنتاج ، إذ يقول فى عبارة واضحة لا لبس فيها ولا إبهام : (وجاء الإسلام وبها بناء يعرف بالقصر حوله مساكن) .

من هذا نرى أن اختيار عمرو لهذا المكان لم يقع اعتباطًا ، بل كان اختيارًا طبيعيًا . كان عمرو يريد أن يتخذ له حاضرة يستقر فيها ، غير أنه ما كان يريد أن يبذل جهدًا فى إنشاء هذه الحاضرة بدليل رغبته فى اتخاذ الإسكندرية حاضرة ، وبدليل تعبيره عن هذه الرغبة بقوله : (مساكن قد كفيناها)[3] ولكن عمر قد أمره أن يتحول عن الإسكندرية ، فكان لزامًا على عمرو أن يحول وجهه شطر العاصمة الثانية وقتذاك وهى (بابليون) أو (مصر) ، فذهب إليها، واتخذ الفضاء المجاور لها مقرًا له ولجنوده .

هذه هى الأسباب الطبيعية التى دعت عمرًا لاختيار هذا المكان ، غفل عن ذكرها مؤرخو العرب ، ولم يعرها اهتمامًا مؤرخو الفرنج .

٢ - لم سميت المدينة بهذا الاسم ؟ :

أما عن الأمر الثانى وهو الأسباب التى دعت لتسمية هذا المكان بالفسطاط فإن الآراء فيها وإن اختلفت وتشعبت فإنها كذلك لا تصل بنا إلى حل حاسم معقول .

أما مؤرخو العرب فيعتمدون جميعًا على قصة اليمامة ، وأما مؤرخو الفرنجة فتقول غالبيتهم بأن كلمة الفسطاط قد أخذت عن الكلمة الإغريقية Fossatum أى المدينة ، وأن العرب نقلوها عن اليونان عند اتصالهم بهم فى حروب الشام:

---

(١) المقريزى : المرجع السابق ، ص ٦٠ .

(٢) نفس المرجع ، ص ٦٢ .

(٣) المقريزى : المرجع السابق ، ص ٧٥ - ٧٦ .

غير أنا نرى أن قصة اليمامة مع طرافتها قد تبعد عن الصحة، وذلك لأنهم يقولون إن عمرًا قد أوصى أحد المصريين - فى رواية - أو صاحب القصر - فى رواية أخرى - بالمحافظة على الخيمة «الفسطاط» حتى تفرخ اليمامة وتطير صغارها، وأنه عند رجوعه وجد الفسطاط فى مكانه، فنزل هو وجنده بجواره، ونحن نشك فى صحة هذا الخبر لأن عمرًا ولو أنه كان قد استولى على حصن بابليون فإن مصر لم تكن قد خضعت كلها لأمره، ولذلك لا يعقل أن ذلك الرجل المكلف بالمحافظة على الفسطاط يبقى على عهده ويحافظ على وعده مع رجل فاتح لم يثق بعد أنه أصبح الحاكم على مصر حتى يخشاه ويحافظ على حراسة فسطاطه من أجل يمامة طول ذلك الوقت الذى استنفده عمرو فى فتح الإسكندرية وما بين بابليون والإسكندرية من مدن.

ويدفعنا أيضًا إلى الشك فى صحة هذه القصة ما هو معروف مشهور عن الطيور المختلفة وخاصة الحمام واليمام من أنها تتخير لأعشاشها وبيضها وفراخها الأماكن المنعزلة المهجورة البعيدة عن أن يطرقها إنسان أو تنالها الأيدى صونًا للأعشاش وحفظًا للبيض وإبقاء على الصغار.

فهل من المعقول إذن أن تترك هذه اليمامة العمرية تلك الأماكن الآمنة لتضع بيضها فى معسكر دائم النشاط دائب الحركة، وفى خيمة القائد، وهى أنشط أماكن المعسكر بالحركة وأعمرها بالوافدين؟.

وإذا كانت هذه القصة صحيحة ففى أى مكان من الخيمة تبنى اليمامة عشها، والخيمة كما نعرفها جميعا مصنوعة من قماش أملس وهى منحدرة الجوانب إذا نصبت[1].

كل هذا يؤيد شكنا فى صحة هذه القصة وكونها أصلاً للتسمية.

أما الرأى الثانى فيبدو كذلك بعيدًا عن الصحة، وذلك لأن ابن قتيبه يروى فى كتابه «غريب الحديث» حديثًا للرسول نصه: «عليكم بالجماعة فإن يد الله على الفسطاط»[2]، ونحن إزاء هذا نجد أنفسنا أمام احتمالين: إما إن يكون الحديث صحيحًا فيبطل الرأى القائل بأن العرب أخذوا كلمة الفسطاط عن الروم عند اتصالهم بهم فى حروب الشام، لأن حروب الشام واتصال العرب بالروم كان بعد وفاة النبى ﷺ، وبالتالى بعد ذكره لهذا الحديث، وإما أن يكون الحديث غير صحيح، وبذلك يحتمل أن يكون رأى مؤرخى الفرنجة صحيحًا.

---

(١) يذكر هذه القصة بالتفصيل مؤرخو العرب جميعا، انظر مثلاً: المقريزى، المرجع السابق ص ٧٦؛ وابن دقماق: المرجع السابق، ص ٢، ومراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، إبريل سنة ١٨٤١م، جـ ٢ ص٣٥٤؛ وأبو المحاسن، النجوم الزاهرة، جـ ١، ص ٦٤، ٦٥، القاهرة سنة ١٩٢٩م.. إلخ غير أنه يتضح بعد مناقشتها أنها من وضح هؤلاء المؤرخين كغيرها من القصص التى تنسب لعهد الفتح، وخاصة قصة الفتاة التى كانت تقدم ضحية ليفيض النيل، والخطاب الذى أرسله عمر ليلقى بدلاً من الفتاة.

(٢) ورد هذا الحديث أيضًا فى: ابن دقماق: الانتصار، ج ٤، ص ٢، انظر أيضًا ياقوت: معجم البلدان.

غير أننا نحب أن ندلى برأى يخالف هذين الرأيين وقد يكون أقرب منهما إلى الحقيقة، وذلك أن كلمة الفسطاط كلمة عربية معناها المدينة، فإننا إذا رجعنا إلى القاموس المحيط وجدنا أن «الفسطاط» بالضم «مجتمع أهل الكورة»، ووجدنا أن الكورة هى «الصقع أو المدينة» وبذلك تكون الفسطاط هى مجتمع أهل المدينة.

ويقول ابن قتيبة تعقيبًا على الحديث سالف الذكر: «والفسطاط المدينة»[1]، وينقل عنه المقريزى أيضًا فى الخطط ما يلى: «قال ابن قتيبة.كل مدينة فسطاط»[2].

ويقول المقريزى بعد هذا: «وأخبرنى أبو حاتم الأصمعى أنه قال: حدثنى رجل من بنى تميم قال: قرأت فى كتاب رجل من قريش هذا ما اشترى فلان بن فلان من عجلان مولى زياد، اشترى منه خمسمائة جريب حيال الفسطاط، يريد البصرة»[3].

ويشبه هذه الرواية الأخيرة ويؤيدها قول ابن الفقيه:

«وإنما سميت البصرة فسطاطًا على التشبيه بفسطاط مصر»[4].

وقريب من هذا المعنى قول المقدسى: «الفسطاط هو مصر فى كل قول»[5].

فالراجح عقلاً بعد ذكر هذه الآراء جميعا أن كلمة «فسطاط» كلمة عربية خالصة معناها «المدينة».

وخلاصة القول الذى نريد أن نذهب إليه أن العرب اختاروا هذا المكان اختيارا للأسباب السابق ذكرها، وأنهم سموه الفسطاط أى «المدينة» أو«مجتمع أهل المدينة».

يقصدون بذلك المكان الذى يجتمعون فيه حول جامعهم وحول منزل قائدهم.

---

(١) ابن دقماق: الانتصار، جـ ٤، ص ٢.

(٢) يقول القلقشندى: صبح الأعشى، جـ ٣، ص ٢٢٦ «قال ابن قتيبة إن كل مدينة تسمى فسطاط، ولذلك سميت مصر الفسطاط».

(٣) المقريزى: المرجع السابق، ٢ ج، ص ٧٥ — ٧٦.

(٤) ابن الفقيه: كتاب مختصر البلدان، ص ٦٧.

(٥) المقدسى: أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، ص ١٩٧.

الفصل الثانى

مدينـة الفسـطاط

من الناحية العمرانية

(أ) تخطيط المدينة

كان أول ما عنى به عمرو بن العاص بعد أن خضعت له مصر أن بدأ يشـيد مسجده الجـامع فى الحاضرة التى اختارها، وبنى فى شرقى المسجد دارًا خاصة لسكنه كانت تعرف بعد ذلك باسم «دار عمرو الكبرى»، وكان مدخله إليها من بابـها القبلـى الـذى فـى زقـاق القنـاديل»[١]، أعمر الأزقة بالفسطاط وسكن كبار القوم فيما بعد، كما بنى ابنه عبد الله بن عمـرو دارًا ملاصقـة لدار أبيه، عرفت باسم «دار عمرو الصغرى»[٢].

وقد اختطت القبائل العربية حول المسجد الجامع ودار عمرو، واختار عمرو أربعة نفر يمثلون القبائل الكبرى لتقسيم الخطط بين القبائل حتـى لا ينشـب بينـها نـزاع، وهـؤلاء الأربعـة هـم: معاوية بن حديج التجيبى، وشريك بن سمى الغطيفى من مراد، وعمرو بـن مخـزوم الخولانـى، وحيويل بن ناشرة المعافرى، «فكانوا هم الذين أنزلوا الناس، وفصلوا بـين القبـائل، وذلـك فـى سنة إحدى وعشرين»[٣].

وقال ابن عبد الحكم إنه لما اختطت القبائل استحبت همدان وما والاها الجيزة، فكتب عمرو ابن العاص يستفتى عمر فى ذلك، فأرسل إليه عمر يقول:

«كيف رضيت أن تفرق أصحابك، ولم يكن ينبغى لك أن ترضى لأحد من أصحابك أن يكون بينك وبينهم بحر، لا تدرى ما يفجؤهم، فلعلك لا تقدر على غياثهم حين ينزل بهم مـا تكـره، فاجمعهم إليك، فإن أبوا وأعجبهم موضعهم فابن عليهم من فىء المسلمين حصنًا»[٤].

وأبلغ عمرو هذه القبائل أوامر الخليفة، فأبوا أن يغيروا موضعهم الذى اختاروه فـى الجـيزة، فبنى لهم عمرو الحصن الذى فى الجيزة فى سنة إحدى وعشـرين، وفـرغ مـن بنائـه فـى سـنة اثنتين وعشرين.

---

(١) و (٢) ابن دقماق: الانتصار لواسطة عقد الأمصار، ج ٤، ص ٧.

(٣) ابـن دقمـاق: المرجـع السـابق، جـ ٤، ص ٣ والسيوطى: حسـن المحـاضرة، جـ ١، ص ٥٧ – ٥٨؛ القلقشندى: صبح الأعشى، جـ ٣، ص ٣٠٧.

(٤) ابن دقماق: المرجع السابق جـ ٤، ص ٣.

واختطت قبائل همدان ونو صبح ونافع وغيرها بالجيزة، وتركوا فضاء بين القبيـل والقبيـل، فلما قدمت الإمداد فى زمن عثمان بن عفان وما بعد ذلك، وكـثر النـاس «وسـع كـل قـوم لبنى أبيهم حتى كثر البنيان والتأمت خطط الجيزة»[1].

ويقول بتلر:

«لا شك فى أن الذين اختطوا المدينة الجديدة وبنوها كانوا من القبـط، إذ لم يكـن عنـد ذلك فى العرب من له علم بذلك الفن ولا دراية به».

ولكن غالبية المؤرخين المحدثـين لا يتفقون مـع بتلـر فـى هـذا الـرأى، بـل يـأخذون بـآراء المؤرخين العرب القدامى التـى تعـهد بتخطيـط المدينـة إلى الأربعـة السـابق ذكرهـم، إذ لم تكـن الفسطاط وقت إنشائها من التعقيد والكبر بحيث تحتاج لخبرة القبط أو فنهم.

ويصنف «متز» فى كتابه «الحضـارة الإسـلامية فـى القـرن الرابـع الهجـرى»[2] المـدن التـى أسست فى الدولة الإسلامية إلى أربعة أنواع:

١ – مدن على الطراز الهيلينى المعروف فى حوض البحر الأبيض المتوسط.

٢ – والمدن التى كانت تشيد على الطراز البابلى.

٣ – والمدن التى كانت على الطراز المعروف فى شرقى الدولة الإسلامية (الإيرانى مثلاً).

٤ – والمدن التى على طراز جنوبى جزيرة العـرب، ومثلـها صنعـاء، ومـن هـذا الطـراز مكـة والفسطاط.

ومن البديهى أن تشيد الفسطاط على هذا الطراز العربـى لأن معظـم جيـش عمـرو الـذى فتـح مصر كان يتكون من قبائل يمنية كقبيلتى عك، والمغافر وغيرهما.

وهذا الطراز يعتبر أبسط الطرز الأربعة السابق ذكرها، فهو لا يعدو أن يكون تخطيطاً سـاذجًا للمدينة بحيث ينزل كل قوم من قبيلة فى مكان خاص بهم، وسميت هذه المنازل فـى الفسـطاط بالخطط، وستسمى فى القاهرة عند إنشائها بالحارات.

وإذ كان العرب أمة بدوية تعتمد الاعتماد كله فى الحرب والمعيشة والانتقال على الدواب من خيل وجمال، فقد تركوا حين اختطوا المدينة، «بينهم وبين البحر والحصن فضاء لتفريق دوابهم وتأديبها، فلم يزل الأمر كذلك حتى ولى معاوية بن أبى سفيان، فأقطع فـى الفضـاء وبنيـت بـه الدور[3]، كما كان أمام دار عمرو الكبرى موقف لدواب الجند[4].

---

(١) ابن دقماق: نفس المرجع، جـ ٤ ص ٣.

(٢) الترجمة العربية لمحمد عبد الهادى أبو ريدة، ج ٢، ص ٢٢٧.

(٣) السيوطى: حسن المحاضرة، ج ١، ص ٨٥.

(٤) ابن دقماق: المرجع السابق، ج ٤، ص ٧.

وكان يفصل بين المنازل أنواع من الطرق المختلفة الاتساع والامتداد، فأكبرها لا يزيد عرضه عن ستة أمتار، وأضيقها لا يتجاوز مترًا ونصف متر»[1]، وكان يطلق عليها بنسبة عرضها أو اتساعها أو طولها أو اتصالها اسم: حارة، أو درب، أو زقاق، وكانت تسمى بأسماء القبائل التى نزلت بها، أو كبار العرب الذين سكنوها، أو بأسماء الحرف والصناعات أو أنواع التجارة.. إلخ.

ولم تكن هذه الطرق ممهدة أو مغطاة بطبقة من البلاط أو أى مادة أخرى لتجعلها نظيفة، يؤيد هذا ما يقوله على بهجت ومحمود عكوش:

«ويظهر أن أرض الدروب وغيرها من الطرقات لم تكن مبلطة فإنا لم نعثر فى أى موقع من مواقع المدينة المكشوفة على أثر للبلاط أو أن الأرض مفروشة بمادة أخرى»[2].

ولم يكن يحيط بالفسطاط سور فى أول أمرها، وإن كان ابن دقماق يذكر أنه كان بها من ناحية خط الحمراء القصوى «باب مصر» وكان به برجان يمنة ويسرة، بعتبة سفلى صوانًا، وقوس معقود عليه، ودفتين تغلقان عليه، يسلك منه إلى الفواخير.. وكان يسلك منه إلى أربعة طرق، الأول الطريق إلى القاهرة، وعلى يمنته إلى الفواخير، وعلى يسرته إلى البحر وإلى مصر»[3].

وفى عهد صلاح الدين بنى السور الكبير الذى كان يحيط بالقاهرة والفسطاط وما بينهما.

وكانت المبانى الأولى فى الفسطاط غاية فى البساطة، وكلها من اللبن، فقد كان المسجد الجامع - وهو أهم مبانيها - ذا سقف منخفض وليس به نوافذ أو فراغ فى السقف حتى يتخلله الهواء، ولم يكن له صحن، «وكان الناس يصلون بفنائه»[4].

وكانت الدور وقت إنشاء المدينة كلها من طابق واحد، وأول من بنى غرفة فوق الطابق الأول هو خارجة بن حذافة، فكتب عمر إلى عمرو «أن أدخل غرفة خارجة، وانصب فيها سريرًا، وأقم عليه رجلاً ليس بالطويل ولا بالقصير، فإن أطلع من كواها فاهدمها»، ففعل ذلك عمرو، فلم يبلغ الكوى فأقرها[5].

ومن هذه الرواية نعرف أن العرب لم يجعلوا لمنازلهم الأولى نوافذ، بل اتخذوا فيها كوى، وكانت هذه الكوى مرتفعة تقرب من السقف، بحيث أن الرجل الواقف على السرير لا يستطيع أن ينظر منها إلى الخارج.

---

(١) بهجت وعكوش: حفريات الفسطاط، ص ٣٧.

(٢) بهجت وعكوش: حفريات الفسطاط، ص ٣٧.

(٣) ابن دقماق: ج ٤، ص ٢٧.

(٤) نفس المرجع السابق ص ٦٢.

(٥) ابن دقماق، ص ٦، والسيوطى: حسن المحاضرة، ج ١، ص ٥٩، والقلقشندى: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٢٣٠، وقد تولى خارجة الشرطة لعمرو بن العاص. انظر: الكندى: الولاة، ص ١٠.

ولم تلبث المدينة على بساطتها طويلاً، فقد كثر سكانها، وعلت منازلها حتى أصبحت تبلغ الأربع أو الخمس طبقات[1]، أو السبع أو الثمانى طبقات فى رواية أخرى[2]، وأصبحت أكثر المبانى تبنى «بالآجر المحكوك والجبس والجير من أوثق بناء وأمكنه»[3]، ولم تكن أسفل الدور تسكن، وربما سكن الدار الواحدة المائتان من الناس[4].

ويقول ناصر خسرو:

«وتبدو مصر من بعيد كأنها جبل، وبها بيوت من أربع عشرة طبقة، وبيوت من سبع طبقات.. وبها أسواق وشوارع تضاء فيها القناديل دائمًا، لأن ضوء الشمس لا يصل إلى أرضها[5]..

ثم يروى بعد ذلك أن بعض الناس كانت له دار من سبع طبقات فأصعد إلى سطحها عجلاً صغيرًا، وغذاه حتى غدا ثورًا، وركب فى السطح ساقية يديرها الثور، فصعد الماء إلى السطح الذى غرس فيه شجر البرتقال من الحلو والمالح والموز وأشجارًا أخرى مثمرة، وزرع فيها الأزهار والرياحين من سائر الأنواع.

وقد قامت مصلحة الآثار العربية فى أوائل هذا القرن بحفائر فى مصر العتيقة لدراسة الآثار الباقية لمدينة الفسطاط ومبانيها، ووضعت رسومًا مختلفة لما وجدته من بقايا المنازل بهذه المدينة، ومنها يمكن أن نتصور هذه المنازل كما كانت «قطعًا عظيمة من البناء قائمة على غير استواء ولا نظام، تدعمها أعمدة رومانية، لا شىء فيها من الزينة ولا من جمال التنسيق، تشبه كل الشبه ما هو موجود - أو كان موجودًا - فى مدينة رشيد من البناء فى العصر العثمانى»[6].

---

(١) بتلر: فتح العرب لمصر، الترجمة العربية، ص ٢٩٨.
(٢) متز: الحضارة العربية، ٢، ص ٢٢٧.
(٣) صبح الأعشى: ٣، ص ٢٢٧.
(٤) الأصطخرى: ص ٤٩؛ وابن حوقل: ص ٩٦؛ والمقدسى: ص ١٩٨.
(٥) ناصر خسرو: سفر نامة، الترجمة العربية للدكتور يحيى الخشاب؛ ص ٨٥.
(٦) عبد الرحمن زكى: القاهرة، ج ١، ص ١٤.

(ب) نمو المدينة
شرقًا وغربًا

تقدمـة :

كان من أهم ما يميز مدينة الفسطاط عند تأسيسها أنه روعى أن يكون فى أحد أطرافها فضـاء يسمح لها بالنمو والزيادة فى مستقبل أيامها ، ذلك الطرف هو الشمال الشـرقى للمدينـة ، وفيـه بنيت مدينة العسكر ، ثم قامت مدينة القطائع – عاصمة الطولونيين – ، ثم أنشـئت القـاهرة – عاصمة مصر منذ الفتح الفاطمى حتى اليوم – ، وقـد امتـدت القـاهرة فـى اتسـاعها فـى العصر الحديث فى هذا الاتجاه ذاته ، فبنيت فى شماليها الشرقى العباسية ، ثم مصر الجديدة .

ولم يكن هناك مجال لامتداد المدينة فى الجهة الشرقية البحتة ، إذ كان يحول جبل المقطـم دون الامتداد فى هذه الناحية ، فاكتفى المسلمون ببناء مقابر موتاهم فى سفح هذا الجبل .

وفى الجنوب امتدت المدينة إلى حيث يمكن أن تمتد ، فكان حدها الجنوبى بركة الحبـش، وما يليها من أراض زراعية .

وكان النيل يقوم حاجزًا طبيعيًا منع امتداد المدينة نحو الغرب ، ولكنـه لم يبـق كذلـك مـدة طويلة ، إذ لم يلبث سكان المدينة بعد نموها السريع أن عـبروا النيـل إلى الجزيـرة ، فاتخذوهـا لهم سكنًا ومنتزها . وبنى فيها الولاة والأفراد والخلفاء القصور . وأنشأوا البساتين ، ثم لم يلبثوا أن عبروا النيل مرة أخرى إلى الجيزة ، حيث استقروا هناك إلى جانب القبائل العربية الأخـرى التى تخيرت الجيزة سكنًا لها عند تأسيس الفسطاط ، كما سبق أن ذكرنا .

١ - نمو المدينة شرقًا

(أ) العسكر

ظلت الفسطاط - بعد نموها السريع - العاصمة الوحيدة لمصر الإسلامية ، ومقر قضاتها وجنودها مدة مائة وثلاثة عشر عامًا وسبعة أشهر ، تولى حكم مصر فى خلالها تسعة وعشرون أميرًا من قبل الخلفاء الراشدين والأمويين ، أولهم عمرو بن العاص ، وآخرهم صالح بن على العباسى أميرها من قبل الخليفة العباسى الأول أبى العباس السفاح ، ومن بعده بنيت العاصمة الجديدة (العسكر) ، وأصبحت كضاحية عسكرية للفسطاط ، ينزل بها الولاة من قبل الخلفاء العباسيين .

كان مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية قد فر إلى مصر منهزمًا أمام جيوش العباسيين ، ونزل بالفسطاط ، وتبعه إلى مصر القائد العباسى صالح بن على بجيشه ، ففر مروان مرة أخرى من الفسطاط ، ولكنه أشعل النار قبل أن يفر فى بعض مبانى المدينة ، كما أحرق الجسر الذى يصلها بجزيرة الروضة ، وانتقل إلى شاطئ النيل الغربى متجهًا نحو الجنوب ، وتتبعه القائد العباسى حتى أدركه عند قرية بوصير ، وقتله بعد القبض عليه .

وكما انتقلت الخلافة العباسية من دمشق إلى بغداد فاتخذتها حاضرة لها ، كذلك كره ولاة العباسيين فى مصر أن ينزلوا بالعاصمة القديمة الفسطاط . وقد يكون ذلك لأن الحريق خرب دار الإمارة بالفسطاط وشطرًا كبيرًا من المدينة ، أو لأن الفسطاط ضاقت بعساكر العباسيين ، أو لأن الدولة الجديدة أرادت أن تتخذ لها عاصمة جديدة ، شأن الدول الجديدة فى الشرق منذ أقدم العصور .

وبدأ القائدان العباسيان صالح بن على وأبو عون فى بناء المدينة الجديدة حيث نزلا بعساكرهما فى الشمال الشرقى للفسطاط ، ولذلك سميت المدينة بالعسكر (أو المعسكر) ، وكان هذا المكان يعرف عند تأسيس الفسطاط باسم الحمراء القصوى ، وكانت قد نزلت به ثلاث قبائل من العرب ، وهم : بنو يشكر بن جزيلة من لخم ، وبنو الأزرق - وهم من الروم - وبنو روبيل (وكان يهوديًا فأسلم)[١] .

و كان أفراد هاتين القبيلتين الأخيرتين - كما يقول ابن دقماق - (ممن سار مع عمرو بن العاص من الشام إلى مصر من عجم الشام ممن كان رغب فى الإسلام من قبل اليرموك ومن أهل قيسارية وغيرهم)[٢] .

---

(١) ابن دقماق : الانتصار ، جـ ٤ ، ص ٥ ، وانظر القلقشندى : صبح الأعشى : جـ ٣ ، ص ٣٢٩ ، حيث يقول (سميت بذلك لنزول الروم بها وهم حمر الألوان).

(٢) ابن دقماق : الانتصار ، جـ ٤ ، ص ٥ ، وانظر القلقشندى : صبح الأعشى : جـ ٣ ، ص ٣٢٩ ، حيث يقول (سميت بذلك لنزول الروم بها وهم حمر الألوان).

ويقال إن هذه الخطة سميت بالحمراء (لنزول الروم بها)[1] وكانت هذه الخطط قد اندثرت بمرور الزمن حتى صارت صحراء ، وفيها نزل صالح بن على بجنوده حتى ملأوا الفضاء - كما يقول المقريزى - وفى سنة ١٣٣هـ أمر أبو عون - والى مصر - أصحابه بالبناء فيها .

وكانت العسكر يحدها جنوبًا كوم الجارح ، حيث تمتد الآن قناطر المجرى (العيون) وشمالاً شارع مراسينا إلى ميدان السيدة زينب ، حيث قناطر السباع أمام المشهد الزينبى ، وغربًا بين شارع السد والديورة ، وكانت العسكر فى هذا الحد تمتد على شاطئ النيل ، لأن النيل كان فى ذلك الوقت أقرب إلى الشرق من موضعه الحالى ، لأنه كان يجرى بجانب المرتفع المشيد عليه جامع عمرو بن العاص ، ثم ابتعد عنه على توالى الزمن نحو خمسمائة متر .

وكان الحد الشرقى خطًا تصوريًا يمتد من مصطبة فرعون بجوار مسجد الجاولى بشارع مراسينا إلى باب السيدة نفيسة[2] . وقد بنيت فى العسكر بعد ذلك دار الإمارة ومسجد جامع عرف باسم جامع العسكر ، ودار للشرطة سميت (بالشرطة العليا) تمييزًا لها عن الشرطة السفلى بالفسطاط ، وأصبح الولاة ينزلون منذ ذلك الحين بالعسكر دون الفسطاط ، وصار الناس- كما يذكر المقريزى - يقولون من يومئذ : (كنا بالعسكر ، وخرجنا إلى العسكر ، وكتب من العسكر، وصار مدينة ذات محل وأسواق ودور عظيمة)[3] .

وفى هذه المدينة أيضًا بنى أحمد بن طولون - فيما بعد - بيمارستانة بالقرب من بركة قارون التى بنى إلى جانبها كافور الإخشيدى كذلك دارًا لسكنه ، صرف عليها مائة ألف دينار ، (وصار العسكر مدينة ذات أسواق ودور عظيمة)[4] .

وسكن العسكر خمسة وستون واليًا حكموا مصر نيابة عن خلفاء بنى العباس لمدة ١١٨ سنة، حتى ولى أحمد بن طولون فأنشأ مدينته الجديدة للقطائع ، وبانتهاء دولة بنى طولون هدمت القطائع ، وعاد الولاة - وأولهم محمد بن سليمان - إلى دار الإمارة فى العسكر ، إلى أن قدم القائد جوهر وبنى القاهرة ، فهجرت العسكر ودار إمارتها ، ونزل خلفاء الفاطميين فى القصر الكبير بالقاهرة .

وقد استمرت العسكر عامرة بمبانيها وأسواقها حتى بدء الدولة الفاطمية ، إلا أنه منذ بنيت القطائع (هجر اسم العسكر وصار يقال مدينة الفسطاط والقطائع وربما قيل العسكر أحيانًا)[5] .

---

(١) ابن دقماق : الانتصار ، جـ ٤ ، ص ٥ ، وانظر القلقشندى : صبح الأعشى : جـ ٣ ، ص ٣٢٩ ، حيث يقول (سميت بذلك لنزول الروم بها وهم حمر الألوان).

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ ١ ، ص ٣٢٦ .

(٣) المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ٨٩ .

(٤) النجوم الزاهرة : جـ ١ ، ص ٣٢٧ .

(٥) المقريزى : الخطط : جـ ٢ ، ص ٩٠ .

(ب) القطائع

لما ولى أحمد بن طولون على مصر ، اتخذ لنفسه جيشًا كبيرًا كان معظمه من السودانيين والروم والأتراك ، فضاقت بهم الفسطاط والعسكر ، فأراد أن يبنى لهم عاصمة جديدة ، وبناها فى الفضاء الذى كان بين العسكر وبين جبل المقطم ، وكانت تشغله قبل ذلك مقابر قديمة للنصارى واليهود ، فأمر بحرثها .

وبنى فيها قصره العظيم ، وشيد جامعه المعروف باسمه عندما ضاق بجنده وحاشيته جامعا الفسطاط والعسكر . وبجوار المسجد بنى دارًا جديدة للإمارة فى جهته القبلية ، ولها باب فى جدار الجامع يخرج منه إلى المقصورة المحيطة بمصلى الأمير إلى جوار المحراب .

وجعل بين القصر والمسجد ميدانًا كبيرًا لسباق الخيل وعرض الجند ، ثم أمر غلمانه وأتباعه أن يختطفوا لأنفسهم فى المدينة الجديدة (فاختطفوا وبنوا حتى اتصل البناء بعمارة الفسطاط)[1] .

وسميت المدينة الجديدة بالقطائع ، لأنها قطعت وقسمت على الجند ، وسميت كل قطيعة باسم من سكنها ، فكانت للنوبة قطيعة ، وللسودان قطيعة ، وللروم قطيعة ، .. وهكذا .

وبنى القواد فيها قصورا لسكنهم ، فعمرت المدينة واتسعت (وتفرقت فيها السكك والأزقة ، وبنيت فيها المساجد الحسان والطواحين والحمامات والأفران وسميت أسواقها ، فقيل : سوق العيارين - وكان يجمع العطارين والبزازين - وسوق الفامين - ويجمع الجزارين والبقالين والشوايين - فكان فى دكاكين الفاميين جميع ما فى دكاكين نظرائهم فى المدينة وأكثر وأحسن، وسوق الطباخين - ويجمع الصيارف والخبازين والحلوانيين - ولكل من الباعة سوق حسن عامر ، فصارت القطائع مدينة كبيرة)[2] ، (وتزايدت العمارة حتى اتصلت بالفسطاط ، وصار الكل بلدًا واحدًا)[3] .

وكان موضع مدينة القطائع : من قبة الهواء - التى بنيت مكانها قلعة الجبل فيما بعد - إلى مسجد ابن طولون ، وهذا طولها . وأما عرضها ، فكان يبدأ من الرميلة إلى ما يعرف الآن بحى زين العابدين ، وكانت مساحتها ميلاً فى ميل .

وتشبه القطائع مدينة سامرا من أوجه كثيرة ، فإن الخليفة العباسى المعتصم كان قد رأى بعد أن صعب عليه التوفيق بين سكان بغداد وجنده من الأتراك أن يبنى مدينة جديدة ، فأمر قائده أشناس ، فبنى له مدينة سامرا ، وأسكنها الجند الأتراك . وكذلك فعل أحمد بن طولون، فقد كان جيشه كبيرًا ويتكون من عناصر أجنبية كالروم والأتراك والسوادانيين ، فضاقت بهم

---

(١) المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ١٠٦ .

(٢) المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ١٠٦ ؛ وانظر أيضًا :

St. lane-Poole : History of Egypt in the Middle Ages. P. 63.

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٣٣٢ .

الفسطاط والعسكر ، فأسرع ابن طولون وبنى لهم العاصمة الجديدة ، وقسمها إلى قطائع ، لكل فرقة من جنس واحد قطيعة خاصة بها . وكان طراز العمارة والزخرفة يشبه تماما الطراز الذى اتبع فى بناء وزخرفة دور سامرا ، تشهد بذلك الزخارف الجصية التى عثر عليها فى جدران دار من العصر الطولونى كشفتها دار الآثار العربية عام ١٩٣٢م . وكذلك نلاحظ أن مئذنة الجامع الطولونى بنيت على نمط مئذنة جامع سامرا . وهكذا بنيت العاصمة الطولونية مشابهة تمام الشبه لعاصمة الخلافة العباسية الجديدة (سامرا) ، ولم يكن قد مضى على تأسيسها وقتذاك أكثر من أربع وثلاثين سنة[١] .

ولما انتهى أمر الدولة الطولونية إلى الضعف ، دخل مصر القائد العباسى محمد بن سليمان فى سنة ٢٩٢هـ (٩٠٤م) . فأشعل النار فى القطائع ، وانتشر أصحابه فيها وفى الفسطاط ينهبون الدور والمساكن ، وكسروا السجون وأطلقوا سراح من فيها ، واستباحوا النساء . وهتكوا الرعية ، وأخرجوا الناس من دورهم ، وقتل ابن سليمان عددا كبيرا من الفرقة السودانية إحدى فرق الجيش الطولونى .

وفى السنة التالية (٢٩٣هـ - ٩٠٥م) أمر الحسين بن أحمد المادرائى - متولى خراج مصر - بهدم الديوان ، فهدم وبيعت أنقاضه . وهكذا خربت القطائع وهدمت دورها ، وكانت تزيد على ألف دار (نزهة للناظرين ومحدقة بالجنان والبساتين)[٢] .

هذا وقد قضت المجاعة العظمى التى حدثت فى عهد الخليفة الفاطمى المستنصر على البقية الباقية من القطائع ، حتى اضطر رجال الدولة إلى بناء سور يبتدئ من باب زويلة بالقاهرة وينتهى عند جامع عمرو بن العاص بالفسطاط ليستر خلفه خرائب القطائع والعسكر ، حتى لا يتأذى الخليفة الفاطمى برؤيتها أثناء ذهابه من القاهرة إلى الفسطاط .

ثم أقبل الناس على هذه الخرائب يأخذون من أنقاضها كلما احتاجوا . وتحولت المساحة الكبيرة بين القاهرة والفسطاط ، فأصبحت بمرور الزمن صحراء جرداء مرة أخرى ، وعاد الفسطاط مركزها القديم الممتاز ، وظلت سنين طويلة - رغم وجود القاهرة - المدينة الكبرى الآهلة بالسكان ، العامرة بالأسواق ودور التجارة والصناعة والمساجد والمدارس والحمامات .

---

(١) راجع كتاب (فى مصر الإسلامية) ، ص ١٠٨ ؛ والفصل الخاص بالفن الطولونى ، من كتاب الدكتور زكى محمد حسن Les Tulunides. Paris, 1933 .

(٢) المقريزى : الخطط ، جـ ، ص ١٢٤ .

(جـ) القاهـرة

عادت مصر بعد زوال دولة الطولونيين إلى تبعيتها السابقة للخلافة العباسية ، ثم استقل بها الإخشيديون بعد سنوات، وحكموها فى المدة بين ٣٢٣هـ و ٣٥٨هـ .

وفى السنة الأخيرة ، انتهى أمر هذه الدولة كذلك إلى الضعف والانحلال ، ونجح الفاطميون فى غزوها بعد محاولات كثيرة ، فاستولى جوهر على الإسكندرية ، ودخلت جيوشه الفسطاط فى شعبان سنة ٣٥٨هـ (يوليو سنة ٩٦٩م) ، ثم عسكرت فى السهل الرملى الواقع شمال المدينة، وكان يحد هذا السهل من الشرق جبل المقطم ، ومن الغرب خليج أمير المؤمنين، ولم يكن بهذا السهل إلا دير مسيحى قديم اسمه دير العظام ، وبعض المبانى المتصلة ببستان كافور، وحصن صغير يسمى قصر الشوك .

وفى مساء ١٧ شعبان سنة ٣٥٨ هـ وضع جوهر أساس المدينة الجديدة (القاهرة)[١] .

---

(١) انظر الحديث المفصل عن القاهرة فى الكتاب الثانى من هذا المجلد الخاص بالعصر الفاطمى .

٢ - نمو المدينة غربًا

(أ) جزيرة الروضة

تقابل الفسطاط على الضفة الغربية للنيل جزيرة قديمة يحيط بها الماء، ويفصل بينها وبين الفسطاط من ناحية وبينها وبين الجيزة من ناحية أخرى.

وكان على الجزيرة حصن رومانى قديم يعتبر ملحقًا لحصن بابليون وجزءًا من وسائل الدفاع عن رأس الدلتا، وقد خرب عمرو بن العاص بعض أبراج هذه الجزيرة وأسوارها(١).

وكان يربط الجزيرة بالفسطاط فى العصر الإسلامى جسر يمر عليه الناس والدواب كما كان يربطها بالجيزة جسر آخر، «وكان هذان الجسران من مراكب(٢) مصطفة بعضها بحذاء بعض، وهى موثقة، ومن فوق المراكب أخشاب ممتدة فوقها تراب، وكان عرض البحر ثلاث قصبات»(٣).

وكانت الروضة تعرف فى العصر الإسلامى الأول باسم: الجزيرة أو جزيرة مصر، ثم بنى عليها أحمد بن طولون حصنًا، فعرفت بجزيرة الحصن، كما كانت تسمى بجزيرة الصناعة لوجود دار الصناعة بها.

ولما ولى محمد بن طغج الإخشيد على مصر، نقل الصناعة إلى ساحل الفسطاط، وأنشأ بالجزيرة بستانًا سماه «المختار»، وجعل فيه دارًا للغلمان، ودارًا للنوبة، وخزائن للكسوة، وخزائن لطعام.

وفى العصر الفاطمى أنشأنها الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجمالى حدائق ومتنزهات، وسماها «الروضة» - فعرفت بهذا الاسم منذ ذلك الحين - وكان يتردد إليها كثيرًا، فينتقل فى السفن من دار الملك - وهى سكنه بالفسطاط - إلى الروضة، وفى نفس العصر بنى الخليفة الآمر بأحكام الله بجوار البستان المختار قصرا لمحبوبته البدوية «العالية» سماه الهودج.

وهكذا ظلت الجزيرة قرونًا طويلة تعتبر كضاحية ملكية يبنى فيها الأمراء والوزراء والخلفاء حصونهم وقصورهم وبساتينهم، كما كانت أيضًا سكنًا لمن ضاقت بهم الفسطاط، ومتنزها جميلاً

---

(١) المقريزى: الخطط، ج ٣، ص ٢٩٩.

(٢) يقول (ابن حوقل: المسالك والممالك، ص ٩٦) إن هذا الجسر كان يتكون من نحو ثلاثين سفينة، ويذكر ناصر خسرو فى رحلته أن الجسر كان مكونًا من ٣٧ سفينة.

(٣) المقريزى: الخطط، ج ٣ ص ٢٧٦، وانظر أيضًا: القلقشندى: صبح الأعشى ج ٣، ص ٣٣٥.

لساكنى العاصمة وزاد فى أهميتها أنها كانت مقرًا لمقياس النيل الذى بناه أسامة بن زيد التنوخى سنة ٩٧هـ بأمر الخليفة الأموى سليمان بن عبد الملك، ولذلك تعرف أيضًا باسم «جزيرة المقياس». ويذكر الشريف الإدريسى أن طول الجزيرة كان نحو ميلين، وأن عرضها مقدار رمية سهم[١].

وكانت النصارى تتولى قياس النيل عند فيضانه والإشراف على المقياس، حتى كان عهد الخليفة المتوكل، فعزلهم ورتب مكانهم عبد الله بن عبد السلام ابن أبى الرداد، واستمر بنوه يتولون هذه الوظيفة حتى القرن العاشر الهجرى تقريبًا (١٦م).

وفى أواخر العصر الأيوبى، بنى الملك الصالح نجم الدين أيوب قلعة فى هذه الجزيرة أسكنها مماليكه البحرية، وذلك فى سنة ٦٣٨ هـ، وقد بقيت هذه القلعة تعرف باسم «قلعة المقياس» و «قلعة الروضة»، و «قلعة الجزيرة» و «القلعة الصالحية»[٢] - حتى هدمها المعز أيبك التركمانى وبنى من أنقاضها مدرسته المعزية بالفسطاط.

ويذكر ابن حوقل الذى زار مصر حوالى منتصف القرن الرابع الهجرى (١٠م) أنه كان بالجزيرة «أبنية حسنة ومساكن جليلة»[٣]، كما يذكر الشريف الإدريسى أن بها المبانى والمتنزهات ودار المقياس»[٤].

ويقول المقريزى إنها كانت: «متنزها مملوكيًا ومسكنًا للناس»[٥]، وأنه كان فيها من البساتين والعمائر والثمار ما لم يكن فى غيرها[٦].

وقال الكندى: «ثم غلب عليها اسم الروضة لحسنها ونضارتها وإطافة الماء بها، وما بها من البساتين والقصور»[٧].

---

(١) الإدريسى: نزهة المشتاق، ص ١٤٤ - ١٤٥.
(٢) المقريزى، الخطط، ج ٣، ص ٢٩٧.
(٣) ابن حوقل: المسالك والممالك، ص ٩٦.
(٤) الشريف الإدريسى: نزهة المشتاق، ص ١٤٤.
(٥) المقريزى: الخطط، ج ٣، ص ٢٩٧.
(٦) المقريزى: الخطط، ج ٣، ٢٩٩.
(٧) القلقشندى: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٣٣٥.

(ب) الجـيزة

وكانت الجيزة ضاحية أخرى من ضواحى الفسطاط فى الجهة للغربية. وقد ذكرنا فيما سبق أن قبيلة همدان ومن والاها استحبت النزول بها عند تخطيط الفسطاط، وأن عمرًا بنى لهم فيها حصنًا[1] تنفيذًا لأمر الخليفة عمر بن الخطاب.

وقد انضم إلى هذه القبائل فى فترات مختلفة العرب الذين وفدوا على مصر ممن ينتمون إلى هذه القبائل، وبنيت فيها المساجد، وأهمها: مسجد همدان، والمسجد الجامع الذى بناه محمد ابن عبد الله الخازن سنة ٣٥٠ هـ بأمر الأمير على بن الإخشيد.

ثم انتقل إليها الناس بعد ازدحام الفسطاط بالسكان، فكانت فيها: «بساتينهم وضياعهم ومتنزهاتهم»[2].

وكانت بها «أبنية جليلة ومساكن»[3]. وكان لها: «فى كل يوم أحد سوق عظيم يجىء إليه من النواحى أصناف كثيرة جدًا، ويجتمع فيه عالم عظيم، وبها عدة مساجد»[4].

---

(١) يقول اليعقوبى فى كتاب البلدان، ص ٣٣٠: «وابتنى حصن الجيزة فى الجانب الغربى من النيل، وجعله مسلحة للمسلمين، وأسكنه قومًا»، أنظر كذلك: المقريزى، الخطط، ج ١، ص ٣٣٢ – ٣٣٣.

(٢) ابن رسته: الأعلاق النفسية، ص ١١٦.

(٣) ابن حوقل: المسالك والممالك، ص ٩٦.

(٤) المقريزى: الخطط، ج ١، ص ٣٣٢.

(جـ) نمو المدينة نفسها

عرفنا كيف امتدت المدينة شمالاً وشرقًا ثم غربًا، حتى إذا كان القرن الرابع الهجرى كانت هذه الضواحى جميعا قد اتصلت بالمدينة الأصلية، وأصبح يطلق على الجميع لفظ «مصر» أو لفظ «الفسطاط»، غير أن الضواحى التى بنيت فى جهتها الشمالية الشرقية كانت ضواحى ملكية بنيت لسكن الأمراء والجند، وقد كان لهذا أثره وفضله، فإن سكن الجنود خارج المدينة منع ما كان يمكن أن ينشأ بينهم وبين السكان المدنيين من نزاع أو تخاصم يؤدى إلى الفوضى والشغب، كما كان يحدث دائمًا فى عاصمة الخلافة العباسية بغداد، فلذلك عاش سكان الفسطاط فى أمن وهدوء مما جعل المدينة تزدهر وتنمو صناعيًا وتجاريًا، ويزداد عدد سكانها، ومما جعل انتقام الدول المتعاقبة ينصب على هاته الضواحى فيهدمها ويحرقها ويخربها تاركًا المدينة الأصلية على حالها، لهذا عاشت الفسطاط عمرًا طويلاً، وفنيت فيها هذه المدن الجديدة.

أما الضاحيتان الغريمتان فكانتا تمتازان بكثرة الحقول والرياض والبساتين، فكأنهما كانتا متنزهين جميلين لسكان الفسطاط فى مختلف العصور.

سكان المدينة:

سكن المدينة عند إنشائها القبائل العربية التى كانت مع عمرو، ومعظمها كما أسلفنا من اليمن، وقسمت الخطط بينها، فكانت أهمها:

خطة أهل الراية وكان أصحابها من قريش ومن الأنصار ومن خزاعة وأسلم وغفار وجهينة وثقيف، وعدة قبائل أخرى.

– وخطة مهرة وتنتسب لحمير.

– وخطة تجيب من كندة.

– وخطط اللفيف، وسموا باللفيف لالتفاف بعضهم ببعض، وكان عامتهم من الأزد، ومن غسان ومن شجاعة.

– وخطط أهل الظاهر، وسموا بذلك لأن هذه القبائل كانت بالإسكندرية ثم وفدت بعد أن اختطت المدينة ونزل الناس، فتخاصموا إلى عمرو، «فقال لهم معاوية بن حديج – وكان ممن يتولى الخطط يومئذ.

«أرى لكم أن تظهروا على أهل هذه القبائل فتتخذوه منزلاً»[1].

---

(١) ابن دقماق: الانتصار، ج ٤، ص ٣ – ٥.

- خطط الصدف، وهم بطن من كنده.
- خطط خولان.
- خطط الفارسيين، وهم قوم من بقايا جند بأذان عامل كسرى على اليمن قبل الإسلام، أسلموا بالشام ورغبوا فى الجهاد، فنفروا مع عمرو بن العاص فاختطوا بها.
- خطط تحصب، وهو حى من اليمن.
- وأخيرًا خطط الحمراوات الثلاث، وهم من الروم الذين أسلموا فى الشام وجاءوا إلى مصر فى جيش عمرو.

وواضح من ذكر أسماء هذه الخطط أن سكان المدينة فى عهدها الأول كانوا جميعا من العرب ومعهم فرق من الفرس[١] والروم[٢] الذين أسلموا فى الشام.

وأصبحت المدينة أيضًا سكن قواد العرب وكبار الصحابة الذين وفدوا على مصر، فكان بها سكن عمرو بن العاص، وابنه عبد الله[٣]، وسكن الزبير بن العوام[٤]، وخارجة من حذافة، وشريك بن سمى، وعبد الله بن عمر بن الخطاب[٥]، وعبد الله بن حذافة، وسعد بن أبى وقاص[٦] ومسلمة بن مخلد[٧]، وعقبة بن عامر الجهنى[٨].

ثم ظلت الفسطاط سكنًا لكبار رجال الدولة وقضاتها ووزرائها ورؤساء دواوينها وعلمائها وفقهائها حتى بعد أن بنيت القاهرة وكبرت وازدهرت، فكان يسكن بها بنو عبد الحكم، ونزل بها الإمام الشافعى أثناء إقامته بمصر، وكانت بها دار الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالى الوزير الفاطمى، ودار الحسين بن النعمان القاضى الفاطمى كذلك.

وكانت فى المدينة - شأن كل مدينة كبيرة - أحياء خاصة كان يسكنها عليه القوم وأثريائهم ووجوههم، وأحياء أخرى خاصة لسكن عامة الناس وفقرائهم وأثريائهم. وكان أهم الأزقة

---

(١) كان بالفسطاط «زقاق ابن الخشن، وكان من جملة الفرس، توفى سنة ٣٧٨ هـ»، انظر: ابن دقماق: الانتصار، ج ٤ ، ص ٢٣.
(٢) ذكر ابن دقماق، نفس المرجع ص ٥١ ، أنه كان بالفسطاط «سقيفة ابن بنه بالحمراء، وكان ابن هذا صاحب لواء الحمراء زمن الفتح، ونسبت هذه السقيفة إليه واسمه عبد الرحمن، وكان من الروم، وحضر أبوه أيضًا الفتح».
(٣) ابن دقماق، نفس المرجع، ص ٧.
(٤) ابن دقماق، نفس المرجع، ص ٨ ، ١٤.
(٥) نقل السيوطى: حسن المحاضرة، ج ١، ص ٧٢- ١٠٤ مختصرًا لكتاب الربيع الجيزى المسمى «السحابة فيمن دخل مصر من الصحابة».
(٦) ابن دقماق، نفس المرجع، ج ٤ ، ص١٠.
(٧) نفس المرجع، ص ١١.
(٨) نفس المرجع، ص ١١.

وأكثرها وأعمرها قديمًا زقاق القناديل، لأنه - كما تذكر المراجع - «كان منازل الأشراف وكان على أبوابهم القناديل»[١] وكانت به دار عمرو بن العاص.

وكان درب القصطلانى «سكن جماعة من الأكابر[٢]، ودرب المعاصر «سكن به أكابر أعيان المصريين»[٣].

وزقاق البواقيل «سكنه جماعة أكابر علماء منهم القرطبى وابن الرفعة وقاضى القضاة تقى الدين بن درش»[٤]. وزقاق ابن جمح «سكنه جماعة من السادات والعلماء»[٥] وخوخة باسم الله «سكن داخلها جماعة رؤساء»[٦] وخوخة السراج سكنها «جماعة من الأعيان وجماعة من الأخيار»[٧].

أما خوخة سوسو فكانت «سكن عوام مصر[٨].

وكذلك «عقبات كوم ابن غراب» «كانت سكن أوباش العوام»[٩].

كما كان «قوم الشقاف بخراب المدينة» يسكنه «عوام الناس»[١٠].

وهذه قسمة طبيعية تقتضيها طبيعة المجتمع فى كل مدينة.

غير أنا نلاحظ أن السكان لم يستمروا دائمًا عربًا، فقد سكن المدينة بمرور الزمن أجناس مختلفة حتى أصبحت كالقاهرة أو الإسكندرية اليوم تموج بأخلاط الناس من كل جنس، وهذا وضع توجيه طبيعة البلد كعاصمة أولاً وكمدينة صناعية تجارية ثانيًا.

فكان فى المدينة بعد نموها:

- «زقاق مسجد القبة بقصر الشمع.. وسكنه جماعة من أعيان القبط»[١١].
- ودرب السلسلة وكان يسكن به جماعة من أكابر القبط»[١٢].

---

(١) نفس المرجع والجزء، ص ١٣.
(٢) ابن دقماق: نفس المرجع والجزء، ص ٢١.
(٣) ابن دقماق: نفس المرجع والجزء، ص ٢٦.
(٤) ابن دقماق: نفس المرجع والجزء، ص ٢٦.
(٥) ابن دقماق: نفس المرجع والجزء، ص ١٥.
(٦) ابن دقماق: نفس المرجع والجزء، ص ٣١.
(٧) ابن دقماق: نفس المرجع والجزء، ص ٣٢.
(٨) ابن دقماق: نفس المرجع والجزء، ص ٣٠.
(٩) ابن دقماق: نفس المرجع والجزء، ص ٥٢.
(١٠) ابن دقماق: نفس المرجع والجزء، ص ٥٣.
(١١) ابن دقماق: نفس المرجع والجزء، ص ١٦.
(١٢) ابن دقماق: نفس المرجع والجزء، ص ٢٦.

– وكان بالمدينة «زقاق اليهود.. وكان بصدره كنيسة لليهود قريبة من قصر الشمع»[١].

– كما كان بها أيضًا دار رئيس اليهود – أى حاخامهم – وسويقة لليهود ومجزرة خاصة بهم[٢].

– وسقيفة خلف المنجم.. وعرفت بخلف اليهودى المنجم، لأنه أقام بجوارها فى حانوت ينجم ما يزيد على أربعين سنة إلى أن هلك»[٣].

– و «سقيفة ابن الغارق.. يعلوها ملك ابن الغارق اليهودى المتطبب، وهى أمام دار رئيس اليهود»[٤].

كذلك كانت الفسطاط كعبة التجار من مختلف الأجناس، وسكنها طوائف منهم، وكانت كل طائفة من جنس واحد تختار لها حيًا خاصًا بها.

فكان بالفسطاط «حارة الهنود، وعرفت بسكن الهنود»[٥].

وزقاق المغاربة[٦]، وسوق المغاربة[٧]، وسويقة المغاربة[٨].

وزقاق الأكراد وعرف بسكن الأكراد[٩].

وسويقة العراقيين[١٠].

وفندق عمارة، وكان ينزله الشاميون[١١].

ودرب الزيتون..وهو سكن الشاميين والمشارقة[١٢].

وهكذا نمت المدينة وكبرت أسواقها وسويقاتها وقيسارياتها وفنادقها، وتعددت حواريها ودروبها وأزقتها، وكثرت مصانعها ومطابخها ومتاجرها، وعلت مبانيها وأصبحت تبنى من الآجر والحجر بعد أن كانت تبنى من اللبن، وسكنتها إلى جانب المصريين أجناس كثيرة مختلفة.

---

(١) ابن دقماق: نفس المرجع والجزء، ص ١٥.
(٢) ابن دقماق: نفس المرجع والجزء، ص ٢٥.
(٣) ابن دقماق: نفس المرجع والجزء، ص ٤٩.
(٤) ابن دقماق: نفس المرجع والجزء، ص ٤٩.
(٥) ابن دقماق: نفس المرجع والجزء، ص ١٣.
(٦) ابن دقماق: نفس المرجع والجزء، ص ١٥.
(٧) ابن دقماق: نفس المرجع والجزء، ص ٥٣.
(٨) ابن دقماق: نفس المرجع والجزء، ص ٢٦ و ٣٢.
(٩) ابن دقماق: نفس المرجع والجزء، ص ٢٠.
(١٠) ابن دقماق: نفس المرجع والجزء، ص ٣٤.
(١١) ابن دقماق: نفس المرجع والجزء، ص ٤٠.
(١٢) ابن دقماق: نفس المرجع والجزء، ص ٢٧.

ولكن المؤرخين مع عنايتهم الكبيرة بوصف الفسطاط وغيرها من المدن الإسلامية لم يعنوا أبدًا بإحصاء سكان أى مدينة، ولكننا نستطيع أن نتلمس الشواهد لنصل إلى تقرير بعض الإحصاءات التى قد تعيننا على معرفة تقريبية لعدد السكان بعد نمو المدينة وازدحامها. فالمقريزى يذكر أنه كان بالفسطاط دار تسمى دار عبد العزيز، كان يصب لمن بها فى كل يوم أربعمائة راوية ماء، وحسبك من دار واحدة يحتاج أهلها فى كل يوم إلى هذا القدر من الماء[1]، وكان فى هذه الدار خمسة مساجد وحمامان وعدة أفران يخبز بها عجين أهلها[2].

وذكر أيضًا - نقلاً عن ابن المتوج - أن عدد الأسطال التى كانت بالطاقات المطلة على النيل ستة عشر ألف سطل مؤبدة ببكر وأطناب، بها ترخى وتملأ.

وقال أيضًا - نقلاً عن ابن المتوج - الذى يقول: أخبرنى من أثق به أنه كان «بالفسطاط فى جهته الشرقية حمام من بناء الروم عامرة زمن أحمد بن طولون.. دخلتها فى زمن خمارويه بن أحمد بن طولون وطلبت بها صانعًا يخدمنى، فلم أجد فيها صانعًا متفرغًا لخدمتى، وقيل لى: إن كل صانع معه اثنان يخدمهم وثلاثة، فسألت كم فيها من صانع؟ فأخبرت أن بها سبعين صانعًا قل من معه دون ثلاثة، سوى من قضى حاجته وخرج.. فخرجت ولم أدخلها لعدم من يخدمنى بها، ثم طفت غيرها فلم أقدر على من أجده فارغًا إلا بعد أربع حمامات، وكان الذى خدمنى فيها نائبًا..»[3].

وذكر القضاعى أنه كان بالفسطاط: «من المساجد ستة وثلاثون ألف مسجد، وثمانية آلاف شارع مسلوك، وألف ومائة وسبعون حمامًا، وأن حمام جنادة - فى القرافة - ما كان يتوصل إليها إلا بعد عناء من الزحام»[4]. ويعقب المقريزى على هذا بقوله: «فانظر - رحمك الله - تعرف من ذلك كثرة ما كان بمصر من الناس»[5].

---

(١) المقريزى الخطط، ج ٢ ، ص ١٣١ و ١٣٥.
(٢) المقريزى الخطط، ج ٢ ، ص ١٣١ و ١٥٢.
(٣) المقريزى الخطط، ج ٢ ، ص ١٣١.
(٤) المقريزى: الخطط، ص ٢٩ و ١٣١.
(٥) المقريزى: الخطط، ص ٢٩ و ١٣١.

الباب الثانى

تكوين الشعب المصرى الجديد

بعد الفتح العربى

تكوين الشعب المصرى الجديد
بعد الفتح العربى

كان الجيش العربى الذى قام بفتح مصر يتكون من نحو اثنى عشر ألف مقاتل من القبائل العربية المختلفة، وبعد الفتح ظل العرب يرحلون إلى مصر فى أفواج كثيرة متتابعة، كان أكبرها هجرة قبائل من قيس فى سنة ١٠٩ هـ فى خلافة هشام بن عبد الملك وولاية الوليد بن رفاعة على مصر.

ويبدو أن هجرة هذه القبائل من قيس كانت تتصل بالسياسة العامة لهشام فى الدولة كلها، إذ كان هشام يرمى إلى إضعاف شأن القبائل اليمنية بالإعلاء من مركز القيسية، يقول الكندى إن عبيد الله بن الحبحاب لما ولى خراج مصر من قبل هشام كتب إليه يقول:

«إن أمير المؤمنين - أطال الله بقاءه - قد شرف هذا الحى من قيس ونعشهم ورفع من ذكرهم، وإنى قدمت مصر أر لهم فيها حظًا إلا أبياتًا من فهم، ومنها كور ليس فيها أحد، وليس يضر بأهلها نزولهم معهم، ولا يكسر ذلك خراجًا، وهى ببلبيس، فإن رأى أمير المؤمنين أن ينزلها هذا الحى من قيس فليفعل، فكتب إليه هشام: أنت وذلك»[1].

ثم يذكر الكندى بعد ذلك أن هشامًا أرسل إلى البادية فاستقدم أربعمائة أهل بيت من بطون قيس المختلفة وأوفدها إلى مصر، فنزلت بالحوف الشرقى حول بلبيس.

«وأمرهم بالزرع، ونظر إلى الصدقة من العشر فصرفها إليهم، فاشتروا إبلاً، فكانوا يحملون الطعام إلى القلزم، وكان الرجل يصيب فى الشهر العشرة دنانير وأكثر وأقل، ثم أمرهم باشتراء الخيول، فجعل الرجل يشترى المهر، فلا يمكث إلا شهرًا حتى يركب، وليس عليهم مؤونة فى أعلاف إبلهم ولا خيلهم لجودة مرعاهم. فلما بلغ ذلك عامة قومهم، تحمل إليهم خمسمائة أهل بيت من البادية، فكانوا على مثل ذلك، فأقاموا سنة، فأتاهم نحو خمسماية أهل بيت، فمات هشام وببلبيس ألف وخمسماية أهل بيت من قيس»[2].

واستمر توافد قيس على مصر ونزولهم بأرضها طوال الفترة الباقية من عصر بنى أمية، وانتهى عهد الدولة بموت مروان بن محمد بمصر:

«ثلاثة آلاف أهل بيت، ثم توالدوا، وقدم عليهم من البادية من قدم»[3].

---

(١) الكندى: الولاة والقضاة، طبعة جست، ص ٧٦.

(٢) الكندى: المرجع السابق، ص ٧٧، وانظر المقريزى: الخطط، مطبعة النيل، ج ١، ص ١٢٨.

(٣) الكندى: ص ٧٧.

واستمرت رحلة القبائل العربية وهجرتهم متتابعة متلاحقة فى العصور التالية، وخاصة فى عصر الدولة الفاطمية. ففى خلافة المستنصر مثلاً عظم شان القبائل العربية النازلة فى جنوب الشام حول غزة، وكثرت ثوراتهم واشتدت وطأتهم على الولاة.

«فبعثت الوزير الناصر للدين أبو محمد الحسن بن على اليازورى إليهم فى سنة ٤٤٢ هـ يستدعيهم،وأقطعهم البحيرة.. فاتسعت أحوالهم، وفخم أمرهم، وعظم شأنهم..»[(١)].

ووفدت فى نفس العهد قبائل أخرى، غير أنها ما لبثت أن قامت ببعض الشغب والثورات، فنقلت الدولة بعض هذه القبائل – وخاصة قبيلتى بنى سليم وبنى هلال – إلى الوجه القبلى.وبعد قليل عمل الوزير اليازورى على نقل بنى هلال إلى شمال إفريقية لدأبهم على إثارة الشغب، ورغبة منه فى الانتقام من بنى زيرى الذين خرجوا عن طاعة الفاطميين فى إفريقية.

وقدمت قبائل أخرى فى خلافة الفائز الفاطمى ووزارة الصالح طلائع بن رزيك، ونزلت فى منطقة دمياط والبرلس، ونزلت بطون من قبيلة جذام فى منطقة زفتى وميت غمر.

من هذا البيان الموجز يتضح أن الهجرات العربية الأولى استقرت فى جهات أسفل الأرض (الوجه البحرى)، فلما ضاقت هذه البلاد بسكانها نزلت القبائل العربية الوافدة ببلاد الصعيد، وانتشرت فى جميع نواحيه حول أسوان وجنوبها، وفى منفلوط وأسيوط والأشمونين وإخميم، وفى الصحراء الشرقية بين النيل والبحر الأحمر، وخاصة صحراء عيذاب.

وكان العرب فى أول أمرهم جنودًا يقومون بالفتوح فى الأقاليم المجاورة أو بالدفاع عن مصر، وكانت منازلهم فى العاصمة (الفسطاط) أو فى الثغور كدمياط وتنيس ورشيد والإسكندرية، أو على الحدود فى الصحراء. فلما كثر عددهم وتوالت هجراتهم، اشتغلوا أيضًا بالرعى على حافتى الوادى. ثم لم تلبث أن اجتذبتهم الحياة فى وادى النيل نفسه، فأقبلوا عليه، واشتغلوا بالزراعة، واختلطوا بالأهلين. وظلت للعرب هذه الصفة – صفة الرعى أو الجندية – حتى كان عهد الخليفة العباسى المعتصم، وكانت أمه تركية، فاستكثر من الجند الأتراك فى عاصمة الدولة، ثم لم يلبث أن أرسل إلى كيدر نصر بن عبد الله واليه على مصر (٢١٧هـ – ٢١٩ هـ).

«وأمره بإسقاط من فى ديوان مصر من العرب وقطع أعطياتهم، ففعل ذلك..»[(٢)].

ومنذ ذلك الحين أصبح جند مصر من العجم والموالى. ولما ولى أحمد بن طولون على مصر استكثر من العبيد فى جيشه حتى بلغت عدة جنده زيادة على أربعة وعشرين ألف غلام تركى، وأربعين ألف أسود وسبعة آلاف حر مرتزق.

---

(١) المقريزى: البيان والإعراب عمن نزل بأرض مصر من الأعراب، ص ٢٤ – ٢٥.

(٢) الكندى: المرجع السابق، ص ١٩٣؛ والمقريزى: الخطط، ج ١، ص ١٥١.

وبإسقاط العرب من ديوان الجند ومنع عطائهم انتشروا فى أنحاء مصر وتم اختلاطهم بالأهالى.

* * *

أما الأقباط فقد كانوا أكثرية وقت الفتح. يقول المقريزى:

«إعلم أن أرض مصر لما دخلها المسلمون كانت بأجمعها مشحونة بالنصارى وهم على قسمين متباينين فى أجناسهم وعقائدهم: أحدهما أهل الدولة، وكلهم روم من جند صاحب القسطنطينية ملك الروم، ورأيهم وديانتهم بأجمعهم ديانة الملكية، وكانت عدتهم تزيد على ثلاثمائة ألف رومى، والقسم الآخر عامة أهل مصر، ويقال لهم القبط، وأنسابهم مختلطة، لا يكاد يتميز منهم القبطى من الحبشى من النوبى من الإسرائيلى الأصل، من غيره، وكلهم يعاقبة، فمنهم كتاب المملكة، ومنهم أهل الفلاحة والزرع، ومنهم أهل الخدمة والمهنة، وبينهم وبين الملكية – أهل الدولة – من العداوة ما يمنع مناكحتهم، ويجب قتل بعضهم بعضًا»[1].

وقد درات الحروب بين العرب والروم وقت الفتح، أما القبط فكانوا عونًا للعرب، وبعد الفتح كتب عمرو أمانًا لبنيامين بطرك الأقباط، فخرج من مخبئه فى الصحراء، وعاد إلى كرسى بطركيته بعد أن غاب عنه ثلاثة عشرة سنة، واعتبر الأقباط أهل ذمة، وفرض على كل من بلغ الحلم ديناران[2] ويستثنى من هذه الضريبة النساء والصبية والشيوخ.

وظل الأقباط يدفعون هذه الضريبة دون أى شكوى نحو قرن من الزمان، فلما فكر بعض ولاة مصر فى زيادة مقدار الضريبة ولو بزيادة طفيفة كان الأقباط يقومون بثورات مختلفة، وكان الولاة يضطرون إلى العمل على إخماد هذه الثورات بالقوة والعنف.

١ – ففى سنة ١٠٥ هـ كان الوالى على مصر من قبل الخليفة الأموى هشام بن عبد الملك هو الحر بن يوسف، وكان عامل الخراج هو عبيد الله بن الحبحاب، فكتب إلى هشام أن أرض مصر تحتمل الزيادة، فزاد على كل دينار قيراطًا، فانتقضت بعض كور مصر (كورة تنو، وتمى، وقربيط، وطرابية) وعامة الحوف الشرقى، فبعث إليهم الحر بن يوسف بأهل الديوان (أى بالجند من العرب) فأخضعوا الفتنة بعد قتل عدد كبير من الثائرين، وكان هذا الانتقاض فى سنة ١٠٧هـ، وهو أول انتقاض للقبط[3] بعد الفتح العربى.

وواضح مما ذكر أن الزيادة كانت فى ضريبة الأرض لا ضريبة الرؤوس (أى الجزية)، وأنها كانت زيادة طفيفة تبلغ قيراطًا على كل دينار، وقد تكون دعت إليها حاجة البلد، كما أن

---

(١) المقريزى: الخطط، ج ٤، ص ٢٩٣.

(٢) ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب، ص ٨٧.

(٣) الكندى: الولاة والقضاة، ص ٧٣ – ٧٤، والمقريزى: الخطط، ج ٤، ص ٣٩٤.

عامل الخراج ذكر للخليفة أن الأرض تحتمل هذه الزيادة، ومع هذا فقد ثار القبط في بعض الكور وفي الحوف الشرقي، لأن المسائل المالية كانت دائمًا - في كل العصور وفي كل البلاد - مسائل حساسة تثير شعور الشعوب.

٢ - وكانت فتنة القبط الثانية جزئية كذلك في بعض بلاد الصعيد، وذلك في سنة ١٢١ هـ في ولاية حنظلة بن صفوان الثانية على مصر من قبل هشام بن عبد الملك، يقول الكندي:

«ثم انتقض أهل الصعيد، وحارب القبط عمالهم في سنة إحدى وعشرين ومائة، فبعث حنظلة بأهل الديوان، فقتلوا من القبط ناسًا كثيرًا واظفر بهم»[١].

ولكن الكندي لم يذكر سبب هذه الفتنة، وإن كان المقريزي قد ذكر أن حنظلة عندما أتى مصر واليًا للمرة الثانية تشدد على النصارى، وزاد في الخراج، وأحصى الناس والبهائم، وجعل على كل نصراني وسما - صورة أسد - وتتبعهم، فمن وجده بغير وسم قطع يده، فقد تكون هذه السياسة هي السبب في قيام هذه الفتنة.

٣ - وفي سنة ١٣٢ هـ عندما هزم مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية أمام جيوش العباسيين، فر إلى مصر، وفي مدة وجوده بها ثار بعض القبط بمدينة رشيد، فبعث إليهم مروان بعثمان بن أبي نسعة فهزمهم[٢]. ولسنا نعرف أيضًا سبب هذه الفتنة، وقد يكون أقباط رشيد انتهزوا فرصة الفوضى التي صاحبت زوال دولة بني أمية وقيام الدولة الجديدة فقاموا بهذه الفتنة.

٤ - وفي سنة ١٣٥ هـ في ولاية أبي عون من قبل العباسيين:

«خرج أبو مينا القبطي بسمنود. فبعث إليه (أبو عون) بعبد الرحمن بن عتبة فقتل أبو مينا»[٣].

وليس في المراجع تعريف بشخصية أبي مينا هذا، ولا ذكر لأسباب خروجه.

٥ - وفي سنة ١٥٠ هـ في ولاية يزيد بن حاتم على مصر (١٤٤هـ - ١٥٢هـ) من قبل الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور، خرج القبط بمدينة سخا، وانضم إليهم أهالي البلاد المجاورة، فأرسل إليهم يزيد فرقة من أهل الديوان. ولكن يبدو أن هذه الفتنة كانت قوية وخطرة، فقد قتل في المعركة بعض قواد العرب وجرح البعض الآخر، وانصرف الجيش إلى الفسطاط منهزمين[٤]..

---

(١) الكندي: الولاة والقضاة، ص ٨.

(٢) المرجع السابق، ص ٩٦.

(٣) المرجع السابق، ص ١٠٢.

(٤) المرجع السابق، ص ١١٦ - ١١٧.

٦ - وفى سنة ١٥٦ هـ فى ولاية موسى بن على على مصر من قبل أبى جعفر المنصور خرجت القبط ببلهيب، فأرسل إليهم الوالى جندًا هزموهم.

٧ - وفى سنة ٢١٦ هـ فى ولاية عيسى بن منصور على مصر من قبل الخليفة المأمون، ثار سكان أسفل الأرض (الوجه البحرى) - عربًا وقبطًا - وكان سبب هذه الثورة - كما يذكر الكندى - «سوء سيرة العمال فيهم»[1] وبذل الوالى عيسى بن منصور، والقائد العباسى الأفشين جهدهما لإخضاع هذه الثورة التى ظلت قائمة نحو ثمانية شهور - من جمادى الأولى إلى ذى الحجة من سنة ٢١٦ هـ - حتى اضطر الخليفة المأمون أن يأتى إلى مصر بنفسه لإخضاع هذه الثورة، وأخضعها وعاقب كلاً من الحاكم والمحكومين بما يستحق، أما الوالى عيسى بن منصور، فقد عزله المأمون بعد أن عنفه بقوله:

«لم يكن هذا الحدث العظيم إلا عن فعلك وفعل عمالك، حملتم الناس ما لا يطيقون وكتمتونى الخبر حتى تفاقم الأمر واضطربت البلد»[2].

أما ابن عبيدس الفهرى قائد الثورة من العرب فقد فر إلى الصعيد، فظفر به وقتل. وأما الثائرون من الأقباط «فنزلوا على حكم أمير المؤمنين، فحكم بقتل الرجال وبيع النساء والأطفال، فبيعوا وسبى أكثرهم»[3].

يقول المقريزى:

«ومن حينئذ ذلت القبط فى جميع أرض مصر، ولم يقدر أحد منهم بعد ذلك على الخروج على السلطان، وغلبهم المسلمون على عامة القرى، فرجعوا عن المحاربة إلى المكايدة واستعمال المكر والحيلة ومكايدة المسلمين وعملوا كتاب الخراج، فكانت لهم وللمسلمين أخبار كثيرة..»[4].

هذا موجز لأهم الثورات التى قام بها الأقباط فى القرنين الأول والثانى للهجرة، وقد أخضعت كلها بالقوة. وكان من أهم نتائجها جميعًا أن اعتنق عدد كبير من الأقباط الإسلام بعد كل ثورة - رغبة أو رهبة -.

وكان من الطبيعى - وهذه العوامل تعمل مجتمعة لإدماج الشعبين أحدهما فى الآخر - أن تنتشر اللغة العربية بين الأقباط ليمكن التفاهم بين الحاكم والمحكوم، وظل انتشار اللغة العربية بطيئًا طوال القرن الأول للهجرة، وقبيل نهاية هذا القرن، أى فى سنة ٨٧ هـ (٧٠٥م). وفى

---

(١) المرجع السابق، ص ١٩٠.

(٢) الكندى: الولاة والقضاة، ص ١٩٢.

(٣) الكندى: الولاة والقضاة، ص ١٩٢.

(٤) المقريزى: الخطط، ج ٤، ص ٣٩٦.

ولاية عبد الله بن عبد الملك على مصر من قبل أخيه الوليد بن عبد الملك أمر بالدواوين «فنسخت بالعربية، وكانت قبل ذلك تكتب بالقبطية»[١].

ففى القرن الأول للهجرة كانت أوراق الدواوين تكتب باللغة اليونانية، وكانت بعض الأوراق تكتب باللغتين العربية واليونانية ويرجع تاريخ أقدم ورقة مكتوب عليها بهاتين اللغتين إلى سنة ٢٢ هـ (٦٤٣م)، ويرجع تاريخ آخر ورقة إلى سنة ١٠١ هـ (٧١٩م)، كما يرجع تاريخ آخر ورقة بردية مكتوب عليها باليونانية فقط إلى سنة ١٦٤ هـ (٧٨٠م)، أما أقدم ورقة مكتوب عليها بالعربية فقط فتاريخها سنة ٩٠ هـ (٧٠٩م).

وظل هذا التحول من الكتابة باللغة اليونانية فى الدواوين والتحدث بالقبطية بين عامة الناس إلى الكتابة والتحدث باللغة العربية، ظل هذا التحول يتم بالتدرج خلال القرون الثلاثة الأولى للهجرة، حتى إذا كان القرن الرابع (١٠م) كانت غالبية الشعب المصرى يتكلمون العربية ولا يفهمون القبطية، بدليل أن رجال الكنيسة المصرية اضطروا فى هذا القرن أن يلقوا مواعظهم فى الكنائس باللغة العربية.

وليس معنى هذا أن اللغة القبطية تلاشت تماما، بل لقد ظلت موجودة، بدليل ما يذكره المقريزى من أن الخليفة المأمون كان يتنقل فى ريف مصر ومعه مترجم ينقل عنه وإليه، وما يذكره المقدسى فى كتابه «أحسن التقاسيم» (ألفه حوالى سنة ٣٧٥ هـ) من أن بعض مسيحيى مصر كانوا يتحدثون بالقبطية[٢].

ولا يفوتنا أن نشير إلى أن بعض المسلمين تعلموا القبطية فى هذا العهد الأول - عهد الاختلاط - يذكر الكندى أن القاضى خير بن نعيم (ولى القضاء من ١٢٠هـ - ١٢٧ هـ) كان «يسمع كلام القبط بلغتهم، ويخاطبهم بها»[٣] كما يذكر أن عبد الله بن عبد الرحمن بن معاوية بن حديج، والى الشرطة على الفسطاط (سنة ١٤٤ هـ)، كان يتكلم القبطية[٤].

وذكر البلوى فى كتابه «سيرة أحمد بن طولون» أن ابن طولون تغير على أحد رجاله، ففر منه، فأرسل ابن طولون أحد رجال دولته فى طلبه، وأوصاه أن لا يبحث عنه فى داره بالفسطاط ولا فى ضيعته، بل أمره أن يبحث عنه فى «الديارات وعند النصارى.. لأنه حاذق بالقبطية فصيح بها..»[٥].

---

(١) الكندى: المرجع السابق، ص ٥٨ - ٥٩. وجاء فى دائرة المعارف الإسلامية مادة «ديوان» ومادة «قبط» أن الدواوين فى مصر كانت تكتب باليونانية لا بالقبطية.

(٢) المقدسى: أحسن التقاسيم، ص ٨.

(٣) الكندى: الولاة والقضاة، ص ٣٤٩.

(٤) نفس المرجع، ص ١١٣.

(٥) البلوى: سيرة أحمد بن طولون، نشر محمد كرد على، ص ١٣٠ - ١٣١.

ونستطيع الآن أن نلخص خطوات الاختلاط والتحول التى انتهت بتكوين الشعب المصرى فى العصر الإسلامى الأول فى النقط الآتية :

١ - امتاز القرن الأول للهجرة بكثرة الهجرات العربية المتتابعة، وكانت أكبر هذه الهجرات هجرة القبائل القيسية من سنة ١٠٩هـ إلى سنة ١٣٢هـ (أى من عهد هشام بن عبد الملك إلى عهد مروان بن محمد)، وقبيل نهاية هذا القرن أيضًا (فى سنة ٨٧هـ) كان تحويل الدواوين المصرية من اليونانية والقبطية إلى العربية.

٢ - ويمتاز القرن الثانى بثورات الأقباط المختلفة - (من سنة ١٠٥هـ إلى سنة ٢١٦هـ)، وكان من نتائج هذه الثورات دخول كثير من الأقباط فى الإسلام.

٣ - وفى القرن الثالث أسقط العرب من ديوان الجند، ومنعت أعطياتهم، فانتشروا فى القرى المصرية، واشتغلوا بالزراعة، وتزوجوا من المصريات.

ففى هذا القرن ثم امتزاج الشعبين.

٤ - ولم يكد يبدأ القرن الرابع حتى كان فى مصر شعب جديد - هو خليط من الشعبين العربى، والقبطى - يدين معظمه بالدين الإسلامى، ويتكلم السواد الأعظم منه - مسلمين وأقباطًا - باللغة العربية.

ونستطيع أخيرًا أن نفسر اندماج الأقباط فى العرب واعتناقهم الإسلام بالأسباب الآتية :

١ - يقول ابن خلدون: «المغلوب مولع دائمًا بتقليد الغالب» وهذه حقيقة ثابتة نشاهدها فى تاريخ الشعوب المختلفة، فليس من البعيد إذن أن يفكر بعض الأقباط فى اعتناق الدين الإسلامى - دين الدولة الحاكمة - وأن يتعلموا اللغة العربية - لغة الحكام - رغبة فى أن ترتفع مكانتهم، ويسهل اتصالهم برجال الدولة، ويتمتعوا بما يتمتع به المسلمون من مركز مرموق.

ولم يكتف نفر من الأقباط باعتناق الإسلام وتعلم اللغة العربية، بل تغالوا فأدعوا النسب العربى، وبذلوا المال الكثير لإثبات هذا النسب فى وثائق رسمية.

ذكر الكندى أن جماعة من القبط يسمون «أهل الحرس» سعوا لدى قاضى مصر عبد الرحمن ابن عبد الله العمرى (١٨٥هـ - ١٩٤هـ) ليسجل لهم سجلاً بإثبات أنسابهم، ودفعوا له ستة آلاف دينار، فرفع العمرى الأمر إلى الخليفة الرشيد، وسافر رجلان من «أهل الحرس» إلى بغداد، وأنفقا هناك مالاً كثيرًا، وادعوا أنهم ينتسبون إلى حوتكه بن أسلم بن الحاف بن قضاعة. وعند وصولهم إلى بغداد مات الرشيد، وولى الخلافة ابنه الأمين، فرفعوا إليه قضيتهم، وأيدهم فى دعواهم جماعة من أهل الحوف الشرقى وبادية الشام.

ثم عاد الوفد ومعهم كتاب الأمين إلى العمرى بالتسجيل لهم ففعل.

وقد ثار المجتمع العربى فى الفسطاط لهذه القضية وأعلن عن غضبه على القاضى العمرى فى شعر كثير[1]، ينتقد فيه حكم هذا القاضى ويطعن فى قضاياه، ولم تهدأ ثائرتهم حتى عزل العمرى عن قضاء مصر، ووليه هشام بن أبى بكر البكرى (١٦٤هـ - ١٦٩ هـ) من قبل الأمين أيضًا.

وسافر وفد من العرب إلى بغداد للطعن فى حكم العمرى ونسبة «أهل الحرس» للعرب.

«فكتب محمد الأمين إلى البكرى بكتاب يذكر فيه أنه لا يمنح أحدًا من غير العرب اللحاق بالعرب، ويأمره أن يردهم إلى ما كانوا عليه من أنسابهم»[2].

فدعا البكرى «أهل الحرس» وطلب منهم سجل قضيتهم الذى أثبت فيه العمرى أنسابهم، ثم أخرج مقراضا من تحت مصلاه فقطع السجل به، وقال لهم:

«العرب لا تحتاج إلى كتاب من قاض. إن كنتم عربًا فليس ينازعهم أحد».

٢ - كان الأقباط يتولون وظائف الدولة الصغرى والكبرى فى المدن وفى القرى، غير أنهم أخذوا يدخلون فى الإسلام ويتعلمون اللغة العربية رويدًا رويدًا، وخاصة بعد صدور الأمر بتدوين الدواوين فى مصر باللغة العربية، وكان الدافع الأكبر لإقبالهم على اعتناق الإسلام وتعلم اللغة العربية رغبتهم فى الاحتفاظ بالوظائف التى يلونها، فقد روى ساويرس بن المقفع أن الخليفة عمر بن عبد العزيز (٩٩هـ - ١٠١ هـ) أرسل إلى مصر كتابًا يأمر فيه الأقباط بالتخلى عن وظائفهم ماداموا على دينهم، ومن أراد الاحتفاظ بعمله فليدخل فى دين محمد، ولهذا سلم الأقباط ما بأيديهم من الأعمال والوظائف إلى المسلمين[3].

ويؤكد هذه الرواية ما ذكره الكندى من أنه فى خلافة عمر بن عبد العزيز «نزعت موازيت القبط عن الكور، واستعمل المسلمون عليهم»[4].

ومن البديهى أن نستنتج أن عددًا كبيرًا من أقباط مصر قد دخلوا فى الإسلام وتعلموا اللغة العربية للاحتفاظ بوظائفهم أو للعودة إليها بعد تخليهم عنها.

ومع هذا فإنه يبدو أن تنفيذ هذا الأمر لم يكن عامًا، أو أنه لم يلتزم فيما تلا عصر عمر بن عبد العزيز من سنوات، بدليل أن الأقباط ظلوا يشغلون كثيرًا من وظائف الدولة، بل لقد ظل بعض الموزايت يختارون من الأقباط، فقد ذكر فى إحدى الأوراق البردية المحفوظة فى هيدلبرج، والمؤرخة بسنة ١٧١ هـ، اسم مازوت قبطى[5].

---

(١) انظر هذا الشعر وتفاصيل القضية فى (الكندى: الولاة والقضاة، ص ٣٩٧ - ٣٩٩).

(٢) الكندى: المرجع السابق، ص ٤١٣.

(٣) ساويرس بن المقفع: سير الآباء البطاركة، ج ٥، ص ٧١ - ٧٢.

(٤) الكندى: المرجع السابق، ص ٦٩.

(٥) سيدة إسماعيل الكاشف. مصر فى فجر الإسلام، ص ٢٠١.

٣ - ما كان يحدث عقب كل ثورة من دخول كثير من الأقباط فى الإسلام - طوعًا أو كرهًا - وخاصة بعد الثورة الكبرى التى حدثت فى عهد المأمون.

٤ - اعتنق بعض الأقباط الإسلام فرارًا من الضرائب التى كانت مفروضة عليهم، وقد يؤيد هذا أن أول انتقاض للقبط فى العهد الإسلامى (سنة ١٠٥ هـ) كان لأن عامل الخراج زاد على كل دينار قيراطًا.

ولم يكد ينتهى القرن الأول للهجرة حتى أحس والى مصر ما لكثرة دخول الأقباط فى الإسلام من أثر فى نقص قيمة الخراج. فلما ولى الخلافة عمر بن عبد العزيز (٩٩هـ - ١٠١ هـ) كتب إليه عامله على مصر أيوب بن شر حبيل يشكو كثرة دخول الناس فى الإسلام، ويذكر له ما لهذا التحول من أثر فى نقص قيمة الخراج، ثم استأذنه فى فرض الجزية على من أسلم، فرد عليه عمر رده المشهور:

«قبح الله رأيك، إن الله إنما بعث محمدًا هاديًا ولم يبعثه جابيًا، فضع الجزية عمن أسلم، ولعمرى لعمر أشقى من أن أجل الناس كلهم فى الإسلام على يديه.

٥ - وهناك سبب أخير قد يكون له من القوة ما يفوق الأسباب السالفة مجتمعة، وذلك أن دخول الأقباط فى الإسلام كان دخولاً طبيعيًا، يسير مع التطور المنطقى للحوادث وللتاريخ فى مصر بعد الفتح العربى، وأن الدين الإسلامى ببساطته وبساطة تعاليمه وعقائده قد جذب هؤلاء الأقباط إليه، يقول بهذا الرأى شاهد من الديانة المسيحية، هو المؤرخ والمستشرق الإنجليزى المعروف «سيرتوماس أرنولد» فقد قال فى كتابه «الدعوة إلى الإسلام».

«الحق أن كثيرًا من مسيحيى مصر تركوا النصرانية بمثل هذه السهولة وتلك السرعة التى اعتنقوا بها النصرانية فى مستهل القرن الرابع الميلادى.. كما أن سرعة انتشار الإسلام فى الأيام الأولى من الاحتلال العربى قد تكون راجعة إلى عجز ديانة كالديانة المسيحية وعدم صلاحيتها للبقاء، أكثر من أن تكون راجعة إلى الجهود الظاهرة التى قام بها الفاتحون لجذب الأهلين إلى الإسلام.

وإن الأساس اللاهوتى لبقاء اليعقوبيين حزبًا منفصلاً، والشعائر التى جاهدوا فى سبيل الاحتفاظ بها وقتًا طويلاً، ودفعوا ثمنًا غاليًا فى هذا السبيل، قد اجتمعت فى عقائد كانت صيغتها أشد ما تكون غموضًا وإبهامًا من الناحية الميتافيزيقية، ولا شك أن كثيرًا من هؤلاء قد تحولوا - وقد أخذت الحيرة منهم كل ما أخذ، واستولى على نفوسهم الضجر والأعياء من ذلك الجدل السقيم الذى احتدم حولهم - إلى عقيدة تتلخص فى وحدانية الله البسيطة الواضحة ورسالة نبيه محمد»[1].

---

(١) توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام (الترجمة العربية للدكتور حسن إبراهيم وزميليه)، ص ٩٣ - ٩٤.

البــاب الثالث

الحياة الاقتصادية

فى العاصمة الجديدة الفسطاط

(أ) التجــارة .

(ب) الصناعة .

الحيـاة الاقتصادية
فى الفسطاط

(أ) التجارة :

كان من أهم ما تمتاز به الفسطاط - كما أسلفنا - موقعـها علـى النيـل ، فإنـه يسر للأهلـين سبل الحصول على الماء ، وقد عرفنا كيف خدمت الضواحـى العسكرية المدينـة فتركتـها تنمـو وتكبر وتزدهر بعيدة عن حروب ومشاكل الجند ونزاع الطوائف .

وقد ساعدت زيادة عدد السكان المضطردة على أن تكثر بالمدينة الأسواق ، وترد إليها جميـع أصناف التجارة من الجنوب والشمال والشرق والغرب ، وذلك بحكم مركزها كعاصمة ، وبحكـم موقعها الممتاز على رأس الدلتا ، إذ ينتهى إليها النيـل منحـدرًا مـن الصعيـد ، ثـم يتفـرع مـن شماليها ليتصل بشرق الدلتا وغربها ، ثم ينتهى إلى البحر الأبيض المتوسـط ، كمـا كـان خليـج أمير المؤمنين يصل بين الفسطاط والبحر الأحمر .

لهذا لا نعجب إذا قرأنا وصف المقدسى (توفى ٣٨٧هـ) لمدينة الفسطاط إذ يقول :

(فهو مصر مصر ، وناسخ بغـداد ، ومفخـر الإسـلام ، ومتجـر الأنـام ؛ وأجمـل مـن مدينـة السلام ، خزانة المغرب ، ومطرح المشرق ، عامر المرسم ، ليس فـى الأمصـار آهـل منـه ، كثـير الأجلة والمشايخ ، عجيب المتاجر والخصائص ، حسن الأسواق والمعايش .. به أطعمـة لطيفـة، وإدامات نظيفة، وحلاوات رخيصة ، كثير الموز والرطب ؛ غزير البقول والحطب ..

وكنت يومًا أمشى على الساحل ، وأتعجب من كـثرة المراكـب الراسـية والسـائرة ، فقـال لى رجل منهم : من أين أنت؟ قلت : من بيت المقدس ؛ قال : بلـد كبـيرًا، أعلمـك يـا سـيدى - أعـزك الله - أن علـى هـذا السـاحل ، ومـا قـد أقلـع منـه إلى البلـدان والقـرى، مـن المراكــب ما لو ذهبت إلى بلدك لحملت أهلها وآلاتها وحجارتها وخشبها حتى يقال هنا مدينة)[1] .

وقال السيوطى - نقلاً عن الكندى:

(وكل كورة من كور مصر مدينة قال تعالى: ﴿ وَٱبۡعَثۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴾[2]، وفى كل مدينة منها آثار عجيبة من الأبنية والصخور والرخام والبرابى . وتلك المدن كلـها تؤتـى فـى المـاء مـن السفن تحمل المتاع والآلة إلى الفسطاط ، تحمل السفينة الواحدة ما يحمله خمسمائة بعير)[3] .

---

(١) المقدسى : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، ليدن ١٨٧٧م، ص ١٩٧-١٩٨.

(٢) سورة الشعراء الآية : ٣٦.

(٣) السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ ٢ ، ص ١٧٢ .

وهذه الأوصاف تصور لنا كيف كانت الفسطاط مجمع التجارة الواردة من الشمال والجنوب عن طريق النيل ، فإن هذا الأسطول الكبير من السفن النيلية كان يصعد جنوبًا وينحدر شمالاً ، ثم يعود إلى الفسطاط محملاً بجميع أصناف التجارة والمصنوعات .

كذلك كانت تنتهي إلى الفسطاط التجارة الواردة من بلدان الشرق ، كبلاد العرب والهند والصين . فإنها كانت تلتقي مع التجارة الوافدة من جنوب أفريقيا وأواسطها ، وتصلان إلى مصر عن طريق القلزم وخليج أمير المؤمنين ، أو عن طريق عيذاب - قوص قفط قنا - ثم تحملها الدواب أو السفن حتى تصل إلى الفسطاط .

وكذلك كانت التجارة الوافدة من ممالك أوربا ومن آسيا الصغرى والشام وجزر البحر الأبيض المتوسط كانت تصل إلى موانئ مصر الشمالية ، ثم تنقل بواسطة القوافل أو السفن إلى الفسطاط ، يقول ابن سعيد (توفى سنة ٦٧٣هـ) . (وساحل النيل كثير العمارة بالمراكب وأصناف الأرزاق التي تصل من جميع أقطار الأرض والنيل ، ولئن قلت بأني لم أبصر على نهر ما أبصرته على ذلك الساحل فإني أقول حقًا)[١] .

ثم يقول أيضًا : (وأما ما يرد على الفسطاط من البحر الإسكندراني والبحر الحجازي فإنه فوق ما يوصف ، وبها مجمع ذلك لا بالقاهرة ، ومنها تجهز إلى القاهرة وسائر البلاد ..)[٢] .

وكانت المدينة بعد تخطيطها ونموها قد كثرت حاراتها وأزقتها ودروبها وشوارعها، وسميت هذه جميعًا بأسماء أصحاب الحرف من التجار أو الصناع ، فكان فيها :

سوق العداسين ، وسوق الشوايين ، وسوق السماكين ، وسوق الصيادين ، وسوق العلافين، وسوق القشاشين، وسوق الزياتين ، وسوق التمر ، وسوق الرقيق .

وكان بها زقاق العسل ، وزقاق السمسم ، وزقاق المسك .

وكان بها رحبة الخروب لأنها مرسومة ببيعه .

وكان بها درب البقالين ، ودرب الديباج .

وقد ذكر ابن دقماق أنه كان بها - في عصره - ثمانية أسواق ، وخمس عشرة سويقة[٣] ، ويبدو من وصفه أن أسواق المدينة كانت عامرة آهلة ، فإنه يقول عن (سويقة دار النحاس) . (كانت من أقل أسواق مصر ، ولم يكن بها أكثر من أحد عشر حانوتًا)[٤] .

---

(١) المقريزي : الخطط ، جـ ٢ ، ص ١٤٨ .

(٢) نفس المرجع السابق ، ص ١٤١ ؛ وانظر أيضًا ابن دقماق ، الانتصار ، الجزء الرابع ، الفصول الخاصة بالأسواق والرحاب والأزقة والدروب .

(٣) ابن دقماق : الانتصار ، جـ ٤ ، ص ٣٢ - ٣٤ .

(٤) ابن دقماق : الانتصار ، جـ ٤ ، ص ٣٣ .

وكان بالفسطاط على عهد ابن دقماق (القرن ٩ هـ = ١٥ م) خمس عشرة قيسارية ، منها : (قيسارية المحلى .. وليس بها حانوت خال ، وكان يباع بها سائر أنواع الصوف والخيش والشعر وغيره ، وكانت تنزل إليها فى أيام أسواق مصر تجار القاهرة للبيع والشراء بها ..)[1] .

و (قيسارية الصبانة .. كانت جميعها مسكونة داخلها وظاهرها ، وأزقة أبوابها ليس فيها حانوت خال ، وكان بسوط فرجتها الغربية مساطب برسم الخياطين ، ولهم مقاعد بأجناب)[2] .

و (قيسارية شبل الدولة .. وكانت معروفة بأقمشة النساء ..)[3] .

و (قيسارية ورثة الظاهر .. وكانت معروفة ببيع القماش الشامى ..)[4] .

و (قيسارية ابن ميسر الكبرى .. مرسومة لبيع الخام البلدى والمجلوب ..)[5] .

و (قيسارية أبى مرة .. قال القضاعى : وفى جمادى الآخرة من سنة ٣٧٨هـ نقل باعة الجع والحرير إلى هذه القيسارية)[6] .

و (قيسارية ابن ميسر الصغرى .. وكان يباع بها الصناديق وماشابهها)[7] .

و (قياسرية الأنماط القديمة . وسكنها أصحاب الأنماط فى سنة ٣٤٧)[8] .

والأنماط هى (الستور التى توضع على الهوادج فوق الجمال أثناء السفر ، وأغطية السروج[9] - .

ثم ذكر ابن دقماق أنه كان بالفسطاط على أيامه ستة عشر[10] فندقاً لبيع أصناف الفواكه والخضر وأنواع التجارة والمصنوعات ، والفندق كلمة من أصل يونانى[11] Pandokeion وهو مكان تخزن البضائع وتعرض فى أسفله ، وينام التجار فى أعلاه ، وكانت الفنادق فى الغالب ملجأ التجار الأجانب، وكان من هذه الفنادق بالفسطاط :

---

(١) ابن دقماق : الانتصار ، جـ ٤ ، ص ٣٧ - ٣٨ .
(٢) ابن دقماق : الانتصار ، جـ ٤ ، ص ٣٨ .
(٣) نفس المرجع السابق ، ص ٣٨ .
(٤) ابن دقماق : الانتصار ، جـ ٤ ، ص ٣٨ .
(٥) ابن دقماق : الانتصار ، جـ ٤ ، ص ٣٨ .
(٦) نفس المرجع ، ص ٣٩ .
(٧) نفس المرجع ، ص ٣٨ .
(٨) نفس المرجع ، ص ٣٩ - ٤٠ .
(٩) انظر ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ ٤ ، ص ٣٨ ، هامش ٢.
(١٠) ابن دقماق ، ص ٤٠ - ٤١ .
(١١) انظر : متز : الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع ، جـ ٢ ، ص ٣٢٧ .

فندق دار الخضر ، وفندق العسل ، وفندق البلاط ، وفندق السدر ، وفندق الدقيق، وفندق دار التفاح وفندق القصب ، وفندق الحصر، «ويباع به الحصر الرفيعة والحصر القطبان المجلوبان من الفيوم ، ويباع به أيضا الرطب الأمهات والزيتون الأخضر» ، وفندق الكارم ، وفندق الصبانين (وبظاهره حوانيت الصبانين) .

ويقول المقريزى - نقلاً عن ابن المتوج - إن رجلاً من كبار الصالحين قال : (عددت من مسجد عبد الله إلى جامع ابن طولون ثلاثمائة وتسعين قدر حمص مصلوق بقصبة هذا السوق بالأرض، سوى المقاعد والحوانيت التى بها الحمص، فتأمل - أعزك الله - ما فى هذا الخبر مما يدل على عظمة مصر ، فإن هذا السوق كان خارج مدينة الفسطاط .. ومن المعروف أن الأسواق التى تكون بداخل المدينة أعظم من الأسواق التى هى خارجها ، ومع هذا ففى هذا السوق من صنف واحد من المآكل هذا القدر ، فكم ترى تكون جملة ما فيه من سائر أصناف المآكل، وقد كان إذ ذاك بمصر عشرة أسواق كلها أو أكثرها أجل من هذا السوق)[1] .

ويصف ابن حوقل الفسطاط بأنها (ذات رحاب فى محالها ، وأسواق عظام ، ومتاجر فخام)[2] .

ويروى ناصر خسرو أن البقالين والعطارين وبائعى الخردة كانوا يعطون الشارى الأوانى الزجاجية والورق ليضع فيها ما يبتاع)[3] .

(ب) الصناعة :

ذكرنا أن الدروب والرحاب والخوخ والأسواق فى مدينة الفسطاط سميت بأسماء التجار ، وكذلك أطلق على بعضها أسماء أصحاب المهن والحرف والصناعات المختلفة ، فكان بها : سوق السراجين ، وسوق الوراقين ، وسوق الأساكفة ، وسوق الخبازين .

وكان بها زقاق القفاصين ، وزقاق الرزازين ، (وبه صف مخازن مدقات الأرز) .

وكان بها درب الفواخير ، ودرب النجارين ، ودرب الحدادين ، ودرب الحبالين ، ودرب الحجارين .

وكان بها كذلك خوخة الرفايين (وهى سكن رفايين القماش)[4] .

يقول ابن سعيد : (وبمدينة الفسطاط مطابخ السطر ، ومطابخ الصابون ، ومسابك الزجاج ، ومسابك الفولاذ ، ومسابك النحاس ، والوراقات ، مما لا يعمل فى القاهرة ولا غيرها من الديار المصرية) .

---

(١) المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ١٣١ .
(٢) ابن حوقل : المسالك والممالك ، ص ٩٦ .
(٣) ناصر خسرو : سفرنامة ، ص ١٣٥ ؛ وزكى محمد حسن ، كنوز الفاطميين ، ص ١٥٠ و ١٨٠ .
(٤) ابن دقماق : الانتصار ، جـ ٤ ، ص ٢٠ - ٣٧ .

وهذه الجملة التى ذكرها ابن سعيد تجمع أهل أنواع الصناعات التى كانت قائمة فى الفسطاط ، وسنحاول فيما يلى أن نفصل الحديث بعض التفصيل عن كل صناعة من هذه الصناعات :

صناعة السكر : ذكر ابن دقماق أنه كان بالفسطاط ٥٨ مطبخًا للسكر ، هذا عدا المطابخ السلطانية ، وكانت فى عهده (القرن الثامن الهجرى) (سبعة على صف واحد ، منها مطبخ للدولة ، ومطابخ للخاص السلطانى ، ثم إن السلطان حسن أفرد منها لأولاده ثلاثة ، واستقر مطبخ للدولة ، وباقيها للخاص الشريف ، ولكل واحد منها شاد ومباشرون ، وهى عمارة حسنة)(١) .

ويبدو أن معظم المطابخ الأهلية كان يديرها اليهود ، يقول ابن دقماق عن مطبخ الأمير نور الدين بن فخر الدين عثمان : (ثم سكنه بعض اليهود السكريين)(٢) .

ويذكر فى نفس الصفحة (مطبخ إبراهيم بن المشنقص اليهودى .. وهو سكن اليهود)(٣) . وعند كلامه عن مطبخ آخر كان يملكه الزكى بن المسواك يقول : (ثم سكنه اليهود)(٤) .

وقال عند كلامه عن (مطبخ الربع العادلى) : (لم يزل بيد اليهود يدولبونه ثم دولبه كريم الدين الكبير)(٥) .

وفى نفس الصفحة ذكر مطبخًا آخر كان يملكه من يدعى سعيد اليهودى .

ويتضح من كلام ابن دقماق أن غالبية هذه المطابخ للسكر كان يدولبها - أى يديرها ، فى عهده ، وفى غير عهده أمراء الدولة ووزرائها ، بل لقد كان أحد القضاة - وهو القاضى زكى الدين بن الخروبى يدولب أحد هذه المطابخ ، أما المطابخ الأهلية فكان يدولب معظمها اليهود، وكان واحد منها ملكًا للنصارى الكركيين(٦) .

وكان بعض هذه المطابخ إذا خربت استخدمت مصانع أخرى لطبخ الصابون ، أو لنفض الكتان، أو للصباغة ، أو لسبك النحاس ، يقول ابن دقماق عند كلامه عن أحد هذه المطابخ : (ثم جعل صيانة برسم عمل الصابون)(٧) .

---

(١) ابن دقماق : الانتصار ، جـ ٤ ، ص ٤١ .

(٢) ابن دقماق : الانتصار ، جـ ٤ ، ص ٤١ .

(٣) وكان ابن المشنقص يملك مطبخًا ثانيًا ، انظر المرجع السابق ، ص ٤٤ .

(٤) ابن دقماق : الانتصار ، جـ ٤ ، ص ٤٣ .

(٥) نفس المرجع ، ص ٤٤ .

(٦) نفس المرجع ، ص ٤٣ - ٤٤ .

(٧) نفس المرجع ، ص ٤٥ .

وعن مطبخ آخر: (وتعطل فى سنة ٦٥٣هـ وذهبت عمده وآلاته، وجعل مقشره للحمص، ثم جعل مناخا للجمال، ثم جعل منقضا للكتان)[١] .

وعن مطبخ آخر : (ثم تعطل وجعل مصبغة للأحمر)[٢] .

وفى نفس الصفحة يتكلم عن مطبخ خرب ، ويختتم كلامه بقوله : (فخرب وهدم وجعل مكانه (كذا) يضرب فيه ما يسبك فى الكور من النحاس) .

وفى أحيان أخرى كانت تستعمل هذه المطابخ بعد خرابها كمخازن لخزن الملح أو الفحم ، يقول ابن دقماق عن أحد هذه المطابخ : (وهو الآن ساحة وجعل منشرًا)[٣] . وعن مطبخ آخر (وخرب وهو يخزن فيه الملح الآن)[٤] وعن ثالث : (وجعل مخزنا يخزن به الفحم) .

صناعة الزجاج :

صناعة الزجاج قديمة فى مصر ، وكان لها شأن كبير فى العصر الرومانى ، وظلت مزدهرة فى العصر الإسلامى، ولكن مركز إنتاجها الهام أصبح فى العاصمة الجديدة الفسطاط، وقد ذكرنا ناصر خسرو أن التجار بهذه المدينة كانوا يقدمون للمشترين مبيعاتهم فى أوان من الزجاج كانت تقوم مقام الورق فى هذه الأيام ، وقد كشف فى حفائر الفسطاط عن قطع كثيرة من الأقراص الزجاجية التى كانت تتخذ عيارات لوزن النقود فى العصر الإسلامى ، وقد نقش على كثير منها أسماء ولاة مصر وخلفائها ، وقد أشار ابن سعيد إلى وجود عدد من مسابك الزجاج فى مدينة الفسطاط.

صناعة البللور الصخرى :

كذلك ازدهرت بالفسطاط صناعة الأوانى الفاخرة من البللور الصخرى ، وقد أعجب ناصر خسرو بما رآه من أنواع هذه الصناعة فى سوق القناديل بالفسطاط ، فقال : (إنه كان غاية فى الجمال والإبداع ، وإنه كان مشغولاً بأسلوب فنى على يد صناع لهم ذوق رقيق) ، وذكر فى هذه المناسبة أن البللور كان يجلب من بلاد الغرب حتى قبل رحلته إلى مصر بزمن وجيز حين جيء ببعضه من إقليم البحر الأحمر ، وكان هذا النوع الجديد أجل من المغربى وأكثر منه شفافية)[٥] .

---

(١) نفس المرجع ، ص ٤٥.

(٢) نفس المرجع السابق ، ص ٤٥ .

(٣) نفس المرجع ، ص ٤٤ – ٤٥ .

(٤) نفس المرجع ، ص ٤٤ – ٤٥ .

(٥) زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ، ص ١٨٨ ؛ وناصر خسرو : سفرنامة ، ص ١٤٩ .

وقد أدى عثور المصريين على البللور فى بلادهم إلى انخفاض ثمنه وكثرة إنتاجه ، ولهذا كانت قصور الفاطميين وقصور وزرائهم وكبار رجال دولتهم تضم العدد الكثير من الأوانى البديعة المصنوعة من هذا الصنف .

الصناعات الخشبية :

كذلك كان لصناعة الخشب ونقشه شأن كبير فى مدينة الفسطاط ، ويدل على نموها والعناية بها النقوش الجميلة على أبواب المساجد والكنائس والدور ، وما وجد على الإطارات الخشبية التى عثر عليها فى هذه المبانى من نقوش وكتابات .

ولم يكتف المصريون بما كان لديهم من أصناف الأخشاب المستخرجة من الأشجار المحلية كأشجار السدر والجميز والسنط والسرو والأتل .. إلخ بل استوردت الأخشاب المتينة من الخارج، كشخب الأرز من آسيا الصغرى وسوريا ولبنان ، وأخشاب الزينة من المشرق كخشب التاك والساج من الهند ، والأبنوس من السودان ، كما استوردوا أصنافًا أخرى من بلدان جنوب أوربا وخاصة الجمهوريات الإيطالية كجنوة والبندقية[1] .

وقد كانت فى الفسطاط أسواق عامرة بالأخشاب منذ العصر الطولونى ، وكان له تجار كثيرون، كما كانت ترد معظم الأخشاب إلى ديوان الحراج بالفسطاط فيبيعها للتجار حيث تستغل فى الصناعات الخشبية المختلفة أو تستخدم لبناء سفن الأسطول[2] .

وكان للقبط مهارة فائقة منذ القدم فى التجارة وصناعة الخشب ونقشه وزخرفته ، وظلت لهم الزيادة فى هذا الميدان بعد الفتح العربى ، ثم تعلم على أيديهم من أسلم من المصريين .

صناعة العاج :

وكان لصناعة العاج شأن فى العصر الإسلامى ، وهى صناعة قديمة ، وقد عثر فى حفائر الفسطاط على قطع شطرنج مصنوعة من العاج وعليها زخارف ، كذلك استعمل العاج فى نقش الخشب وحشوه وتجميله . وقد عثر كذلك فى حفائر الفسطاط على قطع كثيرة ، منها حشوة من العاج عليها رسم سيدة فى هودج وجندى فى يده رمح وقوس وصائد بالباز على ظهر جواده ، وهذه القطعة ترجع للعصر الفاطمى ، وهى محفوظة الآن فى دار الآثار العربية بالقاهرة ، وفى بعض الحشرات الأخرى رسوم طيور وحيوان كالأرنب والطاووس .. إلخ[3] .

---

(١) انظر ابن مماتى : قوانين الدواوين ، ص ٣٦٥ .

(٢) المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ١٣٣ - ١٣٥ .

(٣) زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ، ص ٢٢٥ .

صناعة الحلى :

وقامت كذلك بالفسطاط صناعة الحلى وأدوات الزينة ، وقد عثر فى حفائر الفسطاط على إسورة وخواتم وأقراط من الذهب أو الفضة ، وعليها زخارف نباتية دقيقة ، ويرجح أنها ترجع إلى العصر الفاطمى[١] .

صناعة الخزف :

(أ) الخزف ذو البريق المعدنى : ليس هناك أى دليل على وجود أى خزف ذى بريق معدنى فى الفسطاط قبل القرن الثالث الهجرى - أى قبل العصر الطولونى - وإنما المرجح أن هذا النوع من الخزف نشأ فى العراق ، ثم نقلت صناعته إلى مصر فى عهد أحمد بن طولون ، فلما جاء العصر الفاطمى كانت هذه الصناعة قد نمت فى مصر وازدهرت . وقد رأى ناصر خسرو نماذج من هذا الخزف فى الفسطاط ، وأعجب بها أيما إعجاب . وقد عمل الفخاريون بالفسطاط على تقليد هذا النوع من الخزف ذى البريق المعدنى كما يظهر ذلك واضحًا فى قطع منه وجدت فى أطلال الفسطاط.

وقد أشار ناصر خسرو إلى صناعة الخزف فى الفسطاط فى العصر الفاطمى فقال :

(إن المصريين كانوا يصنعون أنواع الخزف المختلفة ، وأن الخزف المصرى كان رقيقًا وشفافًا ، حتى لقد كان ميسرًا أن ترى من باطن الإناء الخزفى اليد الموضوعة خلفه ، وكانت تصنع بمصر الفناجين والقدور والبرانى والصحون والمواعين الأخرى ، وتزين بألوان تشبه لون القماش المسمى بوقلمون ، وهى ألوان تختلف باختلاف أوضاع الآنية)[٢] .

وقد اندثرت هذه الصناعة من الفسطاط بعد حريق شاور للمدينة ، أى فى نهاية الدول الفاطمية .

وكان رؤساء هذه الصناعة يثبتون أسماءهم على قطع الخزف التى تخرج من مصانعهم أو فواخيرهم ، وخاصة فى العصر الفاطمى ، وأشهر هذه الأسماء مسلم ، وسعد ، وطيب على، وإبراهيم المصرى .. إلخ .

(وكانت الرسوم الآدمية ورسوم الحيوان العنصر الأساسى فى زخارف الخزف الفاطمى، بينما كانت الفروع النباتية والأوراق عنصر ثانويًا يصحب الموضوع الرئيس الذى يسوده بكبر حجمه وظهور أهميته)[٣] .

---

(١) نفس المرجع ، ص ٢٤٨ .

(٢) كنوز الفاطميين : ص ١٥٢ .

(٣) كنوز الفاطميين : ص ١٥٥ - ١٦٠ .

ويقسم الدكتور زكي محمد حسن صناعة الخزف في الفسطاط في العصر الفاطمي إلى مدرستين : تنتسب إحداهما إلى رجل يدعى سعد ، والأخرى إلى رجل يدعى مسلم ، ثم يقارن بين مميزات ما صنع في مصانع كل من المدرستين فيقول : (والظاهر أن مدرسة سعد في الزخرفة بالبريق المعدني لم تقتصر على الخزف فقط، بل تجاوزته إلى الزجاج .. أما الرسوم الآدمية في منتجات سعد وأتباعه ففيها أنوثة ورقة تذكر برسوم الأشخاص في صور رضا عباسي[1] .

الخزف الصيني :

(ب) وقد عثر في حفائر الفسطاط على قطع كثيرة من الخزف الصيني أو من خزف حاول الصناع المصريون فيه تقليد خزف الصين ، ومن المرجح أن استيراد الخزف الصيني إلى مصر بدأ في العهد الطولوني ، فقد عرف ابن طولون هذا النوع من الخزف في سامرا ، ومن الواضح أن وجود الصيني في الفسطاط يدل على وجود علاقات تجارية بين مصر والصين في ذلك الحين ، يقول الدكتور زكي محمد حسن : (وليس غريب أن يسعى الخزفيون المصريون في تقليد الخزف الصيني إرضاء للذوق السائد في ذلك العصر ، فقد كان الخزف الصيني مشهورًا في الشرق الأدنى)[2] .

ولم يعمل المصريون على تقليد الخزف الصيني تقليدًا أعمى ، وإنما نقلوا عن نقوشه واقتبسوا من رسومه ، وأنتجوا خزفًا لا يقل جودة ولا جمالاً عن الخزف الصيني .

صناعة الفخار غير المدهون :

وقامت في الفسطاط إلى جانب صناعة أصناف الخزف ذي البريق المعدني صناعة الفخار غير المدهون ، يصنع منه الأواني الشعبية ، وخاصة القلل التي لم تكن تغطى بدهان إلى في النادر، وأجمل ما في القلل شبابيكها التي كانت ميدانًا طيبًا للزخارف الهندسية والرسوم الهندسية والحيوانية . (ولا شك أن شبابيك القلل التي عثر عليها في أطلال الفسطاط قد صنعت في الفسطاط نفسها ، لأن بعض القطع التي عثر عليها كانت مما تلف أثناء صناعتها أو تسويتها، ولم يكن ثمة داع لجلبها من مكان بعيد وهي في هذه الحالة من التلف)[3] .

---

(١) كنوز الفاطميين : ص ١٦٢ .

(٢) زكي محمد حسن : كنوز الفاطميين ، ص ٦٦ .

(٣) زكي محمد حسن : كنوز الفاطميين ، ص ١٧٤ .

صناعة قوارير النفط :

كذلك كانت بالفسطاط مصانع لصنع قوارير النفط ، وهى تشبه أن تكون قنابل يدوية صغيرة، وقد صنعت من مادة سميكة وعلى أشكال مختلفة، وهى، محببة الظاهر ، وفى بعض جوانبها نتوء ليسهل على الرامى مسكها ، وتذكر المراجع التاريخية أن عددًا كبيرًا من هذه القوارير قد استخدم فى حرق الفسطاط فى عهد وزارة شاور سنة ٥٦٤هـ (١١٦٨م) . قال المقريزى : (وبعث شاور إلى مصر بعشرين ألف قارورة نفط وعشرة آلاف مشعل نار ، فرق ذلك فيها . فارتفع لهب النار ودخان الحريق إلى السماء ، فصار منظرًا مهولاً ، فاستمرت النار تأتى على مساكن مصر من اليوم التاسع والعشرين من صفر لتمام أربعة وخمسين يومًا) .

(ومن أنواع الفخار التى عرفت فى العصر الفاطمى الخزف ذو الزخارف المحفورة أو المحزوزة فى طينة الإناء تحت طلاء ذى لون واحد ، وقد وجدت فى أطلال الفسطاط قطع من هذا النوع لم تصلح صناعتها أو تسويتها فى الفرن مما يمكن أن يستنبط منه أن مدينة الفسطاط كانت مركز صناعة هذا الخزف . .)[١] .

صناعة الورق :

وكانت بالفسطاط مصانع أو مطابخ لصنع الورق ، يقول المقريزى عند كلامه عن إحدى خطط الفسطاط : (وهذا الموضع اليوم وراقات يعمل فيها الورق)[٢] .

ويقول فى موضع آخر : (والمطابخ التى يصنع فيها الورق المنصورى مخصوصة بالفسطاط دون القاهرة)[٣] .

---

(١) نفس المرجع السابق والصفحة.

(٢) المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ٧٧ .

(٣) المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ١٨٩ .

الباب الرابع

الحياة العلمية فى الفسطاط
نشأتها وتطورها

- المدرسة الدينية.
- المدرسة التاريخية.
- المدرسة الأدبية.
- المدرسة العلمية.

الحيـاة العلمية

فى الفسطاط

المدرسة الدينية:

كانت مصر مهدًا لحضارة علميـة مزدهـرة فـى العصريـن البطلمـى والرومـانى، غـير أن هـذه الحضارة كانت قد انتابتها عوامل الانحلال والضعف قبيل الفتح العربى، فلما استقر العرب فى مصر - وخاصة فى الفسطاط فـى أول الأمـر - بـدأوا يمـهدون لتكويـن حضـارة علميـة جديـدة، وساعد على تكوين هذه الحضارة الجديدة انتشار العرب بين المصريين وزواجهم منهم، فلم يكد ينتهى القرن الثالث الهجرى حتى كان الإسلام قد انتشر فى ربوع مصـر، وحتـى كـانت اللغـة العربية هى لغة جميع المصريين.

وكان واجب العرب الأول فى مصر وغيرها من الأمصار هو نشر الدين الإسـلامى، وتعاليمـه، ولذلك نجد أن كبار الصحابة الذين استقروا فى مصرهم المعلمون الأول، كما أن مسجد عمرو فى الفسطاط هو المدرسة الأولى التى درس فيها هذا العلم. وقـد نشـأت إلى جـانب الفسـطاط عواصـم أخرى هى: العسكر، والقطائع، والقاهرة، غير أن هذه العواصم كانت دائمًـا ضواحـى ملكيـة - كما ذكرنا - وظلت الفسطاط دائمًا مركز النشاط العلمى وملجأ العلماء والفقهاء.

وبديهى أن تكون العلوم الأولى التى درست بالفسـطاط تتصـل بـالقرآن وتفسـيره، وبـالحديث وروايته، وكان إمام هذه المدرسة المصرية الصحابى الشهير عبد الله بن عمـرو بـن العـاص، وقـد كان رجلاً واسع الثقافة، روى أنه كان يقرأ التوراة، وذكر ابن سعد فـى طبقاتـه أنـه كـان يقـرأ بالسريانية.

وعنى عبد الله بن عمرو أكثر ما عنى برواية الحديث، قال مجاهد:

«رأيت عند عبد الله بن عمرو صحيفة، فسألته عنها، فقال: هذه الصادقة، فيها ما سمعت من رسول الله - ﷺ - وليس بينى وبينه فيها أحد»[1].

وقد روى عنه الحديث كثيرون، وكان كثير الترحال، وخاصة إلى بلاد الحجاز والشام، غـير أنه استقر بمصر، وسكن بداره - دار عمرو الصغرى - بالفسطاط، وبها مات ودفن - تبعًا لأحـد الأقوال -.

---

(١) طبقات ابن سعد، ص ٧، ص ١٨٩؛ وانظر أيضًا أحمد أمين: فجر الإسلام، ص ٢٢٨.

ويعتبر عبد الله بن عمرو - بحق - المؤسس الأول للمدرسة العربية فى مصر، عنه تلقى كثير من المصريين ودونوا ما كان يرويه من أحاديث.

فالمدرسة الأولى فى مصر كان مكانها جامع عمرو بالفسطاط، وأساتذتها كبار الصحابة، وأستاذها الأول عبد الله بن عمرو، وعلومها دينية تتصل بالقرآن وتفسيره، والحديث وروايته. وقد كثرت الرحلة من مصر وإليها فى طلب الحديث وتصحيحه، ونبغ من المصريين كثيرون هم تلامذة هذه المدرسة الأولى، ومن أشهرهم فى القرن الأول سليم بن عتر التجيبى «وهو أول من قص بمصر سنة ٣٩ هـ، وولاه معاوية القضاء سنة ٤٠ هـ، فأقام قاضيًا عشرين سنة، وهو أول من أسجل بمصر سجلاً فى المواريث، مات بدمياط سنة ٧٥ هـ»[١].

ومن أبرز الشخصيات العلمية فى مصر فى القرن الثانى يزيد بن أبى حبيب الأزدى، وكان رجلاً واسع المعرفة فى الناحيتين التاريخية والفقهية، يروى عنه كثير من أخبار الفتح العربى لمصر، وهو أول من عنى بالتشريع فى مصر بعد أن كانت عناية سابقيه بالقصص والتاريخ، ذكر السيوطى فى حسن المحاضرة «أنه أول من أظهر العلم بمصر، والمسائل فى الحلال والحرام، وقبل ذلك كانوا يتحدثون فى الترغيب والملاحم والفتن»[٢].

وقد نبغ من تلاميذ يزيد اثنان من أعلام المدرسة المصرية الأولى، وهما: عبد الله بن لهيعة، والليث بن سعد.

أما ابن لهيعة فمن أصل حضرمى، وكان - كما يقول الذهبى - «من الكتابين للحديث والجماعين للعلم والرحالين فيه»[٣].

وكان ابن لهيعة «يكنى أبا خريطة» وذلك أنه كانت له خريطة معلقة فى عنقه، فكان يدور بمصر، فكلما قدم قوم يدور عليهم، فكان إذا رأى شيخًا سأله: من لقيت؟ وعمن كتبت؟[٤].

وقد ولى ابن لهيعة قضاء مصر من قبل أبى جعفر المنصور نحو عشر سنين (١٥٥هـ - ١٦٥هـ). وقد نقل عنه الكندى كثيرًا من أخبار الفتح العربى لمصر، وقد توفى سنة ١٧٤ هـ ودفن بالقرافة من جبانة مصر، وقد وصفه صاحب النجوم الزاهرة بأنه كان عالم الديار المصرية وقاضيها ومحدثها.

أما الليث بن سعد فمصرى المولد، وإن كانت أسرته من أصبهان بفارس ولد فى قرية قشنده سنة ٩٣ هـ (أى فى السنة التى ولد فيها الإمام مالك) وتلقى العلم فى مصر، وتتلمذ ليزيد بن أبى حبيب، ثم ارتحل يستكمل علمه، فتلقى عن شيوخ الحجاز والعراق.

---

(١) السيوطى: حسن المحاضرة، جـ ١، ص ١٢٩.
(٢) نفس المرجع، ص ١٣١.
(٣) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، جـ ٢، ص ٧٧.
(٤) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، جـ ٢، ص ٨٨.

وكـان الليـث غنيًـا ذا أمـلاك كثـيرة، وكـان كريمًـا كثير الصـلات للعلمـاء، احــترقت دار ابن لهيعة فوصله بألف دينار، ولما زار المدينة أهدى إليه مالك أشياء من طرفـها، فبعـث إليـه ألف دينار، وكتب إليه مالك مرة يذكر أن عليه دينًا، فأرسل إليه خمسمائة دينار، وقـد وصلـه مرات كثيرة غير هذه[1].

ومع هذا كان الليث غزير العلم، واسع المعرفة، محدثًا ثقة، يجيد النحو والعربية، قال عنه أحمد بن حنبل: ما في هؤلاء المصريين أثبت من الليث.. ما أصح حديثه».

قال عنه الشافعي:

«الليث أفقه من مالك، إلا أن أصحابه لم يقوموا به».

وقد كانت تربط بين الإمامين الليث ومالك صلات من الود وثيقة، وقد تبودلت الرسائل بـين الرجلين لمناقشة كثير من المسائل الفقهية، وقد حفظت لنا الكتب التي تؤرخ للفقه رسـالتين مـن هذه الرسائل مرسلة من مالك إلى الليث يأخذ عليه فيها في أسلوب رقيق فتواه بأشياء تخـالف ما يسير عليه أهل المدينة، مع أن المسلمين - كما يقول مالك - تبع لأهلها، فهي دار الهجـرة، وفيها نزل معظم القرآن الكريم، وفي ختام الرسالة يرجـو مـالك أخـاه الليـث أن يراجـع نفسـه فيما كتب، وفيما أفتى، وأن يلتزم طريق أهل المدينة ويتبع منهجهم.

والرسـالة الثانية تتضمـن رد الليـث عـلى مـالك، وفيهـا يدافـع دفـاعًا قويًا ولبقًـا عـن رأيـه ومذهبه، والرسالتان في الواقع نموذج طيب لأدب الحواريين العلماء.

وكان الليث بعلمـه وكرمـه ذا شـخصية فـذة فـي المجتمـع المصرى، فكـان الأمـراء يجلونـه ويرجعون إلى رأيه دائمًا، وقد رشحه الخليفة أبو جعفر المنصور للقضاء فـاعتذر، فطلـب منـه أن يدله على من يصلح لتولى القضاء ففعل، قال ابن تغرى بردى.

«كان الليث كبير الديار المصرية ورئيسـها، وأمـير مـن بـها فـي عصـر، بحيـث أن القـاضي والنائب من تحت إمرته ومشورته، وكان الشافعي يأسف على فوات لقيه»[2].

ويدل على نفوذ الليث ما كتبه بعض الشانئين إلى الخليفة المنصور في حقه:

أمير المؤمنين تلاف مصرًا   فإن أميرها ليث بن سعد

وقال أشهب بن عبد العزيـز: «كـان لليـث أربعـة مجـالس فـي كـل يـوم: مجلـس لحوائـج السلطان، ومجلس لأصحاب الحديث، ومجلس لأصحاب المسـائل (أي الفتـوى فـي الحـلال أو الحرام)، ومجلس لحوائج الناس»[3].

---

(١) انظر: أحمد أمين: ضحى الإسلام، جـ ٢: ص ٨٨.

(٢) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، جـ ٢، ص ٨٢.

(٣) انظر أحمد أمين: ضحى الإسلام، جـ ٢، ص ٩٠.

وكان الليث كذلك أحد الأعلام الثقاة الذين روى عنهم ابن عبد الحكم فى كتابه «فتوح مصر»، والكندى فى كتابه «الولاة والقضاة»، مات سنة ١٧٥هـ، فحزن المصريون جميعًا لموته، قال واحد ممن شهدوا جنازته: «رأيت الناس كلهم عليهم الحزن، يعزى بعضهم بعضًا، فقلت لأبى: يا أبت، كأن كل واحد من هؤلاء صاحب الجنازة، فقال لى: يا بنى، كان عالمًا كريمًا حسن العقل، كثير الأفضال، يا بنى: لا ترى مثله أبدًا..».

وفى القرن الثانى للهجرة بدأت حركة تدوين الكتب وتأليفها فى مختلف ولايات الدولة الإسلامية بما فيها مصر، وكان على رأس القائمين بهذه الحركة فى مصر العالمان الكبيران عبد الله بن لهيعة، والليث بن سعد، يؤكد هذه الحقيقة الذهبى فى تاريخ الإسلام قال:

«وفى هذا العصر (أى القرن الثانى للهجرة) شرع علماء الإسلام فى تدوين الحديث والفقه والتفسير، وصنف ابن جريج التصانيف بمكة، وصنف سعيد بن أبى عروبة وحماد بن سلمة وغيرهما بالبصرة، وصنف أبو حنيفة الفقه والرأى بالكوفة، وصنف الأوزاعى بالشام، وصنف مالك الموطأ بالمدينة، وصنف ابن إسحاق المغازى، وصنف معمر باليمن، وصنف سفيان الثورى كتاب الجامع[1]، ثم بعد يسير صنف ابن هشام كتبه، وصنف الليث بن سعد وعبد الله بن لهيعة، ثم ابن المبارك والقاضى أبو يوسف يعقوب، وابن وهب، وكثر تبويب العلم وتدوينه، ورتبت كتب العربية واللغة والتاريخ وأيام الناس، وقبل هذا العصر كان سائر العلماء يتكلمون عن حفظهم ويروون العلم عن صحف صحيحة غير مرتبة، فسهل ولله الحمد تناول العلم، فأخذ الحفظ يتناقص، فلله الأمر كله».

وفى ذلك الوقت ظهر مذهبًا أبى حنيفة ومالك، فانحاز إلى كل مذهب فريق من المسلمين، وكذلك كان الحال فى مصر، فقد انقسم المصريون قسمين: قسم تبع مذهب أبى حنيفة، وقسم تبع مذهب مالك، وحدث بين أتباع المذهبين نزاع ونقاش وخصام، حتى وفد على مصر الشافعى، فرحب به المصريون، واستضافته أسرة من أكرم الأسر وأغناها وأعلمها فى الفسطاط، وهى أسرة بنى عبد الحكم، وقدمته هذه الأسرة للمجتمع المصرى، فأحبه المصريون لعروبته وقرشيته وعلمه وفصاحته.

وكون الشافعى لنفسه حلقة فى المسجد الجامع - مسجد عمرو بن العاص - وأقام فى مصر نحو خمس سنين كثر فيها تابعوه وتلاميذه، وأهمهم البويطى، والمزنى، والربيع المرادى، وزاد فيها نشاطه العلمى، فألف كتاب «الأم»، وشرح مذهبه من بعده تلميذاه: المزنى والبويطى فى كتابين هما: مختصر المزنى، ومختصر البويطى. ويصف ابن حجر نشاط الشافعى العلمى أثناء مقامه فى الفسطاط فيقول:

---

(١) أحمد أمين: ضحى الإسلام، جـ ٢، ص ٩٢.

«وكان (أى الشافعى) يجلس فى حلقته إذا صلى الصبح، فيجيئه أهل القرآن فيسألونه، فإذا طلعت الشمس قاموا، وجاء أهل الحديث فيسألونه عن معانيه وتفسيره، فإذا ارتفعت الشمس قاموا واستوت الحلقة للمناظرة والمذاكرة، فإذا ارتفع النهار تفرقوا وجاء أهل العربية والعروض والشعر والنحو حتى يقرب انتصاف النهار، ثم ينصرف إلى منزله».

وبانتشار المذهب الشافعى، أصبح المسلمون فى مصر شيعًا ثلاث، وكثر النزاع والخصام بين أتباع كل مذهب واتباع المذهب الآخر.

هذه هى الحركة العلمية الأولى فى الفسطاط اصطبغت بالصبغة الدينية، وعنيت بالقصص والأخبار والتاريخ، ولم تكن مقصورة على المسلمين من العرب الذين نزحوا إلى مصر، بل شارك فيها كثيرون من المصريين الأصليين الذين أسلموا. ومنهم عثمان بن سعيد المصرى المعروف بورش - مولى آل الزبير بن العوام - وكان من أصل قبطى، ونبغ فى قراءة القرآن، واشتهر بإحدى القراءات المنسوبة إليه، وانتهت إليه رياسة الإقراء بالديار المصرية فى زمانه «وكان ماهرًا فى العربية، مات عصر سنة ١٩٧هـ»[١]. كذلك جاء من بعده ذو النون المصرى الإخميمى النوبى الأصل «وهو أحد رؤوس الصوفية ومؤسسها فى الديار المصرية، توفى سنة ٢٤٥ هـ وقد قارب التسعين»[٢].

المدرسة التاريخية:

وقد تشعبت من هذه المدرسة الدينية الأولى مدرسة أخرى تعنى بالتاريخ وبالتاريخ المصرى خاصة، وكانت باكورة ما ألفت هذه المدرسة كتاب «فتوح مصر والمغرب والأندلس» لعبد الرحمن ابن عبد الحكم الذى يعتبر بحق أول مؤرخى مصر الإسلامية، ويليه كتاب «در السحابة فيمن دخل مصر من الصحابة» للربيع - تلميذ الشافعى -.

وكانت هذه المدرسة متأثرة فى أول أمرها بالمدرسة الدينية، فكانت تروى التاريخ روايتها للحديث، ثم أخذت تتحرر شيئًا فشيئًا من هذا الأثر، ونبغ من المؤرخين المصريين فى القرنين الثالث والرابع عدد كبير من بينهم:

١ - عمار بن وسيمة المصرى المتوفى سنة ٢٨٩هـ، وأحد تلاميذ الليث بن سعد، ذكره السيوطى فى «حسن المحاضرة»، وقال إنه ألف تاريخًا على السنين، وقد ضاع هذا التاريخ:

٢ - أبو سعيد عبد الرحمن بن أحمد بن يونس المصرى الحافظ المؤرخ، ولد سنة ٢٨١هـ وتوفى سنة ٣٤٧، وقال عنه مؤرخوه إنه كان إمامًا فى علم التاريخ، وله كلام فى الجرح

---

(١) السيوطى: حسن المحاضرة، ج ٢، ص ٢٢٤.

(٢) أحمد أمين: ضحى الإسلام، ج ٢، ص ٩٢.

والتعديل يدل على تبصره بالرجال، ألف كتابين فى تاريخ مصر، الأول - وهو الأكبر - يختص بأهل مصر، والثانى يختص بذكر الغرباء الوافدين على مصر، وله كتاب ثالث فى تاريخ الصعيد اسمه «العقيد فى تاريخ الصعيد» انفرد بذكره حاجى خليفة فى «كشف الظنون».

وكتب ابن يونس جميعًا مفقودة، وإن كان المؤرخون المتأخرون ينقلون عنه كثيرًا، وقد رثاه بعد موته الشاعر المصرى أبو عيسى عبد الرحمن بن إسماعيل الخشاب النحوى بأبيات طريفة منها البيت المشهور:

مازلن تلهج بالتاريخ تكتبه حتى رأيناك فى التاريخ مكتوبا.

وقال ابن كثير. «وله ولد يقال له أبو الحسن على، وكان منجمًا له زيج مفيد يرجع إليه أصحاب هذا الفن كما يرجع أصحاب الحديث إلى أقوال أبيه ومايؤرخه وينقله ويحكيه، وإن كان ابن خلكان يقول إن عبد الرحمن نفسه هو المنجم المشهور صاحب الزيج، وهذا وهم من ابن خلكان، والصحيح ما ذكره ابن كثير، وللابن ترجمات مختلفة خلاصتها أن الابن - أبا الحسن على - كان من خواص المقربين للخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله، وله كتاب «الزيج الكبير الحاكمى»، أتمه قبل وفاته سنة ٣٩٩هـ، وأنه كان مختصًا بعلم النجوم متصرفًا فى سائر العلوم، بارعًا فى الشعر، وله شعر كثير.

وقد نبغ من أسرة ابن يونس عدد كبير من العلماء، منهم عبد الرحمن المؤرخ؛ ومنهم ابنه العالم الفلكى أبو الحسن على، وكان جد عبد الرحمن من فقهاء مصر المعدودين، فهو أبو موسى يونس بن عبد الأعلى الفقيه المصرى صاحب الشافعى.

٣ - ابن الداية (أبو جعفر أحمد بن يوسف):

كان أحد كتاب بنى طولون المقربين إليهم، ومن الممكن أن نقول إنه كان المؤرخ الرسمى للأسرة، فقد ألف كتابًا فى «سيرة أحمد بن طولون» وكتابًا آخر فى سيرة ابنه «أبى الجيش خمارويه»، ويقول ابن زولاق: «وكان أبو جعفر أحمد بن يوسف بن إبراهيم الكاتب قد عمل سيرة أحمد بن طولون أمير مصر، وسيرة ابنه أبى الجيش، وأنشدا فى الناس، وقرأنهما عليه، وحدثت بهما عنه، مع غيرهما من مصنفاته، ثم عملت أنا ما فاته من سيرتهما» [1].

وواضح من كلام ابن زولاق أن ابن الداية كانت له كتب أخرى فى التاريخ، وقد أشارت المراجع الأخرى التى ترجمت له إلى عناوين هذه الكتب وهى: كتاب «أخبار غلمان بنى طولون»؛ وكتاب «حسن العقبى»، وكتاب «أخبار الأطباء» وكتاب «المكافأة»، وهذه الكتب للأسف قد فقدت ولم يصلنا منهما غير كتب ثلاثة هى: «سيرة أحمد بن طولون» و«المكافأة» و«حسن العقبى».

---

(١) المغرب لابن سعيد ، ص ٤.

٤ - البلوى (أبو محمد عبد الله بن محمد المدينى):

وهو مؤرخ مصرى مجهول لم يعن أحد من قبل بالكتابة عنه، لا نعرف تاريخ مولده أو وفاته، ولكنا نعرف أنه ينتمى إلى قبيلة بلى العربية، وأنه عاش فى القرن الرابع الهجرى (١٠م). كان ابن النديم أول من ترجم له فى كتابه «الفهرست»، فذكر أنه كان عالمًا وفقيهًا وواعظًا، وأنه ألف كتبًا كثيرة منها: كتاب الأبواب، وكتاب المعرفة، وكتاب الدين وفرائضه. وقد فقدت هذه الكتب جميعًا، ولم يبق من مؤلفاته إلا كتابه «سيرة أحمد بن طولون» وحوالى سنة ١٩٣٥م كشف الأستاذ محمد كرد على عن نسخة خطية من هذا الكتاب فى المكتبة الظاهرة بدمشق، ونشرها نشرة علمية دقيقة، مع مقدمة وتعليقات مفيدة.

ويعتبر هذا الكتاب من أهم المراجع لدراسة تاريخ أحمد بن طولون بل ولدراسة تاريخ مصر والشرق الأدنى الإسلامى فى النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى (٩م)، فهو أكثر تفصيلا من المراجع الأخرى التى وصلتنا عن هذه الحقبة من الزمن.

٥ - الكندى (أبو عمر محمد بن يوسف):

من مؤلفى القرن الرابع الهجرى، فقد ولد سنة ٢٨٣هـ وتوفى سنة ٣٥٠هـ، ويمثل مرحلة النضوج فى المدرسة التاريخية المصرية فى العصر الإسلامى الأول، فمن كتبه يتضح أن التاريخ قد استقل بنفسه كعلم، فبعد عن علم الحديث، وتخفف من الإسناد إلى حد كبير، وقعدت له قواعده، واتخذت له مناهجه، واتجه المؤرخون المصريون فى تأليفهم إلى فنون خاصة بهم انفردوا بها عن بقية المدارس التاريخية فى أجزاء العالم الإسلامى الأخرى، وخاصة فن التأليف فى الخطط الذى بدأه ابن عبد الحكم، وسار على نهجه فيه الكندى.

وللكندى مؤلفات كثيرة منها كتاب «الخطط». وقد أشار المقريزى إلى أنه اعتمد عليه كثيرًا فى كتابه «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار»، وكتاب «مسجد أهل الراية»، وقد أرخ فيه للقواد والعلية من الموالى غير العرب الذين اشتركوا فى فتح مصر أو وفدوا عليها.

وقد ضاعت هذه الكتب جميعًا، ولم يصلنا من كتب الكندى إلا كتابه «الولاة والقضاة»، وهو أهم كتبه جميعا، وفيه يؤرخ لولاة مصر منذ عمرو بن العاص إلى أنوجور بن الإخشيد، ولقضاة مصر فى نفس الحقبة.

والكتاب فى الحقيقة مصدر هام جدًا لكل من يريد التأريخ لمصر فى العصر الإسلامى الأول، وقد اعتمد عليه ونقل عنه كل المؤرخين اللاحقين.

٦ - الحسن بن زولاق:

من مؤرخى القرن الرابع كذلك، فقد ولد سنة ٣٠٦هـ وتوفى سنة ٣٨٧هـ، وهو من تلاميذ ابن الداية وأبى عمر الكندى، قرأ عليهما وأخذ عنهما، وتأثر بهما كثيرًا، وكان تأثره بالكندى أكبر وأوضح.

كان ابن زولاق مؤرخًا مخضرمًا، فقد عاصر الدولة الإخشيدية، وأدرك أوائل الدولة الفاطمية، وقد تأثر بأستاذه ابن الداية فى كتابه «السير» فألف عددًا كبيرًا من الكتب فى هذا الفن، منها: سيرة الإخشيد، وسيرة كافور، وسيرة جوهر، وسيرة المعز، وسيرة العزيز، سيرة الماذرائيين وزراء الاخشيديين، كما ألف سيرة خاصة لصديقه وزميله فى الدراسة سبيويه المصرى - وهو عالم نحوى عاش فى الفسطاط فى أواخر العصر الإخشيدى وأصابته فى أواخر أيامه لوثة من الجنون.

أما تأثر ابن زولاق بأستاذه الكندى فيتضح فى تأليفه فى نفس الموضوعات التى طرقها من قبله الكندى، فقد ألف فى فضائل مصر وخططها، كما ألف ذيلاً لكتاب ولاة مصر وقضائها الكندى.

ولم يصلنا من كتب ابن زولاق إلا «سيرة سيبويه المصرى»؛ وذيله على كتاب القضاة (وقد نشره جست ملحقًا بكتاب القضاة للكندى)، أما كتبه الأخرى فقد ضاعت، وإن كان المؤرخون اللاحقون قد نقلوا عنها كثيرًا، وخاصة المقريزى، ففى كتابيه «اتعاظ الحنفا» و«الخطط» مقتبسات كثيرة عن «سيرة المعز لدين الله» و«سيرة الماذرائيين».

هؤلاء هم أقطاب المدرسة التاريخية فى فجر مصر الإسلامية، وقد أشاعوا نشاطًا كبيرًا فى حركة التأليف التاريخى، وقد شارك فى هذا النشاط وتأثره به وأثر فيه عدد آخر من كبار المؤرخين المسلمين الذين وفدوا على مصر فى هذه الفترة، فقد وفد عليها فى أواخر القرن الثانى للهجرة أبو محمد عبد الملك بن هشام صاحب السيرة النبوية المشهورة باسمه، وأقام بمصر إلى ان توفى سنة ٢١٣هـ، وقد تأثر كتابه السيرة بمصر وعلمائها فنراه يروى أحيانًا عن ابن لهيعة وغيره. وزار مصر مرتين المؤرخ الكبير ابن جرير الطبرى ونقل عن محدثيها ومؤرخيها، كما زارها المسعودى وكتب الفصول القيمة عن تاريخها فى كتابيه «مروج الذهب» و«أخبار الزمان».

واضح أن هذه الحركة العلمية الأولى كانت مقصورة على الفسطاط والإسكندرية، وهما مركز القوات العربية الإسلامية الأولى، يقول المقريزى: «إن الديار المصرية لما افتتحها المسلمون كانت خاصة بالقبط والروم، مشحونة بهم، ونزل الصحابة - رضى الله عنهم - من أرض مصر موضع الفسطاط الذى يعرف الآن بمدينة مصر، وبالإسكندرية، وتركوا سائر قرى مصر بأيدى القبط، ولم يسكن أحد من المسلمين بالقرى، وإنما كانت رابطة تخرج إلى الصعيد، حتى إذا جاء أوان الربيع انتشر الأتباع فى القرى لرعى الدواب ومعهم طوائف من السادات.. ولم ينتشر المسلمون بالنواحى إلا بعد عصر الصحابة والتابعين، ولم يؤسسوا فى القرى والنواحى مساجد.. فلما أوقع المأمون بالقبط (بعد ثورتهم سنة ٢١٦هـ) غلب المسلمون على أماكنهم من القرى».

المدرسة الأدبية:

ولم تلبث هذه الدراسات الدينية التاريخية أن أنتجت نوعًا جديدًا من الدراسات الأدبية، وبدأت هذه الدراسات ضعيفة أول الأمر، ثم نمت وقويت وازدهرت، وساعد على نموها وازدهارها عوامل كثيرة، أهمها:

١ - عناية هؤلاء العلماء والفقهاء بدراسة الأدب ورواية الشعر، إذ كان الكثيرون منهم شعراء، كالإمام الشافعى مثلاً، فإن الكتب التى ترجمت له تروى الكثير من شعره.

٢ - تشجيع كثير من الولاة والأمراء للأدباء والشعراء، فوفد على مصر فى العصر الأول كثيرون من كبار شعراء العرب، منهم جميل بثينة - ويقال إنه مات بمصر - وكثير عزة، وعبد الله بن قيس الرقيات، وكذلك وفد عليها فى العصر العباسى أبو نواس، والمتنبى، وفى صحن المسجد العتيق وبين حلقاته العلمية نشأ الشاعر الكبير أبو تمام، فقد كان يسقى الماء فى الجامع ويتلقى العلم على شيوخه..

وكتب العصريين الطولونى والإخشيدى تذكر كيف أجزل حكام هاتين الدولتين العطاء للأدباء والشعراء، يقول النابلسى فى كتابه: «حسن السيرة فى اتخاذ الحصن بالجزيرة»: «رأيت كتابًا قدر أثنتى عشرة كراسة مضمونة فهرست شعراء الميدان الذى لأحمد بن طولون.. فإذا كانت أسماء الشعراء فى ثننى عشرة كراسة كم يكون شعرهم؟..» (١).

ومن هذا القول يتضح كيف ازدهرت دولة الشعر فى عهد الطولونيين، وهذا أمر طبيعى فقد استقلت مصر فى هذا العهد ونعمت بانتشار الأمن والرخاء وأحست القوة والعزة، وعهود الاستقلال دائمًا عهود ازدهار للحضارة والعلوم والآداب.

ولم يعد المسجد العتيق - مسجد عمرو بن العاص - وحده مكان الدرس، بل تكونت حلقات كثيرة فى المساجد الأخرى التى أنشئت فى الفسطاط وضواحيها وخاصة جامع - ابن طولون، كما كانت تعقد مجالس أخرى تدور فيها المساجلات العلمية والأدبية فى سوق الوراقين (٢) بالفسطاط، وفى دور الوزراء، كدار الوزير أبى على الحسين بن محمد المادرائى(٣)، ودور الأمراء، كدار أبى القاسم أو نوجور (٤)، ودار كافور (٥) ، وفى دور الثراة (٦) من تجار الفسطاط أيضًا.

---

(١) ينقل هذا عنه المقريزى فى الخطط، ج ١ ، ص ١٢٤.
(٢) ابن زولاق: أخبار سيبويه المصرى، ص ١٨.
(٣) ابن زولاق: أخبار سيبويه المصرى، ص ٣٤.
(٤) نفس المرجع، ص ٣٦.
(٥) نفس المرجع، ص ٤١.
(٦) نفس المرجع، ص ١٩.

وقد زار مصر فى هذا العصر الأول من كبار شعراء العـرب، جذبـهم إليـها - فـى جملتـهم - طمع فى عطاء ولاتهـا، أو سعى وراء ثـراء وجـاه، ولهـذا كان معظـم شـعر هؤلاء إما مدحًا لمن قصدوه من ولاة، أو هجاء مقذعًا لهم إذا لم يحققـوا لهـم آمـالهم، ومـع هـذا فقد اتصـل هـؤلاء الشعراء بشعراء مصر، وقامت بين هؤلاء وأولئك مساجلات أدبية وشعرية كثيرة، وكان لمصر أثر جد واضح فى شعرهم الذى قالوه أثناء مقامهم فى مصر.

من هـؤلاء أبـو نـواس الـذى وفـد على مصر حوالى سنة ١٩٠هـ طامعًا فى عطـاء الخصيـب صاحب خراجها، ومدحه مدائح كثيرة كانت أولاها قصيدته التى يشير فيها بوضوح إلى الغرض من رحلته وهو طلب الغنى، وفيها يقول:

تقول التى عن بيتها خف مركبى   عزيز علينـــــا أن نـراك تسير
أمـا دون مصر للغـــنى متطلب ؟   بلى ، إن أسـباب الغـــنى لكثير
فقلت لهـــا ، واستعجلتهـا بوادر   جرت، فجـرى فى جريهن عبير
ذرينى أكـــــثر حاسديك برحلة   إلى بلد فيـــــــه الخصيب أمير

وقد كثرت قصائده فى هذا المعنى، ومن أشهرها قوله:

أنت الخصيب ، وهـــذه مصـــر،   فتـــدفقا ، فــــكلاكما بحـــر
لا تقعـــدا بى عن مـــدى أملى   شيئًا ، فمـــا لكمـــا به عـــذر
ويحـــق لى إذا صـــرت بينكما   ألا يـحـــــــل بساحتى فقـــر

وقد ذكر السيوطى أن أدباء مصر وشعراءها تسابقوا للاجتماع بأبى نـواس ومصاحبتـه وكتابـة شعره، وفى ديوان أبى نواس إشارات لبعض المساجلات الشعرية التى دارت بينه وبـين شـعراء مصر:

ومن الشـعراء الذيــن زاروا مصر الشاعر الهجاء دعبل الخزاعى، جاءها طامعًا فى نـوال وال آخر مـن ولاة مصر هو المطلـب بـن عبد الله الخزاعى - وكان قريبًا له - ومدحـه أولاً بقصيدتـه التى مطلعها:

أبعد مصـــر وبعـــــد مطلب   ترجو الغنى، إن ذا من العجب

وقد ولاه المطلب إقليم أسوان، فأقام به أيامًا ولكنه لم يرض عن مقامه بـه، فقـد كـان يطمـع فيما هو أحسن، فهجاه، واضطر المطلب أن يعزله.

وكان ثالث الشعراء الطامعين فى غنى مصر وعطاء ولاتهما الشاعر الكبير المتنبـى، وقـد أثـار مجيئه إلى مصر نشاطًا أدبيًا كبيرًا فى الفسطاط، وشعره فى مـدح كـافور وهجائـه أشـهر مـن أن

يذكر، وقد انتقد شعره بعض أدباء الفسطاط، يقول ابن زولاق فى كتابه «أخبار سيبويه المصرى».

لما كان يومًا من الأيام، اجتاز المتنبى بمسجد ابن عمروس وسيبويه على المسجد، فقيل هذا سيبويه، فوقف عليه وقال: أيها الشيخ قد كنت أحب أن أراك، فقال له: رعاك الله وأبقاك وأراك محابك ، فقال له (المتنبى): بغنى أنك أنكرت قولى:

ومن نكد الدنيا على الحرّ أن يرى   عدوا له مـــا مـن صداقته بــد

فما كان الصواب عندك؟.

فقال له: العداوة ضد الصداقة، ولكن لو قلت:

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى   عدوا له مـا مـن مـداراته بـد

وهذا رجل منا قد قال:

أتانى فى قميص اللاذ[1] يسعى   عـدو لـن يلقب بالحـبيب

فقال له المتنبى: مع هذا غيره؟.

فقال نعم:

فقلت له متى استعملت هـذا ؟   لقـد أقبلت فـى زى عجيب
فقال: الشمس أهـدت لى قميصا   مليح اللـون من شفق الغروب
فثوبى والمـدام ولـون خـدى   قريب مـن قريب مـن قريب

فتبسم المتنبى وانصرف، وسيبويه يصيح ويقول: انبكم [2].

وفى أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع الهجرى، كانت فى الفسطاط نخبة من العلماء والأدباء والشعراء والمؤرخين، وكان لهم نشاط ملحوظ فى البحث والمساجلة والتدريس والتأليف، منهم: أبو القاسم بن قديد، وتلميذه أبو عمر الكندى - المؤرخ - وأبو جعفر النحاس المصرى الشاعر الكاتب، وأبو بكر محمد بن موسى الملقب بسيبويه المصرى، والحسن بن زولاق إلخ، وكتاب ابن زولاق «أخبار سيبويه المصرى» مفعم بالمساجلات الأدبية والعلمية التى كانت تدور بين أفراد هذه الجماعة الممتازة فى صحن المسجد الجامع أو منازل الوزراء والكبراء والخاصة.

وقد وفد على مصر فى أواخر القرن الرابع الجغرافى والرحالة العربى المقدسى، ووصف فى كتابه «أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم» نشاط الحياة العلمية فى مساجد الفسطاط، قال:

---

(١) اللاذة ثوب حرير أحمر صينى، وجمعها لاذ.
(٢) أخبار سيبويه المصرى، ص ٤٥.

«وبين العشائين جامعهم مغتص بحلق الفقهاء وأئمة القراء، وأهـل الأدب والحكمـة، دخلتـه مع جماعة من المقادسـة، فربمـا جلسـنا نتحدث فنسمع النداء مـن الوجـهين: دوروا وجوهكم إلى المجلس، فننظر فإذا نحن بين مجلسـين، علـى هـذا جميـع المسـاجد، وعددنـا فيـه مائـة وعشرة مجالس، فإذا صلوا العشـاء أقـام البعض إلى ثلث،.. ولا ترى أجمل من مجـالس القـراء به..» [1]

المدرسة العلمية:

وقد نشأت فى مصر إلى جانب هذه الحياة الدينية الأدبية حياة علمية خالصة هى فى الواقع استمرار للحياة العلمية التى كانت قائمة فى مصر فى العصور القديمة، وكانت أنشـط مـا تكـون فى الإسكندرية، وقد عنيت هذه الحركة العلمية بعلوم الهندسة والطب والفلك والتنجيم.. إلخ، ونقلت الكتب القديمة عن القبطية واليونانية والسريانية، فكان معظم المشتغلين بها من النصارى واليهود، ثم انضم إليهم بعد قليل المسلمون الذين نبغوا فى هذه العلوم.

ومما يؤيد استمرار نشاط الحركة العلمية فى الإسكندرية بعد الفتح العربى ما ذكره ابن النديم فى الفهرست من أن الأمير خالد بن يزيد بن معاوية عندما أراد أن يتعلم الكيمياء أمر باسـتدعاء جماعة من الفلاسفة اليونانيين الذين كانوا يقيمون فى الإسكندرية، وأمرهم بنقل كتـب الصنعـة (أو الكيمياء) من اللغتين القبطية واليونانية إلى اللغة العربية، وكان هذا أول نقل إلى العربية فـى الإسلام..

وذكر ابن أبى أصيبعة فى كتابه «طبقات الأطباء» أنه كان يوجد فى الإسكندرية فـى العصـر الإسلامى الأول طبيب إسمه ابن أبجر وكان يدرس بها، وكان عمر بن عبد العزيز يعتمد عليـه فى صناعة الطب حين كان أمير أو بعد أن أصبح خليفة.

ويتحدث نفس المؤلف عن طبيب مصرى شهير اسمه «بليطيان» ويقول أنه كان عالمًا بشـريعة المالكية، وقد دعاه الرشيد ليعالج إحدى جواريه - وكانت مصرية - فشفيت بعد علاجـه لهـا، فوصله الرشيد بعطايا كثيرة، وكتب لـه منشورًا بـرد الكنـائس التـى أخذهـا اليعاقبـة، وتوفـى بليطيان سنة ١٨٦هـ.

وقد ازدهرت هذه الحركة فى عصر بنى طولون لتشجيعهم العلماء وعنايـة أحمـد بـن طولـون بالحالة الصحية فى مصر، فقد أنشأ فيها أول بيمارستان أنشىء فى مصر الإسلامية، ونبغ فـى عهده عدد من الأطباء المسيحيين والمسلمين، أشار إلى بعضهم البلوى، منهم الحسن بـن زيـرك، وكبير أطبائه سعيد بن توفيل[2].

---

(١) المقدسى . أحسن التقاسيم ، ص ٢٠٥.

(٢) البلوى: سيرة أحمد بن طولون ، ص ٣١٩ - ٣٢٥.

وتثبت المنشآت العمرانية الكثيرة التى أقامها أحمد بن طولون وابنه خمارويه مدى ما وصل إليه المهندسون فى الفسطاط والقطائع من تقدم علمى، وقد أشارت المراجع إلى المهندس الذى أشرف على بناء المنشآت الهامة التى أقامها أحمد بن طولون، وهى السقاية والعين والمسجد، واسمه سعيد بن كاتب الفرغانى، وذكر المقريزى أن ابن طولون غضب عليه مرة فسجنه، فلما أراد بناء مسجده قيل له إنه يحتاج إلى ثلاثمائة عمود، وتعذر الحصول على هذا العدد الكبير من الأعمدة، وبلغ هذا الخبر المهندس فى سجنه، فأرسل إليه من سجنه يقول: أنا أبنيه بلاعمد سوى عمودى القبلة، فاستدعاه ابن طولون، وعرض عليه سعيد مخطط المسجد كما صممه، فرضى عنه وكلفه ببناء المسجد فبناه [١].

وفى العصر الفاطمى والأيوبى تم ازدهار هذه الحياة العلمية فأينعت وأثمرت، وأصبحت الفسطاط مركز حركة علمية واسعة النطاق، وظهر فيها كثيرون من العلماء المصريين، كما وفد على مصر علماء وأطباء من مختلف بلاد العالم الإسلامى، مشرقة ومغربه.

ففى عصر الخليفة الحاكم نبغ طبيب يهودى مصرى شهر باسم «الحقير النافع»، ويروى القفطى أنه سمى بهذا الاسم لأنه كان جراحًا خاملاً، فأصيب الخليفة الحاكم بجرح خطير، وظل مدة طويلة دون أن يبرأ، رغم أن ابن مقشر وغيره من أطباء الخاص كانوا يبذلون الجهد لعلاجه، ثم أحضر له هذا الطبيب فشفى الجرح فى ثلاثة أيام، فأنعم عليه الحاكم بألف دينار، وخلع عليه وضمه إلى أطباء الخاص، ولقبه بهذا اللقب الذى شهر به «الحقير النافع».[٢] .

ونبغ فى الفسطاط فى عصر الحاكم كذلك على بن عبد الرحمن بن يونس بن عبد الأعلى المصرى المنجم - وقد أشرنا من قبل إلى والده المؤرخ - يقول القفطى فى ترجمته له: «كان والده عبد الرحمن بن يونس محدث مصر ومؤرخها، وأحد العلماء المشهورين بها وجده يونس بن عبد الأعلى صاحب الشافعى».[٣] . وقد اشتغل على بن عبد الرحمن بن يونس بعلم الفلك والتنجيم علمًا وعملاً، وكان من المقربين للخليفة الحاكم.

وقد سبق ابن يونس العالم الإيطالى غاليليو إلى اختراع الرقاص (بندول الساعة)، يقول بهذا الأستاذ قدرى حافظ طوقان فى كتابه «العلوم عند العرب» معتمدًا على أقوال كثير من الباحثين الأوروبين الذين ألفوا فى تاريخ العلم فقد قال فى ص ١٤٢: «يعتقد الكثيرون أن الرقاص (بندول الساعة) من مخترعات العالم الإيطالى الشهير «غاليليو» وأن هذا العالم أول من استطاع أن يستعمله ويستفيد منه وهؤلاء الكثيرون قد يستغربون إذا قيل لهم إن هذا غير صحيح، وأن

---

(١) انظر: أحمد تيمور: أعلام المهندسين فى الإسلام، ص ٢٤.

(٢) القفطى: إخبار العلماء بأخبار الحكماء ص ١٢٢ - ١٢٣.

(٣) نفس المرجع، ص ١٥٥.

الفضل فى اختراعه إلى عالم عربى مسلم، عاش فى مصر وعاش على ضفاف النيل، وقد سبق غيره فى استعماله فى الساعات الدقاقة، وبذلك يكون غاليليو مسبوقًا فى هذا الاختراع بستة قرون.

ويعتبر أبو سعيد عبد الرحمن بن يونس من فحول علماء القرن الخامس الهجرى (١١م) وأعظم فلكى ظهر فى تاريخ مصر الإسلامية، وقد عرف الخلفاء الفاطميون قدره فأجزلوا له العطاء وشجعوه وبنوا له مرصدًا خاصًا جنوبى الفسطاط يقوم فيه برصد الكواكب وإجراء بحوثه، وقد سجل نتائج بحوثه فى الزيج الذى وضعه بأمر من الخليفة العزيز وأئمة فى عهد خلفه، ولذلك نسب إليه وعرف بـ «الزيج الحاكمى»، وقد نشر العالم الفرنسى كوسان Caussin الأجزاء الباقية من هذا الزيج مع ترجمة فرنسية.

وفى عهد الحاكم كذلك وفد على مصر الحسن بن الهيثم المهندس والعالم الإسلامى الرياضى الكبير، وهو «صاحب التصانيف والتآليف المذكورة فى علم الهندسة، وكان عالمًا بهذا الشأن متقنًا له، متفننًا فيه، قيمًا بغوامضه ومعانيه، مشاركًا فى علوم الأوائل، أخذ الناس عنه واستفادوا منه» [١].

وقد نقل عنه مرة أنه قال: «لو كنت بمصر لعملت فى نيلها عملاً يحصل به النفع فى كل حالة من حالاته من زيادة ونقص» [٢]، وعلم الخليفة الحاكم بما قال، وكان يميل إلى هذا النوع من الأبحاث العلمية، واشتغل هو نفسه بعلوم الحكمة والفلسفة والتنجيم، فأرسل إليه مالا ورغبة فى الحضور إلى مصر، فلما حضر إليها خرج للقائه بنفسه خارج القاهرة، وزوده بما طلب من مال وعمال مساعدين، وتنقل ابن الهيثم فى مصر حتى وصل إلى جنادل أسوان، ولكن يبدو أنه لم يوفق لتنفيذ مشروعه، فخشى بأس الحاكم - وكان متقلبًا شديد البأس - فادعى الجنون وحجز فى منزله، وظل على ذلك إلى أن قتل الحاكم، فأظهر العقل ثانية وخرج من داره ، غير أنه أقام بقية حياته متنسكًا فى الجامع الأزهر حتى مات سنة ٤٣٠ هجرية تقريبًا، وله مؤلفات كثيرة فى مختلف فروع علوم الرياضة وفى الفلك والفلسفة والطب [٣] .. إلخ.

---

(١) القفطى، نفس المرجع، ص ١١٤.
(٢) القفطى ، نفس المرجع، ص ١٢٤.
(٣) نفس المرجع، ص ١١٤ - ١١٦.

الباب الخامس

علاقات مصر بالخلافة

١ - الفتنة الكبرى .

٢ - ثورة عبد الله بن الزبير .

٣ - موقف المصريين من مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية .

٤ - الدعوة لبنى الحسن إبان ولاية يزيد بن حاتم على مصر .

٥ - الموقف أثناء النزاع بين الأمين والمأمون .

٦ - العلاقات بين مصر والخلافة العباسية فى عهد الطولونين .

٧ - الإخشيد والخلافة العباسية .

علاقات مصر بالخلافة

فتحت مصر فى عهد عمر بن الخطاب ، ومنذ ذلك الحين أصبحت ولاية من الولايات الخاضعة للخلافة الإسلامية ، غير أن مصر كانت تمتاز عن الولايات الأخرى بمركزها الجغرافى وثروتها وتاريخها وحضاراتها القديمة ، ولهذا لم تقف من الخلافة موقفًا سلبيًا ، بل شاركت مشاركة فعلية فى جميع الأحداث السياسية التى خضعت لها الخلافة الإسلامية - فى المدينة ، أو الكوفة ، أو دمشق - أو بغداد - وكان لاشتراكها أثر واضح فى النتائج التى انتهت إليها هذه الأحداث . وسنحاول فيما يلى أن نعرض لهذه الأحداث وللدور الذى لعبته مصر إبان حدوثها :

١ - الفتنة التى انتهت بقتل عثمان :

اتجه عثمان فى خلافته إلى تفضيل ذوى قرباه ، واستعمالهم على الولايات المختلفة، مما أثار غضب المسلمين ، فكثر النقد ، وأخذ أنصار على ومؤيدوه يعملون لتحويل الخلافة من عثمان إليه .

وكان على رأس الساخطين على سياسة عثمان الناقمين عليها وعلى معاوية - عامله على الشام - أبو ذر الغفارى ، وهو صحابى ومحدث جليل عرف بالزهد والورع والتقوى ، ولهذا راعه ما كان يراه من تكالب عمال الولايات من أقرباء عثمان وبعض كبار المسلمين على اقتناء العقار وادخار المال .

وظهر فى ذلك الحين أيضًا رجل من سكان اليمن اسمه عبد الله بن سبأ ، كان يهوديًا ثم أسلم. ويقال إنه تظاهر بالإسلام ليعمل على تقويض أركانه والتفرقة بين أتباعه. فقد ارتحل بعد إسلامه إلى أمصار الدولة الإسلامية، فزار الحجاز، وتركها إلى العراق فمر بالبصرة والكوفة ، ثم سافر إلى الشام ومصر، وكان فى كل هذه الولايات يثير الشكوك نحو سياسة عثمان ، ولم يجد أذنا تصغى إليه كما أصغى إليه أبو ذر عندما قابله فى الشام، فقد شكا إليه معاوية وسياسته فقال: (يا أبا ذر : ألا تعجب إلى معاوية يقول : المال مال الله ، ألا إن كل شىء لله، كأنه يريد أن يحتجبه دون المسلمين ويمحو اسم المسلمين من ديوان العطاء) .

وهكذا ظل ابن سبأ يوغر أبى ذر ويحرضه ، وأبو ذر رجل طيب القلب ، متدين شديد الإيمان بتعاليم الإسلام ، فراح يحرض الفقراء ضد الأغنياء حتى استمعوا له ، والتفوا حوله ، وأخذوا يتحرشون بالأغنياء ، ويسيئون إليهم مما اضطرهم إلى الشكاية لمعاوية الذى رفع الأمر إلى عثمان .

بعث عثمان فطلب أبا ذر ، فلما وصلـه أمـره أن يقيـم فـى الربـذة – وهـى قريـة قريبـة مـن المدينة– ولكن أبا ذر لم يهدأ ، بل واصل حملاته ضد عثمان وسياسته إلى أن مات سنة ٣١هـ .

ويجب علينا أن نفرق بين الدوافع التى كانت تدفع كلاً من الرجلين إلى إثـارة الشعـور فـى العالم الإسلامى ضد عثمان ، فمن البديهى أن أبا ذر كان رجـلاً سـليم النيـة يريـد بالحـاكم أن يرجع دائمًا إلى تعاليم الإسلام ، وأن يتشبه فى سياسـته بالرسـول وكبـار الصحابـة فـى العـهد الأول . أما ابن سبأ فلم يكن سليم الغرض ، بل كانت له ولمؤيديه فى الولايات المختلفة أغراض سياسة ترمى إلى قلب نظام الحكم القائم ، وتفريق كلمة المسلمين ، وقد ساعدتهم الظروف علـى تحقيق بغيتهم ، كما ساعدتهم الأخطاء الى وسمت بها سياسة عثمان ، والتى غالوا فى وصفـها وتقدير خطورتها.

دخل ابن سبأ – بعد تركه الحجاز – إلى البصرة ثم إلى الكوفة حيث وجد الناس ناقمين على ولاة عثمان لاشتطاطهم فى جمع الضرائب ، فاتصل بالثائرين هنـاك وعقـد معـهم الاجتماعـات الكثيرة وهو يزيد نار سخطهم اضطرامًا ، حتى لعن عثمان على ملأ من الناس.

ثم طرد ابن سبأ من المدينتين ، فذهب إلىالشام ، ولكنه لم يجد أحدًا يستمع إليه هناك غير أبى ذر، فالشام شيعة معاوية وأنصاره قـد اصطنعـهم بحسـن سياسـته ، ولهـذا تـرك الشـام إلى مصر.

وقد ساعد ابن سبأ على نشر دعوته فى مصر ثلاثة من كبار الصحابة كـانت نفوسـهم مـلأى بالسخط على عثمان وولاته وسياسته .

أما أولهم فهو محمد بن أبى حذيفة ، وكان هذا الرجل قد تربى فى كنف عثمـان بعـد وفـاة أبيه ، فلما ولى عثمان الخلافة طلب ابن أبى حذيفة أن يلى بعض أمور المسلمين، فرفض عثمان ما طلب ، فقد وصله أنه يشـرب الخمـر فقـال لـه: (لـو كنـت رضيًـا لوليتـك ، ولكنـك لسـت هناك)[1] .

ثم اشترك محمد بن أبى حذيفة بعد ذلك مع عبد الله بن سعد بن أبى السرح – عامل عثمان على مصر – فى موقعة ذات الصوارى (٣١هـ / ٦٥١م) التى كانت بين المسلمين والبـيزنطيين ، وفى هذه الموقعة حدث بين الرجلين خلاف شكلى ملخصـه: أن ابـن أبـى حذيفـة رفـع صوتـه بالتكبير وهو يصلى العصر بالناس، فهناه ابن أبى السرح عن ذلك ، فلما كـانت صلاة المغـرب عاد ابن أبى حذيفة فرفع صوته بالتكبير ، فنهره ابن أبى السـرح ، وهـم بطـرده مـن جيشـه، فأسرها فى نفسه، ولما انتهت الموقعة عاد إلى الفسـطاط، وانضـم إلى ابـن سـبأ فـى دعوتـه ضـد

---

(١) الفاطميون فى مصر ، ص ١٨ .

عثمان أولاً ولعلى ثانيًا، وقد افتن ابن أبى حذيفة فى إثارة الشعور ضد عثمان وولاته ، فكان كما يقول الكندى: (يكتب الكتب على ألسنة أزواج النبى صلى الله عليه وسلم، ثم يأخذ الرواحل فيضمرها، ثم يأخذ الرجال الذين يريد أن يبعث بذلك معهم ، فيجعلهم على ظهور البيوت فيستقبلون بوجوههم الشمس لتلوحهم تلويح المسافر ، ثم يأمرهم أن يخرجوا إلى طريق المدينة بمصر ، ثم يرسلون رسلاً يخبرون بهم الناس ليلقوهم. وقد أمرهم إذا لقيهم الناس أن يقولوا: ليس عندنا خبز، الخبز فى الكتب . ثم يخرج محمد بن أبى حذيفة والناس كأنه يتلقى رسل أزواج النبى – صلى الله عليه وسلم – فإذا لقوهم قالوا: لا خبر عندنا عليكم بالمسجد، فيقرأ عليهم كتب أزواج النبى، فيجتمع الناس فى المسجد اجتماعًا ليس فيه تقصير، ثم يقوم القارئ بالكتاب فيقول: إنا لنشكو إلى الله وإليكم ما عمل فى الإسلام وما صنع فى الإسلام. فيقوم أولئك الشيوخ من نواحى المسجد بالبكاء ..)[1] .

وصلت هذه الأخبار إلى عثمان ، فحاول أن يصلح بينه وبين حذيفة فأرسل إليه كسوة وثلاثين ألف درهم ، ولكن ابن أبى حذيفة كان رجلاً موتورًا ، فاشتد فى اللجاج، وانتهز فرصة هذه الهدية ليرتفع فى أعين الناس وليزيدهم كرها فى عثمان ، فأظهر الهدية للناس فى المسجد وخاطبهم قائلاً:

(يا معشر المسلمين ، ألا ترون أن عثمان يخادعنى دينى ويرشدنى ؟)[2] .

وحاول عثمان محاولة ثانية ، فبعث إلى مصر سعد بن أبى وقاص لينظر فى أمر ابن أبى حذيفة والخارجين معه عله يرضيهم ، وسمع ابن أبى حذيفة بمقدمه، فخطب الناس وقال: (ألا إن الكذاب كذا وكذا قد بعث إليكم سعد بن مالك ليفل جماعتكم ويشتت كلمتكم ويوقع التخاذل فيكم فانفروا إليه)[3] . وخرج معه نحو مائة رجل فوجدوا ابن أبى وقاص مقبلاً فى فسطاطه ، فقلبوه عليه وشجوه وسبوه ، فركب راحلته وعاد من حيث أتى .

أما ثانى هؤلاء الثلاثة ابن أبى بكر ، فقد دفعه إلى الانضمام لشيعة على ما كان بينه وبين على من ناحية، وبين الحسين بن على من ناحية أخرى من صلة النسب ، وذلك أن عليًا قد تزوج بأسماء بنت عميس أم محمد بن أبى بكر بعد وفاة الصديق، وكذلك كان محمد والحسين زوجين لابنتى يزدجرد الثالث آخر ملوك بنى ساسان من الفرس.

---

(١) الكندى : ١٤ –١٥ . وقد وردت هذه الرواية أيضًا فى المقريزى. الخطط ١٤٧/٤ مع اختلاف يسير فى بعض الألفاظ.

(٢) حسن إبراهيم : الفاطميون فى مصر ، ص ١٩ .

(٣) الكندى . ص ١٦.

وأما ثالثهما وهو عمار بن ياسر ، فقد وفد على مصر رسولاً من قبل عثمان لدراسة الحالة والبحث فى أسباب تذمر الناس ، ولكن ابن سبأ وشيعته استمالوا عمارًا ، فانضم إليهم ولم يعد، وقد يكون السبب فى ذلك أن عثمان كان قد أدب عمارًا - وهو الصحابى الجليل - لقذف بدر منه فى حق عباس بن عتبة بن أبى لهب .

وعندما اشتدت الثورة فى الولايات ضد عثمان ذهبت وفود مختلفة إلى المدينة لتقديم الشكوى إلى الخليفة نفسه . وكلنا نعرف الدور الخطير الذى لعبه وفد مصر فى الشكاية لعثمان ثم فى الثورة ضده وحصاره فى بيته إلى انتهى الأمر بقتله .

وكان عبد الله بن سعد بن أبى السرح هو والى مصر عندما بدأت الشكوى ضد عثمان، فخرج منها إلى المدينة لمقابلة عثمان، واستخلف على مصر عقبة بن عامر الجهنى . فلما اشتدت الثورة فى مصر، خرج الأمر من يد عقبة وأصبح فى يد محمد بن أبى حذيفة، ثم عاد عبد الله بن سعد إلى مصر بعد قليل، فلما وصل القلزم خرجت عليه جنود ابن أبى حذيفة ومنعوه من الدخول إلى مصر، فانصرف عنها إلى عسقلان فى الشام، وهناك سمع بمقتل عثمان .

٢ - ثورة عبد الله بن الزبير :

وفى خلافة يزيد بن معاوية ثار عبد الله بن الزبير فى الحجاز وطلب الخلافة لنفسه، وأيده فى موقفه جماعة من أهل مصر، وأرسلوا إليه وفدًا منهم يسأله أن يبعث إليهم بأمير، يقومون معه ويؤازرونه)[1] ، فبعث إليهم ابن الزبير بعبد الرحمن بن جحدم واليًا، فقدم إليها فى طائفة من الخوارج، فوثبوا على والى مصر من قبل يزيد - وهو سعيد بن يزيد بن علقمة - وعزلوه ، وفى هذه الأثناء توفى يزيد بن معاوية وولى الخلافة مروان بن الحكم، فخرج إلى مصر فى جيش من أهل الشام ، واستعد عبد الرحمن بن جحدم وحفر خندقًا حول الفسطاط ليدافع عن المدينة من ورائه ، وبعد أن طالت الحرب بين الفريقين شهورًا سعى فى الصلح بينهما ، ودخل مروان مصر فى أول جمادى الأولى سنة ٦٥هـ، وعزل ابن جحدم بعد أن حكم مصر تسعة أشهر، ووليها من بعده عبد العزيز بن مروان من قبل أبيه .

٣ - موقف المصريين من مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية :

ولما هزم مروان بن محمد أمام جيوش العباسيين ، عزم على الفرار إلى مصر. ولكن جند مصر أجمعوا على منعه إن هو سار إليها[2] وأتى مروان ، فاستمال إليه أهل الحوف الشرقى وسودهم واستعان بهم. وثارت ضده فتن فى بعض بلاد مصر كرشيد والكربون فأخضعها، ثم تبعته جيوش العباسيين بقيادة صالح بن على العباسى ، وتتبعه حتى قتل فى بوصير سنة ١٣٢هـ.

---

(١) الكندى : ص ٤٢.

(٢) الكندى : ص ٤٢.

٤ - الدعوة لبنى الحسن :

وفى ولاية يزيد بن حاتم على مصر (١٤٤هـ - ١٥٢هـ) من قبل أبى جعفـر المنصـور ظـهرت فى مصر الدعوة لبنى الحسن بن على ، وبايع الناس عليًا بن محمد بن عبد الله بن الحسن بـن عبد الله بن الحسن بن على، وأحكم أنصاره المؤامرة، وسطوا على بيت المال فـى مسجد عمـرو فى الليل ، غير أن رجلاً منهم أبلغ الوالى خبرهم ، فأرسل إليــهم بـالجند، فقبضـوا علـى نفـر منهم واختفى البعض الآخر . أما على بن محمد صاحب الدعوة ، فاختلف الـرأى فيـه، فقيـل إنه حمل إلى أبى جعفر، وقيل إنه اختفى حتى مات فى عهد المهدى .

٥ - الموقف أثناء النزاع بين الأمين والمأمون :

ولما قام النزاع بين الأمين والمأمون ، اختلف الناس والجند فى مصر وتكلموا فى خلع الأمـين وتولية المأمون (وكتب المأمون إلى أشراف أهـل مصـر يدعوهـم إلى القيـام بدعوتـه فكلـهم أجـابوا سرًا)[١]. وكان عباد بن محمد بن حيان هو داعية المأمون فى مصر ، فجمع الجنـد فـى المسـجد الجامع ودعاهم إلى خلع الأمين ، فأجابوه وبايعوا المأمون فى الثامن مـن رجـب سـنة ١٩٦هـ . وأبعد جابر بن الأشعث والى مصر من قبل الأمين، ووليها عباد بـن محمـد بـن حيـان مـن قبـل المأمون.

وعلم الأمين بمـا حـدث ، فكتـب إلى ربيعـة بـن قيس الجرشـى - رئيـس القبـائل القيسـية بالحوف - بولايته على مصر ، وكتب إلى شـيوخ القبـائل النازلـة بـالحوف بمسـاعدة قيـس ، فأظهر أهل الحوف جميعا - يمنًا وقيسًا - الولاء لمحمد الأمين وساروا بقيادة ربيعة إلى الفسطاط فى آخر ربيع الآخـر سـنة ١٩٧هـ لمحاربـة أهلـها وجندهـا ، فخنـدق عبـاد علـى الفسـطاط، وحدثت معارك بين الفريقين كان النصر فيها لأنصار الأمـين، وقبـض علـى عبـاد ، وأرسـل إلى الأمين فقتله. وبعد قليل قتل الأمين ، وبويع للمأمون فى المحرم من سنة ١٩٨هـ، فتفـرق أهـل الحوف وهدأت الفتنة . وولى على مصر المطلب بن عبد الله من قبل المأمون .

٦ - العلاقة بين مصر والخلافة العباسية فى عهد الطولونيين :

ولى أحمـد بـن طولون على مصر نائبًا عـن بقبـق - أو باكبـاك - ثـم لم يلبـث أن عـهد إليـه بولايتها ، وكان ابن طولون رجلاً طموحًا . فسعى للاستقلال بمصر، واسـتطاع أن يتغلـب علـى الصعاب الكثيرة التى اعترضت سبيله، واتخذ لنفسـه جيشًـا قويًـا بلـغ ١٠٠,٠٠٠ جنـدى مـن المصريين والروم والأتراك والسودانيين، وعنى بالأسطول أيضًا . فبنى دار الصناعة فى الجزيرة .

---

(١) الكندى : ص ٤٨ .

وفى سنة ٢٥٦هـ ولى الخلافة العباسـية الخليفة المعتمد ، وكان محبًا للهو ، فقسـم مملكتـه قسمين ، وعهد بإدارة القسم الشرقى لأخيه الموفق طلحة ، كما عهد بإدارة القسم الغربـى لابنـه جعفر ولقبه المفوض إلى الله. وفى سنة إحدى وستين عهد بولاية العهد من بعـده لابنـه المفـوض إلى الله جعفر ثم من بعـده لأخيـه الموفـق طلحـة، (وولى ولـده المغـرب ومصـر والشـام والجزيـرة وأرمينية ، وولى أخاه المشرق والعـراق وبغـداد والحجـاز واليمـن وفـارس ، وأصبـهان، والـرى، وخراسان، وطبرستان، وسجستان والسند)[1] وعلق العهد فى الكعبة .

وفى ذلك العهد نشبت ثورة الزنج فى القسم الشرقى من الدولة العباسية، وادعى قائدها على بن محمد بن عبد الرحيم أنه من سلالة زيد بن على زيـن العـابدين بـن الحسـين بـن علـى بـن أبى طالب، واشتدت ثورتهم حتى دخلوا البصرة فـى سـنة ٢٥٤ هـ (٨٦٨ م) وخربوهـا. وبـذل الموفق جهده للقضاء على هذه الثورة، ولكن إيرادات هذه القسم الشرقى لم تف بنفقات الجنـد، وعلى الرغم من أن مصر لم تكن جزءًا من القسم الشرقى الخاضع للموفق فقد أرسل الموفق خطابًا لابن طولون يصف له خطر الزنج وثورتهم ويسأله أن يرسل له مـن المـال مـا يمكنـه مـن القضـاء على هذه الثورة.

وعلـم ابـن طولـون فـى نفس الوقت أن رسل الموفـق كانـوا يحملون كتبًا مـن الموفـق لقـواده يحرضهم فيها على الخروج على ابن طولون ومعه هذا آلمه ما كان من ثورة الزنج وأرسل للموفـق ١,٢٠٠,٠٠٠ دينارا وهدايا كثيرة:

ويبدو أن الموفق كان يحقد على أخيه المعتمـد ويطمـع فى الخلافة، ولم يكن راضيًا أيضًا عن تولية القسم الشرقى، لأن القسم الغربى أغنى وأفضل، فلم يقنع بـالمبلغ الـذى أرسـله إليـه ابـن طولون، وأرسل يطلب منه مزيدًا، ثم حاول أن يعزله عن مصر.

لم يلتفت ابن طولون إلى طلب الموفق، وإنما أرسل إليه خطابًا يعلن فيه أنه لا علاقـة تربطـه به وأنه يلى مصر بأمر الخليفة المعتمد، قال فى هذا الخطاب: «أما بعد، أطال الله بقـاء الأمـير وأدام عزه، فقد وصل إلى كتاب الأمير – أيده الله – وفهمته، وقـد كـان الأمـير – أسعده الله – حقيقًا بحسن التخير لنفسه وإعمال الفكـر فيمـــا ينتظـــم بـه أســـباب الصـلاح يدركـه، وأن تؤديه رؤيته إلى إمالة مثلى، إذ كنت باب السلطان وسيفه الذى يصون به، وسنانه الذى يتقـى الأعداء بحده.. على أنى لا أعرف السبب الذى يتيح الوحشة ويوقعـها، ولا الأمـر الـذى يدعـو إليها ويوجبها، إذ لـم يكن بينى وبينـه معاملـة توجـب مشـاجرة أو تحـدث منافـرة، وكـأن العمـل الذى أنا بسببه ليس له، والمكاتبة فى أ مـوره ليسـت إليـه، وتقليـدى ليـس مـن قبلـه، ولا أنا من ولاته، . ولم يضطرنى بهـذه الأبحاث التى لا أعرف دركًا فى استعمالها وحظًا فـى

(١) السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص ٢٤٢-٢٤٣.

ارتيادها . . . إلى ركوب خطة فى أمره قد علم الله كراهيتى فى ركوبها، وإلى أن أجعل ما أعددته لحياطة هذه الدولة المتكاثفة والعساكر المتضاعفة، على أنه (أى الموفق) لا ناصر له غير من يجتمع إليه من لفيف المتعبدة وأدناس العامة. وليس مثل الأمير - أيده الله - فى أصالة رأيه وحسن تدبيره، ونظره فى عواقب أموره قصد لمائة ألف عنان هى عدة له فجعلها عليه . . .»[1].

فلما وصل هذا الخطاب إلى الموفق غضب وطلب من قائده موسى بن بغا[2] أن يسير لعزل ابن طولون عن مصر، وعين ماجور - حاكم الشام - واليًا على مصر بدلاً منه. غير أن ماجور لم يرسل قرار تعيينه لابن طولون لأنه لم يكن من القوة بحيث يستطيع التغلب على جيوش مصر، أما موسى بن بغا فقد سار إلى الرقة وبدأ يتخذ الأهبة ويعد العدة لعزل ابن طولون بقوة الجيش. وعلم ابن طولون بما يفعل ابن بغا، فحصن الفسطاط وبنى قلعة ليحتمى بها فى الجزيرة، وأنشأ أسطولا يتكون من «مائة مركب حربية سوى ما يضاف إليها من العشاريات وغيرها . . .»[3] غير أن جند ابن بغا لم يلبثوا أن ثاروا ضده بعد شهور وطالبوه بأعطياتهم، فاضطر إلى العودة إلى بغداد حيث مرض، فحمل إلى سامرا ومات بها بعد شهرين (صفر ٢٦٤ هـ).

لم ييأس الموفق بل سعى لدى الخليفة المعتمد وطلب منه أن يعزل ابن طولون عن ولاية الثغور الشامية، ففعل مضطرًا، ولكنه اضطر بعد قليل أن يعيده إليها، فقد عجز الولاة الآخرون عن المحافظة عليها.

وسعى ابن طولون - فى نفس الوقت - لمد أملاكه فى الشام، فعند موت ماجور أناب ابن طولون ابنه العباس عنه فى حكم مصر، وخرج إلى الشام بجنده وأستولى على الرملة ودمشق وحمص وأنطاكيه (فى سنة ٢٦٥ هـ)، وامتد نفوذه حتى الرقة، وذكر اسمه فى الخطبة بعد اسم الخليفة فى هذه البلاد، غير أنه اضطر للعودة سريعًا إلى مصر للقضاء على ثورة ابنه العباس.

وبعد إخضاع ثورة العباس، أناب عنه ابن طولون ابنه خمارويه وسار ثانية إلى الشام، فقد بدأ يفكر حينذاك فى انقاذ الخليفة المعتمد من سيطرة أخيه الموفق عليه، ثم فكر لأول مرة فى تاريخ مصر أن ينقل مركز الخلافة إليها فيزيد بذلك فى مجده ويقوى نضاله ضد عدوه الموفق، ويذكر ابن الداية أنه كتب للخليفة الخطاب التالى :

«قد منعنى الطعام والشراب والنوم خوفى على أمير المؤمنين - أطال الله بقاءه - من مكر يلحقه . . . وقد اجتمع عندى مائة ألف عنان، مؤلفة قلوبهم، مجتمعة آراؤهم؛ شديد بأسهم،

---

(١) ابن الداية، سيرة ابن طولون، ص ٢١ - ٢٤.

(٢) الكندى: ص ٢١٧ - ٢١٨.

(٣) السيوطى: حسن المحاضرة، ٢/ ١٩٩.

وأنا أرى لسيدى أمير المؤمنين، أدم الله عزه بـالنصر والتمكين والانجذاب إلى مصر فـان أمره يرجع بعد الامتهان إلى نهاية العز، ولا يكن فيه ما يخافه فى كل لحظة منه عليه . . .»[1].

وفى نفس الوقت كان الخليفة قد اشتد به الضيق إذ أصبحت السلطة كلها فى يد أخيه الموفق وأصبح هو كالمحجور عليه، ويروى أنه احتاج مرة إلى ٣٠٠ دينار فلم يستطع الحصول عليها وأنشد هذه الأبيات:

أليس من العجائب أن مثلى ... يرى ما قل ممتنعا عليه

وتؤخذ باسمه الدنيا جميعا ... وما من ذاك شىء فى يديه

إليه تحمل الأموال طرا ... ويمنع بعض ما يجى إليه

لهذا فكر المعتمد فى نفس الوقت أن يلجأ لابن طولون ويحتمى به، وانتهز فرصة انشغال أخيه بالحرب مع الزنج وخرج من سامرا فى سنة ٢٦٩ هـ بحجة النزهة للصيد، وأراد الاتجاه إلى الشام لمقابلة أحمد بن طولون.

وعلم الموفق بخروج أخيه فأرسل إلى إسحاق بن كنداج - والى الموصل والجزيرة - يأمره أن يسعى لرد الخليفة إلى بغداد، ووعده إن نجح فى مسعاه أن يقطعه إقطاعًا ويصله بالمال، فخرج ابن كنداج يدفعه الحسد لابن طولون والطمع فى الإقطاع والمال، ودخل الموصل فعلم بأن الخليفة رحل عنها، فتابعه حتى لحقه بين الموصل والحديثة، فاستأذن فى مقابلته وطلب منه العودة إلى عاصمته، وجرى بينهما الحديث الآتى:

قال ابن كنداح: أخوك فى وجه العدو، عدوك وعدو دولتك، يقف على زوالك، عن مستترك، ومدينة آبائك، فينصرف عن مقاومته، ويخلى بينه وبين دار ملكك، وبهذا جاء كتابه».

فقال له المعتمد: «أفغلامى أنت أم غلامه؟» فقال: «كلنا يا أمير المؤمنين غلمانك ما أطعت الله، فإذا عصيته فلا طاعة لك علينا». فقال له: «وما معصيته؟». فقال: «تخليك عن دار ملكك ودار آبائك، وتركك أخاك وهو مجاهد عنك وعن دولتك لعدوك، فتظعن عن مستقرك وفى هذا عصيان الله عز وجل»[2].

وخرج ابن كنداج فقد قواد الخليفة وعاد به إلى سر من رأى، وهناك قابله أخوه الموفق فأنزله دارًا خاصة، ووكل به قائدًا فى خمسمائة رجل يمنعون أن يدخل إليه أحد.

---

(١) ابن الداية: ص ٦٨- ٦٩.

(٢) انظر الكندى: ص ٢٢٥.

وقال ابن كنداج مكافأته وخلع عليه، ولقب بذى السيفين، وعقد له الموفق على مصر مكان أحمد بن طولون، وأقطع ضياع القواد الذين خرجوا مع المعتمد[1].

وعلم ابن طولون – وهو فى دمشق – بهذا كله، فثارت ثائرته، فجمع الفقهاء والقضاء فى دمشق فى سنة ٢٦٩هـ واستفتاهم فى خلع أبى أحمد الموفق، فأفتوا جميعًا بخلعه إلا قاضيه بكار بن قتيبه، فلم يلتفت إليه ابن طولون وكتب كتاب الخلع من عدة نسخ، وأرسله إلى كل عمل من أعماله ليتلى على المنابر[2]، وأمر كذلك بأن يمحى اسم الموفق من الطرز التى كتبت قبل ذلك ولا تكتب فيما يستأنف. فلم يبق بمصر ولا بنواحيها ثوب على طرازه اسم الموفق إلا نقض.

وبلغ الموفق ما فعله ابن طولون من إسقاط اسمه وترك الدعاء له، فأمر بلعنه على المنابر، «وخرجت براءة اللعنة إلى سائر الأمصار جميعا»[3]، وكان مما لعن به «اللهم العنه لعنًا يفل حده، ويتعس جده، واجعله مثلاً للغابرين. إنك لا تصلح عمل المفسدين»[4].

ويبدو أن الموفق لم يكن يتوقع أن يصل العداء بينه وبين ابن طولون إلى هذا التقاطع والتنابذ والتلاعن، ففكر فى تحسين العلاقات بينه وبين ابن طولون ثانية، وندب لذلك كاتبه صاعد بن مخلد وجماعة من خاصته وأمرهم أن يكتبوا لابن طولون كتابًا يعاتبونه فيه على المبادرة بخلع الموفق وإسقاط اسمه من الخطبة، وذكروا له فى الكتاب «أنه إنما كان يجب أن تفعل ذلك لو رأيت بالخليفة حادثًا فأما ولم يجر إلا منع أمير المؤمنين من فعل شىء آثره، لو بلغه لعاد عليه وعلى مملكته ضرر، فذلك غير منكر يوجب ما تسرعت إليه»[5].

وقالوا له أيضًا على لسان الموفق: «وأنه قد كان يجب عليك أن تصون نفسك عن سوء الظن بنا فى أننا نستجيز أن نحدث فى أمير المؤمنين حادثة، نبرأ إلى الله الكريم منها.. وأن اللعن الذى خرج عن غير إرادة منى ولا محبة ولا اختيار، وإنى لكاره لما جرى من ذلك[6].

ثم أشاروا على ابن طولون فى نهاية الخطاب بأن يكتب للموفق بما يزيل من نفسه ما تركه العداء فيها من أثر فقالوا: «إن الأحسن بك والأجمل، لما خصك الله به من الفضل، والمحل الجليل، والمروءة المقرونة بالدين، أن تكتب إليه تذكر فيه ما أنت مؤثر له من طاعته، وما توجه

---

(١) البلوى: سيرة ابن طولون، ص ٢٩٢.

(٢) انظر نسخة الخلع فى البلوى، ص ٢٩٥، ٢٩٧.

(٣) انظر نفس البراءة فى البلوى، ص ٢٩٩.

(٤) الكندى : ص ٢٢٩.

(٥) البلوى: ص ٣٠٣.

(٦) البلوى: ص ٣٠٣.

من حقه ورعايته، وما يشاكل ذلك مما أنت بجميل فعلك ووافر تحصيلك أهدى إليه إن شاء الله[٦]».

وتلقى أحمد بن طولون هذه الكتب ففرح بها، لأنه علم أنها صدرت بأمر الموفق، وأجاب عليه بقوله إن «الموفق أحد مواليه، وأنه إنما انحرف عنه لحصره الخليفة، وأسره إياه، وأنه لو خلاه مع اختياره، وأزال عنه الموانع التى ألزمه إياها، ولم يحل بينه وبين أمره ونهيه، وامتثل أمره على رسمه كان، ولم ينحرف عن طاعته، ولا عدل عن محبته وإرادت، لكل كبعض خدمه، وأن جميع ما فى يده من مال عمله محفوظ للخليفة، وإن أقام على ما هو عليه من حصره إياه فى يده وتوكيله به، حاربت عنه ولو لم يبق معى أحد، فإنى أرجو أن أرزق الشهادة على حسن الطاعة[١].

وسر الموفق بهذا الرد فقد وجد أن ابن طولون لم يقدم على فعلته إلا محافظة على ولائه للمعتمد، وعلم أنه مستعد أن يعترف له بالولاء ثانية إن هو رفع الحصار عن الخليفة، فأسرع ونقله إلى قصره، وأزال الموكلين عليه، ومنع التشديد فى المراقبة، وكتب إليه يذكر أنه ما لعن ابن طولون إلا مضطرًا، وأنه لنادم على ما فعل، ثم طلب من الخليفة المعتمد أخيرا أن يكتب إلى ابن طولون «بما يزول به ما بينهما»[٢]. فرحب المعتمد بهذا الطلب وكتب إلى أحمد بن طولون كتابًا بخطه شكره فيه على حسن طاعته وتفانيه فى ولائه، وذكر له ما فعله الموفق أخيرًا من إطلاق سراحه وحسن معاملته، وطلب منه أخيرًا أن يعيد الدعوة للموفق على المنابر وإثبات اسمه على الطرز، وأرسل الكتاب إلى ابن طولون مع رسول خاص ومعه خطاب الموفق بخطه إلى المعتمد، وفيه يعترف بإسقاط اللعن عن أحمد بن طولون، وسار الرسول فى طريقه؛ ولكنه لم يكد يبلغ الرقة حتى وصلته الأخبار بوفاة أحمد بن طولون، فعاد ثانية إلى بغداد.

خمارويه والخلافة العباسية:

ولى خمارويه حكم مصر سنة ٢٧٠ هـ، وفى نفس السنة أرسل جيشًا إلى الشام بقيادة أبى عبد الله أحمد بن محمد الواسطى، ولم يكد الواسطى يصل إلى فلسطين حتى فكر فى الخروج على خمارويه، لأنه خشى أن يوقع به لأنه سبق أن أشار عليه بقتل أخيه العباس، وكتب الواسطى كتابًا إلى أبى العباس أحمد المعتضد بن أبى الموفق ضمنه أبياتًا من الشعر وصغر له فيه أمر خمارويه وحضه على المسير إليه، وخرج أبو العباس أحمد بن الموفق من بغداد ومعه جيشه وقواده واستولى فى طريقه على قنسرين وشيزر حتى وصل دمشق ودخلها، وعلم خمارويه بما حدث، فخرج من مصر فى جيش عظيم (فى صفر سنة ٢٧١ هـ) وتقابل الجيشان عند نهر

---

(١) البلوى: ص ٣٠٤.

(٢) البلوى: ص ٣٠٥.

أبى فطرس - فى فلسطين - فهزم جزء من جيش خمارويه كان يقوده هو بنفسه، فكر راجعًا إلى الفسطاط غير أن كمين الجيش المصرى خرج بقيادة سعد الأيسر وهم لايعلمون بهزيمة خمارويه وفراره، وانقضوا على جيش أبى العباس حتى هزم وارتد إلى دمشق فلم تفتح له. وتقدم سعد الأيسر - مع الواسطى - فدخلا دمشق ودعوا فيها لخمارويه.

وخرج خمارويه ثانية من الفسطاط فى ذى القعدة سنة ٢٧٢ هـ وتقدم حتى دخل دمشق فى المحرم سنة ٢٧٣ هـ، ثم تركها متتبعًا جيوش أبى العباس بن الموفق حتى هزمها، وبلغت أوائل جيشه سر من رأى.

وفى ذلك الحين سفر قوم بين خمارويه وبين إسحاق بن كنداج قائد أبى العباس، فاصطلحا وتصاهرا، وانضم إسحاق إلى خمارويه.

ثم كاتب خمارويه أبا أحمد الموفق، وسأله الصلح على مال يبذله له، فوافق أبو أحمد الموفق. وقدم رسول الموفق بشروط الصلح إلى الفسطاط فى رجب سنة ٢٧٣ هـ، وأهم ما فيها اعتراف المعتمد وأبى أحمد الموفق وابنه أبى العباس - بخط أيديهم - بولاية خمارويه وولده على مصر والشامات لمدة ثلاثين سنة، فأمر خمارويه بإعادة الدعاء لأبى أحمد الموفق وترك الدعاء عليه[1].

وفى سنة ٢٧٨ هـ مات أبو أحمد الموفق، فعقد بولاية العهد لابنه أبى العباس. وفى سنة ٢٧٩ هـ توفى الخليفة المعتمد وبويع بالخلافة أبو العباس بن أبى أحمد الموفق، ولقب بالمعتضد، فبعث إليه خمارويه بالهدايا، وفى شهر ربيع الأول سنة ٢٨٠ هـ وصل إلى مصر كتاب المعتضد بولاية خمارويه وولده ثلاثين سنة «من الفرات إلى برقة، وجعل إليه الصلاة والخراج والقضاء وجميع الأعمال على أن يحمل فى كل عام من المال مائتى ألف دينار عن ما مضى، وثلاثمائة ألف عن كل عام للمستقبل»[2].

وفى شهر رمضان من نفس السنة وصل إلى مصر رسول المعتضد ومعه الخلع «وهى اثنتا عشرة خلعة وسيف وتاج ووشاح».

وفى السنة التالية (٢٨١ هـ) عقد للخليفة المعتضد[3] على قطر الندى بنت خمارويه، فحملها إليه مع أبى عبد الله بن الجصاص «وحمل معها ما لم ير مثله ولا سمع به، منه دكة أربع قطع ذهب، عليها قبة ذهب مشبكة، فى كل عين من التشبيك قرط معلق فيه حبة من الجوهر لا يعرف لها قيمة»[4].

---

(١) انظر الكندى: ص ٢٣٨.

(٢) الكندى: ص ٢٤٠.

(٣) ذكر أبو المحاسن: النجوم ٣٠/ ٥٣، أن خمارويه عرض على المعتضد أن يزوج ابنته قطر الندى من ابنه المكتفى بالله، فطلبها المعتضد لنفسه وقال: «بل أنا أتزوجها».

(٤) ابن دقماق ٤/ ٦٧.

وانظر: Hassan Ibrahim: Relations between Egypt and the Caliphate. P. 14 - 15.

ويبدو أن الخلافة العباسية عندما يئست من إخضاع دولة بنى طولون بالقوة لجأت إلى إضعافها بالسياسة، فإنه يقال إن المعتضد أراد بزواجه من قطر الندى «أن يفقرأ بأها خمارويه فى جهازها»[1]، يقول أبو المحاسن: «وكذا وقع، فإنه جهزها بجهاز عظيم يتجاوز الوصف، حتى قيل: إنه دخل معها فى جملة جهازها ألف هاون من الذهب»[2]. كذلك أمر خمارويه - بعد أن فرغ من جهاز ابنته - أن يبنى لها على رأس كل منزلة تنزل فيها قصر فيما بين مصر وبغداد . . . فكانت إذا وافت المنزلة وجدت قصرًا قد فرش، فيه جميع ما تحتاج إليه، وقد علقت فيه الستور، وأعد فيه كل ما يصلح لمثلها، وكانت فى مسيرها من مصر إلى بغداد، على بعد الشقة، كأنها فى قصر أبيها»[3]. ثم ولى على مصر أبو العساكر جيش بن خماروه بعد موت أبيه فى سنة ٢٨٢هـ. غير أنه لم يلبث أن وثب بعمه نصر بن أحمد بن طولون فقتله، فاجتمع قواد جيشه وخلعوه انتقامًا لعمه، وبايعوا أخاه هارون بن خمارويه، وبهذا لم يمكث أبو العساكر فى الولاية إلا تسعة أشهر، وقد أودع السجن بعد خلعه فمات به بعد أيام.

وفى سنة ٢٨٨ هـ مات الخليفة المعتضد، وبويع بالخلافة بعده ابنه أبو محمد، ولقب بالمكتفى بالله، وفى عهده ساءت العلاقات بينه وبين هارون، فأرسل المكتفى جيشًا إلى مصر بقيادة محمد بن سليمان الكاتب، كما أمر دميانه - أمير البحر بثغور الشام - أن يسير بسفنه إلى مصر. وتقدم محمد بن سليمان حتى نزل حمص، فكتب إليه بدر الحمامى - والى هارون على الشام - بالسمع والطاعة، ثم واصل محمد بن سليمان سيره إلى فلسطين، فتقدم إليه وصيف بن صوارتكين بالسمع والطاعة أيضًا.

وصلت هذه الأخبار إلى مصر، فأخذ هارون يعد العدة لملاقاة عدوه، وأرسل أسطوله لقتال الأسطول العباسى عند تنيس، غير أن الأسطول العباسى انتصر، واستولى على تنيس ودمياط، وتقدمت سفنه فى النيل متجهة نحو الفسطاط.

وشغل هارون باللهو والطرب، وتفرق عنه نفر من جنده، فأجمع عماه شيبان وعدى ابنا أحمد بن طولون على قتله، وقتلاه فى صفر من سنة ٢٩٢ هـ، وبايع الجند شيبان بالولاية، فاسر إلى الفسطاط، وبدأ يجمع جيشه ويستعد لملاقاة الجيش العباسى، غير أنه لم يلبث أن علم بتفرق كبار قواده عنه وانضمامهم إلى محمد بن سليمان، كما علم أيضًا بوصول الأسطول العباسى

---

(١) النجوم الزاهرة ٣/ ٥٣.
(٢) النجوم الزاهرة ٣/ ٥٣.
(٣) النجوم ٣/ ٦٢ - ٦٣.

إلى ساحل الفسطاط، فأرسل هو أيضًا إلى محمد بن سليمان يطلب منه الأمان لنفسه وأخوته وأهله، فأمنهم.

ودخل محمد بن سليمان الفسطاط فى ربيع الأول من سنة ٢٩٢ هـ، وأمر بإحراق القطائع فأحرقت، ودعى على المنابر للخليفة المكتفى بالله وحده، ثم «أخرج . . . قواد بنى طولون ومواليهم وقتًا بعد وقت فلم يبق بمصر منهم أحد يذكر . . .»[1].

وهكذا فشلت المحاولة الأولى للاستقلال بمصر بعد أن ظل النزاع شديدًا بين الخلافة العباسية وولاة مصر من الطولونيين طول عهد هذه الأسرة، وعادت مصر ولاية تابعة للخلافة مرة أخرى، وولى محمد بن سليمان على خراجها أبا على الحسين بن أحمد المادراتى، وولى على صلاتها عيسى النوشرى.

٧ - الأخشيد والخلافة :

فى سنة ٣٢٣ هـ ولى مصر محمد بن طغج الإخشيد، وكان قائدًا شجاعًا طموحًا، فاتخذ لنفسه جيشاً قويًا بلغت عدته أربعمائة ألف جندى، عدا حرسه الخاص، وكان يبلغ عددهم ثمانية آلاف مملوك، ثم أنشأ فى سنة ٣٢٥ هـ دارًا للصناعة بساحل الفسطاط بنى فيها سفنًا كثيرة، وانتهز الإخشيد فرصة ضعف الخلافة العباسية واستقل بمصر داخليًا، ولم يبق بين مصر والخلافة فى عهده غير العلاقات الاسمية من خطبة باسم الخليفة، وسكة تضرب باسمه أيضًا، ومال يرسل إليه سنويًا. وفى سنة ٣٣١هـ أخذ الإخشيد البيعة على المصريين وجميع القواد والجند لابنه أبى القاسم أنوجور. وكانت الخلافة العباسية وقتذاك قد ضعف ضعفًا شديدًا، وانفصل كثير من الولاة بالأطراف واستقلوا بها، وكان أقوى هؤلاء الولاة وأحسنهم علاقة بالخلافة العباسية محمد بن طغج الإخشيد، فنجد أن الجفاء يشتد فى سنة ٣٣٢هـ بين الخليفة المتقى وبين الحمدانيين حكام الموصل من ناحية، وبينه وبين قائديه توزون والبريدى من ناحية أخرى. فكتب الخليفة إلى الإخشيد يستنجد به ويستدعيه إليه، ثم خرج للقائه فى الشام.

وغادر الإخشيد مصر بعد أن استخلف عليها أخاه الحسن بن طغج، وسار حتى التقى بالخليفة فى مدينة الرقة، وأهدى إليه تحفًا وهدايًا وأموالاً، وكان الخليفة عندما اشتد الخلاف بينه وبين الحمدانيين أرسل إلى توزون مستنجدًا أيضًا؛ فلما تقابل الإخشيد مع الخليفة قال

---

(١) الكندى: ص ٢٤٨.

له: «يا أمير المؤمنين: أنا عبدك وابن عبدك، وقد عرفت الأتراك وغدرهم وفجورهم، فالله في نفسك، سر معي إلى الشام ومصر فهي لك، ونأمن على نفسك، فلم يقبل المتقي ذلك، فقال له الأخشيد، فأقم هنا وأنا أمدك بالأموال والرجال، فلم يقبل منه أيضًا»[1].

وعاد الإخشيد إلى مصر، غير أنه لم يلبث أن وصلته الأخبار أن توزون ثار بالخليفة وخلعه وسمل عينيه، وولى الخلافة من بعده المستكفي سنة ٣٣٣ هـ، ويقال إن الخليفة القاهر - وكان قد خلع وسملت عيناه - عندما علم بما حدث للمتقي قال: «صرنا اثنين ونحتاج إلى ثالث»[2] - يعرض بالمستكفي الخليفة الجديد - ، وقد صدقت نبوءته فعلاً.

وهكذا فشلت أيضًا المحاولة الثانية لنقل الخلافة العباسية إلى مصر.

(١) أبو المحاسن ٣/ ٢٥٥؛ انظر أيضًا: منز ١/ ٢١.

(٢) أبو المحاسن ٣/ ٢٨٢.

الباب السادس
نظم الحكم ودواوينه فى الفسطاط

١ - نظام الإمارة
٢ - دور الإمارة فى مصر (الفسطاط)

نظم الحكم ودواوينه فى الفسطاط

١ - نظام الإمارة

كان العرب يحيون فى بلادهم حياة قبلية، فلما فتحوا البلدان المجاورة - ومنها مصر - وجدوا بها حضارة ونظمًا للحكم معقدة، فتركوا هذه النظم على ما كانت عليه، وقنعوا بالرئاسة الحربية والدينية أول الأمر.

ثم لم يلبث العرب بعد اختلاطهم بسكان هذه البلدان، وبعد انتشار الدين الإسلامى واللغة العربية، أن تقبلوا هذه النظم، وتولوا هم جميع أمور هذه الدولة.

وقد تولى أمور الحكم فى هذه الولايات القواد الذين افتتحوا، ثم خلفهم بعد ذلك أمراء أو ولاة آخرون. وبذلك كان أول وال على مصر هو عمرو بن العاص، وكان عمرو حاكمًا قديرًا وإداريًا ماهرًا، كما كان قائدًا شجاعًا فذًا، ومن آثاره الهامة فى مصر مدينة الفسطاط، وجامعه الذى بناه بها، وتجديده للترعة القديمة التى كانت تصل النيل ببحر القلزم وسماها خليج أمير المؤمنين، كذلك عنى عمرو بإصلاح وسائل الرى فى مصر، وكانت قد أهملت وأصابها الفساد فى آخر عهد البيزنطيين، «ويقال إن عمرو بن العاص كان يسخر أكثر من مائة ألف عامل فى كرى الخلجان والترع وتطهيرها »[١].

وكان الأمير أو الوالى أو العامل على مصر يولى من قبل الخليفة على صلاتها وخراجها[٢] وكانت تجتمع له - فى أول الأمر - السلطات كلها، فهو قائد الجند، وهو الإمام الذى يؤم الناس فى الصلاة، وهو المشرف على شئون مصر المالية وجامع خراجها، وهو القاضى الذى يفصل فى الخصومات: وقد بحث الفقهاء والمؤرخون نظام الإمارة أو الولاية فيما بعد، وقننوا له مواد، وقسموه إلى إمارة عامة وإمارة خاصة، ثم جعلوا الإمارة العامة قسمين: إمارة عن اختيار، وإمارة عن اضطرار.

وقد وضح الماوردى اختصاص الإمارة عن اختيار فى سبع مواد هى:

١ - النظر فى تدبير الجيوش، وترتيب النواحى، وتقدير أرزاقهم.

---

(١) مصر الإسلامية فى العصور الوسطى لإسماعيل أبو العينين، مقال من كتاب فى مصر الإسلامية، مطبعة المقتطف سنة ١٩٣٧م، ص ٩.

(٢) كان اصطلاح العصر دائمًا أن يقال عند الكلام عن الولاة ولى على مصر: صلاتها وخراجها، وقد ورد فى الكندى، ص ٣٠١، هامش ٢ نقلاً عن ابن زولاق: «وولى عمرو بن العاص: حربها وخراجها»، وهى المرة الوحيدة التى قرأت فيها هذا الاصطلاح فيما أذكر.

٢ - النظر فى الأحكام وتقليد القضاة والحكام.

٣ - جباية الخراج، وقبض الصدقات، وتقليد العمال فيهما، وتفريق ما استحق منهما.

٤ - حماية الدين، والذب عن الحريم، ومراعاة الدين من تغيير وتبديل.

٥ - إقامة الحدود فى الله وحقوق الآدميين.

٦ - الإمامة فى الجمع والجماعات حتى يؤم بها أو يستخلف عليها.

٧ - تسيير الحجيج من عمله.

فإن كان هذا الإقليم ثغرًا متاخماً للعدو اقترن بها ثامن، وهو جهاد من يليه من الأعداء، وقسم غنائمهم فى المقاتلة، وأخذ خمسها لأهل الخمس[١].

أما الأمير فى الإمارة الخاصة فيكون «مقصور الإمارة على تدبير الجيش وسياسة الرعية، وحماية البيعة والذب عن الحريم، وليس له أن يتعرض للقضاء والأحكام ولجباية الخراج والصدقات».

وهكذا نلاحظ أن ولاية عمرو لمصر كانت فى السنين الأولى ولاية عامة، فكانت بيده السلطات جميعًا، غير أن عمر لم يلبث أن عين عبد الله بن سعد بن أبى السرح على خراج مصر، فأصبحت ولاية عمرو ولاية خاصة، وبعد قليل أيضًا عين الخليفة قاضيًا للحكم بين الناس، فلم يبق للوالى على مصر غير قيادة الجيش وإمامة الصلاة، والإشراف على الشرطة.

وكان الولاة على مصر منذ الفتح حتى بدأ العهد الطولونى يلون على مصر صلاتها وخراجها. وبذلك تكون السلطة كلها فى أيديهم، يتمتعون بنفوذ كبير واسع المدى. أو يلى الوالى على صلاتها فقط، وإلى جانبه وال آخر على خراجها، فينشأ بذلك النزاع[٢] وتقوم المنافسة بين الرجلين وقد يكون هذا هو السبب فى قصر مدة الولاة وعمال الخراج فى هذه المدة.

وكانت الصلاة أبرز أعمال الوالى وأهمها لاتصالها برسالة الإسلام التى ترمى إلى نشر هذا الدين الجديد، وكان أهم واجبات الوالى أن يؤم الناس فى الجمع وفى الصلوات الجامعة، وأن يستخلف الأئمة ليأموا الناس فى المساجد الجامعة الأخرى عندما انتشر الإسلام فى مصر وكثر عدد المسلمين، وقد ظل الولاة فى مصر يأمون الناس فى الصلاة فى عهود الخلفاء الراشدين والأمويين، وفى الصدر الأول من الدولة العباسية[٣] حتى ولى مصر ولاة من غير العرب لا يجيدون العربية، فأنابوا عنهم أئمة للصلاة بالناس، وقد ولى مصر ولاة من العرب كان آخرهم

---

(١) الأحكام السلطانية، ص ٢٨ - ٢٩.

(٢) انظر مثلاً للنزاع بين الوالى وصاحب الخراج فى الكندى، ص ٧٥.

(٣) حسن إبراهيم حسن، النظم الإسلامية، ص ٢٠٨.

عنبسة بن إسحاق (٢٣٨هـ - ٢٤١ هـ) من قبل الخليفة المنتصر، ثم ولى مصر بعد ذلك ولاة من الأتراك كانوا كلهم جفاة غلاظًا ساء حال البلاد فى عهدهم، وكثرت الفتن وانتشرت الفوضى، حتى ولى مصر أحمد بن طولون فاستقل بأمورها، وأنقذها من هذا الخلل والاضطراب.

وكان والى الصلاة هو الذى يولى صاحب الشرطة[1] من قبله، كما كان يحدث أحيانًا أن يحتفظ الوالى بالشرطة لنفسه، كما فعل عبد الله بن عبد الرحمن بن حديج (١٥٢هـ - ١٥٥ هـ) عندما ولى من قبل أبى جعفر المنصور، فإنه لم يول على الشرطة أحدًا[2].

كذلك كان الوالى إذا خرج لمقر الخلافة، أو للحج، أو إلى ثغر من ثغور الساحل، كالإسكندرية ودمياط ورشيد، استخلف على مصر، أو على العاصمة - الفسطاط - نائبًا عنه[3].

وكان يحدث أحيانًا عند وفاة خليفة وتولية آخر أن يخرج وإلى مصر أو وفد منها لمبايعة الخليفة الجديد بالنيابة عن أهل مصر، كما خرج عبد الملك بن رفاعة والى مصر فى سنة ٩٦ هـ لمبايعة الخليفة الأموى سليمان بن عبد الملك[4]، وكما خرج وفد من عرب مصر فى سنة ١٢٦ هـ لمبايعة الخليفة يزيد بن الوليد[5]، كذلك أرسل صالح بن على - والى مصر - وفدًا من أهلها فى سنة ١٣٣ هـ لمبايعة الخليفة العباسى الأول أبى العباس السفاح[6].

وكان ينتقل والى مصر فى بعض الأوقات ليلى إفريقية، كما حدث فى عهد الخليفة الأموى هشام بن عبد الملك، إذ أرسل والى مصر حنظلة بن صفوان (فى ولايته الثانية: ١١٩هـ - ١٢٤ هـ) كتابًا بتوليته على أفريقية «وأمره بالمسير إليها، وأن يستخلف على مصر، فاستخلف حفص بن الوليد الحضرمى»[7] وقد أقر هشام حفصًا على ولايته.

وبعد أن انتصر صالح بن على العباسى على مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية وقتله، أتاه خطاب أبى العباس السفاح بتوليته على مصر[8]، وفلسطين وأفريقية جميعا، ثم أتاه

(١) انظر أوائل الكلام عن الولاة جميعا فى الكندى وخاصة ص ٨٥ - ٩٣.

(٢) الكندى، ص ١١٧ - ١١٨.

(٣) كان إذا خرج عن مصر استخلف على مصر كلها، وإذا خرج إلى أحد الثغور استخلف على العاصمة، أو على شرطة الفسطاط، أو على الجند، انظر الكندى ص: ٦٤ و ٦٥ و ٧١ و ٧٤ و ٩٣ و ١٠١ و ١١٨ و ١٢١، وحدث مرة واحدة أن استخلف الوالى خلفين: أحدهما على الجند، والثانى على الخراج، انظر الكندى، ص١٠٨.

(٤) الكندى، ص ٦٦.

(٥) الكندى، ص ٨٤.

(٦) الكندى، ص ٩٧.

(٧) الكندى، ص ٨٢.

(٨) الكندى، ص ١٠٠ - ١٠٢.

خطاب آخر بأن يسير إلى فلسطين ليلى أمورها وأن يستخلف على مصر، فاستخلف عليها أباعون عبد الملك بن يزيد فى مستهل شعبان سنة ١٣٣ هـ.

وفى سنة ١٤٨ هـ ضم يزيد بن حاتم - والى مصر من قبل أبى جعفر المنصور - برقة إلى مصر، «وهو أول من ضمها إليه، وأقر عليها عبد السلام بن عبد الله بن هبيرة الشيبانى»[١].

وكان الوالى على مصر يعين من قبله واليين: أحدهما على الصعيد، والثانى على أسفل الأرض[٢].

---

(١) الكندى، ص ١١٦.

(٢) الكندى، ص ٨٤.

٢ - دور الإمارة فى مصر (الفسطاط)

لم يكن لأمراء مصر فى العهد الأول دار خاصة للإمارة، بل بنى عمرو بن العاص داره الكبرى فى الفسطاط شرقى المسجد الجامع، وفيها كان سكنه، وكانت تلاصقها دار عمرو الصغرى سكن ابنه عبد الله، وهكذا كان ينزل كل أمير يلى مصر دارا خاصة به يكون فيها سكنه ومقر حكمه، وإن كان ابن دقماق يذكر أن معاوية كان قد بنى قبلى المسجد الجامع فى الفسطاط دارًا لابنه يزيد اسماها «دار الرمل»، «وكانت الولاة تنزلها»(١).

فلما كانت فتنة ابن الزبير، ودخل مروان بن الحكم مصر فى سنة ٦٥ هـ أمر ببناء دار خاصة له فى الفسطاط، فبنيت فى شهرين، ويقال فى أربعين يومًا، وسماها «الدار البيضاء»(٢).

وفى سنة ٦٧ هـ بنى عبد العزيز بن مروان - والى مصر من قبل أخيه عبد الملك بن مروان دارًا عظيمة وسماها «دار الذهب»، وجعل لها قبة مذهبة «إذا طلعت عليها الشمس لا يستطيع الناظر التأمل فيها خوفًا على بصره، وكانت تعرف بالمدينة لسعتها وعظمتها»(٣)، وسكن هذه الدار عبد العزيز، ثم سكنها بنوه من بعده، حتى أتى إلى مصر مروان بن محمد فنزلها، فلما اشتد به الخطر أمر بإحراقها، فلامه فى ذلك بعض رجاله، فقال: «إن أبق ابنها لبنة من ذهب ولبنة من فضة، وإلا فما تصاب به فى نفسك أعظم . . .»(٤).

وعندما أنشأ صالح بن على مدينة العسكر بنى فيها دارًا خاصة سماها «دار الإمارة»، وظل ولاة مصر - من قبل العباسيين - ينزلونها حتى نزلها أحمد بن طولون(٥). فلما بنى مدينة القطائع أنشأ فيها دار إمارة جديدة فى الجهة القبلية من مسجده الجامع، وكان لها باب يصلها بالمسجد عند المقصورة بجوار المحراب والمنبر، وظلت هذه الدار قائمة(٦) يسكنها

---

(١) ابن دقماق: ٤/ ٥.

(٢) الكندى، ص ٤٥.

(٣) صبح الأعشى ٣/ ٣٣١.

(٤) الكندى، ص ٩٥، وصبح الأعشى ٣/ ٣٣١.

(٥) ابن دقماق ٤/ ١٠.

(٦) يقول صاحب صبح الأعشى ٣/ ٣٣٢ إن محمد بن سليمان خرب هذه الدار كما خرب القطائع كلها، ولكن المقريزى يقول فى الخطط ٤/ ٤٢ إن هذه الدار ظلت باقية حتى أتى المعز الفاطمى فجعلها ديوانًا للخراج «فكان يستخرج فيها أموال الخراج».

بنو طولون إلى أن أتى محمد بن سليمان إلى مصر سنة ٢٩٢ هـ، وقضى على دولة الطولونيين، وخرب القطائع، فنزل فى الفسطاط فى دار كانت تسمى «الدار العظمى»[١]، وظلت هذه الدار سكنًا لولاة مصر من بعده، إلى أن ولى محمد بن طغج الإخشيد فنزلها، ثم ضاقت عليه «فزاد فيها وعظمها، وعمل لها ميدانًا، وجعل له بابًا من حديد، وذلك فى سنة ٣٣١هـ»[٢]، ولبثت مقرًا لولاة مصر طول عهد الإخشيديين حتى أتى الفاطميون فسكنوا فى القصر الكبير فى القاهرة.

---

(١) بقيت هذه الدار عند المصلى القديم بدر الخفيفى غلام أحمد بن طولون، ثم سكنها بعده طاهر بن خمارويه، ومن بعده حمامى غلام أحمد بن طولون. انظر ابن دقماق ٤/ ١٠؛ وصبح الأعشى ٣/ ٣٣٢.

(٢) صبح الأعشى ٣/ ٣٣٢.

الكتاب الثانى

ضحى مصر الإسلامية

أو

العصر الفاطمى

المـدخل

(أ) ملاح مصر فى العصر الإسلامى.

(ب) من هم الفاطميون؟

(جـ) الحزب الشيعى، نشأته وتطوره.

(أ) ملامح مصر فى العصر الإسلامى الأول

هذا الموقع الجغرافى الاقتصادى الحربى الممتاز عند ملتقى الطرق بين القارات الثلاث القديمة.

وهذا النهر الخالد مبارك الغدوات والروحات وما يجلبه للأرض الطيبة وساكنيها من رى وخصب.

وهذا الشعب الكاد الكادح الذى بنى الأهرام، وصنع التماثيل، وعرف التقويم الشمسى، ومارس الطب، وقاد الجيوش، وشق البحار، وأقام الإمبراطوريات.

وهذه الحضارة المزدهرة التى كانت مصدر إشعاع لكل البلاد المجاورة فى آسيا وأفريقيا قرونًا طويلة.

كل هذه العناصر جعلت لمصر فى كل عصورها التاريخية - سواء أكانت عصور استقلال أم تبعية - شخصية خاصة مستقلة متميزة.

وقد رحبت مصر بالفتح العربى لأنه أنجاها من ظلم الروم وعسفهم واضطهادهم الدينى، ولأنه حمل معه السماحة والعدل والمساواة والمثل الإنسانية العليا حين حمل إليها الإسلام، ولكن مصر بعد الفتح العربى لم يتغير مركزها السياسى الدولى، فقد كانت من قبل ولاية تابعة للإمبراطورية البيزنطية، ثم أصبحت إمارة تابعة للخلافة الإسلامية.

غير أن مصر لم تكن فى عهد التبعية للخلافة إمارة ككل الإمارات، بل برزت شخصيتها المستقلة المتميزة منذ اللحظة الأولى.

فلعبت دورًا هامًا فى الفتنة الكبرى التى انتهت بقتل عثمان بن عفان وتولية على بن أبى طالب ثم قيام الدولة الأموية.

وعندما انتقلت الخلافة الأموية إلى مروان بن الحكم أدرك ما لمصر من أهمية خاصة بين ولايات الدولة المختلفة، فاختار لولايتها ابنه عبد العزيز بن مروان الذى ظل واليًا عليها إحدى وعشرين سنة كان فى خلالها أشبه ما يكون بالحاكم المستقل، وكانت مصر أشبه ما تكون بالدولة المستقلة.

وعندما نشب النزاع بين الأمين والمأمون برزت مصر كالعادة إلى مسرح الحوادث وبدأت محاولتها للانفصال عن الخلافة والاستقلال، وكان بطل هذه المحاولة الاستقلالية الأولى السرى

ابن الحكم وعبد العزيز الجروى، غير أن هذه المحاولة انتهت بالفشل، لأنها لم تقم على أسس قومية واضحة، بل قامت بها شخصيات قوية طموحة.

ثم ثارت مصر فى عهد المأمون ثورة قومية خطيرة شارك فيها العرب والقبط، وكادت الأمور تنتهى فيها إلى فوضى شاملة وانفصال عن الخلافة، لولا أن تداركها المأمون فحضر إلى مصر وعمل بنفسه لإخضاع الثورة وإزالة الأسباب التى أدت إلى قيامها.

ولم تكن المقومات المكونة للشخصية المصرية لتسمح لمصر أن تظل ولاية تابعة أمدًا طويلاً، فلم تكد الخلافة العباسية تحس شيئًا من الضعف حتى بدأت مصر تجدد محاولاتها الاستقلالية، ونجحت هذه المحاولات على يد أحمد بن طولون أولاً ثم على يد محمد بن طغج الإخشيد ثانيًا، وكان الاستقلال فى عهد هاتين الدولتين يشوبه شىء من النقص تمثله تلك الخيوط الواهية التى كانت تربط مصر بالخلافة، كالخطبة باسم الخليفة، أو ضرب السكة باسمه، أو إرسال مبالغ من المال سنويًا إلى عاصمة الخلافة.

ثم توجت هذه المحاولات أخيرًا بظهور الخلافة الفاطمية وإتخاذها مصر مقرًا لحكمها، ففى عهد الدولة الفاطمية استقلت مصر لأول مرة فى العصر الإسلامى استقلالا تامًا كاملاً لا تشوبه أية شائبة، بل لقد أصبحت مركزًا لإمبراطورية واسعة قوية ذات حضارة مجيدة مزدهرة، تضم مصر والمغرب والشام وبلاد اليمن وجزيرة صقلية.

(ب) من هم الفاطميون؟

بعد موت الإمام جعفر الصادق انقسم الشيعة إلى فرق كثيرة كان أهمها وأكبرها فرقتين:

فرقة جعلت الإمامة فى ابنه موسى الكاظم ثم فى الأئمة من بنيه إلى الإمام الثانى عشر الحسن العسكرى، وهذه الفرقة تعرف بالأمامية «الإثنى عشرية» ومعظم أتباعها الآن فى إيران والعراق؛

والفرقة الثانية جعلت الإمامة فى إسماعيل بن جعفر الصادق، ثم فى ابنه محمد بن إسماعيل، ثم فى الأئمة من بنيه، ومنهم الخلفاء الفاطميون الذين أقاموا دولتهم فى أفريقية أو المغرب الأدنى أولاً فى سنة ٢٩٦ هـ، ثم نقلوا دولتهم إلى مصر فى سنة ٣٥٨ هـ، وظلوا يحكمونها إلى سنة ٥٦٧ هـ.

هذه الفرقة تعرف بالإسماعيلية - نسبة إلى إسماعيل بن جعفر الصادق - وتعرف أحيانًا بالباطنية - نسبة إلى قولهم بالظاهز والباطن -.

أثار نجاح الفاطميين فى تكوين دولتهم عداء الخلافيتين السنيتين القائمتين وقتذاك: العباسية فى المشرق، والأموية الأندلسية فى المغرب، فشنتا عليهم حربًا شعواء، كان قوامها الطعن فى نسبهم ومذهبهم، واتهم الفاطميون بانتسابهم إلى أصل يهودى حينا وإلى أصل فارسى حينا آخر، وأصبح الكلام فى النسب الفاطمى[1] موضوعًا من أهم الموضوعات التى يتناولها المؤرخون - قدامى ومحدثون - شرقيون ومستشرقون - عند الكتابة عن تاريخ الفاطميين فى مصر، ومع هذا لم يصل واحد منهم حتى اليوم إلى رأى حاسم يمكن الاعتماد عليه والأخذ به، ويرجع هذا إلى سببين:

أولهما أننا لا نعرف على وجه التحديد متى بدأت الدعوة الإسماعيلية، أو من بدأ بها، فقد بدأت سرية، وما كتبه المؤرخون السنيون عن أصولها ومبدئها فيه تناقض كثير واضطراب، ويعتمد فى أكثره على الشائعات المغرضة.

وثانيهما أن الإسماعيلية أنفسهم لجأوا فى أول الأمر إلى التقية، فقد كان العهد عهد ستر، وخضع الشيعة لعوامل الاضطهاد المختلفة من سجن وقتل وتشريد، ولهذا لم يؤرخ الإسماعيلية لحركتهم بأنفسهم، لأن الستر أصل من أصول مذهبهم، ومن ضعف العقيدة عندهم كشف المستور، وكانت النتيجة أن كل ما نعرفه عن عهد الستر - وهو العهد الذى بدأ بوفاة جعفر الصدق وينتهى بقيام الدول الفاطمية - يسوده التناقض والاضطراب، ولا يمكن الركون إليه أو الوثوق به.

---

(١) انظر Bernard Lewis: The Origins of Ismailism والمقريزى: اتعاظ الحنفا، نشرالشيال، القاهرة، ١٩٤٨.

(جـ) الحزب الشيعى – نشأته وتطوره

المشهور المتواتر أن محمدًا عليه السلام – توفى ولم يوص لأحد بالخلافة من بعده، وترك الأمر شورى بين المسلمين، وعن طريق هذه الشورى اختير الخلفاء الأربعة الراشدون، وإن اختلفت أساليب الشورى عند اختيار كل واحد منهم.

وكان على بن أبى طالب يطمع فى أن يلى هذا المنصب منذ اللحظة الأولى التى تلت موت الرسول – عليه السلام – ولكن المنصب فاته فى الحالات الثلاث الأولى، ولما أدركه فى الحالة الرابعة أدركه فى ظروف عسيرة عصيبة، فقد تولى على الخلافة فى أعقاب الفتنة الكبرى التى انتهت بمقتل عثمان بن عفان.

وحدث الانقسام الأول الذى فتت الوحدة الإسلامية وجر الويلات الكبار على المسلمين والعالم الإسلامى منذ تلك اللحظة إلى اليوم، وتولى معاوية زعامة المعارضة، وكانت حجته الكبرى أنه إنما قام للمطالبة بثأر عثمان، والانتقام من قتلته ومن حماة هؤلاء القتلة، غير أنا نرى أن هذه حجة عاطفية اتخذها معاوية شعارًا ليثير شعور المسلمين على على، أما الصراع الحقيقى فهو صراع سياسى تمتد جذوره إلى الماضى البعيد، إلى عصر ما قبل الإسلام، عندما كان التنافس على أشده بين بنى أمية وبنى هاشم فى سبيل السيادة، فلما ظهر محمد برسالته كان بنو أمية من أشد الناس عداوة له، وكان أبو سفيان – زعيم بنى أمية – حامل لواء المعارضة والمقاومة.

ونصر الله عبده محمدًا، وانتقلت السيادة إلى بنى هاشم، فمنهم اختار الله نبيه، وقد استجاب العرب جميعا لرسالته، وخضعوا لنفوذه بعد أن كون دولته الجديدة التى وحدت المؤمنين والمسلمين من العرب جميعًا ليكونوا أمة واحدة من دون الناس.

آلم بنى أمية أن ينال بنو هاشم هذا الشرف كله، ولكنهم خضعوا على مضض، وخاصة بعد دخولهم فى الإسلام، غير أن بذور هذا النزاع لم تمت، بل ظلت كامنة فى النفوس إلى أن ولى عثمان – وهو من كبار بنى أمية – الخلافة، فاستيقظت عوامل الخلاف من جديد، والتف رجال هذه الأسرة حوله يلونون سياسته باللون الذى يريدون، فلما ثارت الفتنة وقتل عثمان، وولى على الخلافة، خشوا أن تستقر السيادة ثانية فى بيت بنى هاشم، فحمل لواء المعارضة معاوية – كبير بنى أمية فى ذلك الوقت – وقاد معركة النضال فى عنف وإصرار شديدين مستعملاً كل ما أوتى من مكر ودهاء.

فلم يكن الصراع بين على ومعاوية إذن صراعًا للأخذ بثأر عثمان أو للانتقام من قلته، وإنما كان حلقة جديدة فى سلسلة النزاع القديم فى سبيل السيادة بين بيتين كبيرين من قريش، هما بنو أمية وبنو هاشم، ولقد كان تقى الدين أحمد بن على المقريزى - زعيم مؤرخى مصر الإسلامية - أول من فطن إلى هذه الحقيقة، وأول من عالجها معالجة طيبة فى كتابه الصغير القيم: «النزاع والتخاصم فيما بين بنى أمية وبنى هاشم».

إبان هذا الصراع ظهر الحزب الشيعى، وهو الحزب الذى يضم من ينتصرون لعلى أو يتشيعون له، وقد انضم إلى هذا الحزب كل الشانئين والمتذمرين من العرب وغيرهم ومن الموالى بوجه خاص، وصنع رجال هذا الحزب لأنفسهم مبدأ خاصًا، وفلسفوا هذا المبدأ فلسفة تأثروا فيها إلى حد بعيد بنظريات الحكم عند الفرس التى كانت تؤمن بحق الملك المقدس، وحجر الزاوية فى هذا المبدأ عقيدتهم فى الإمامة، وبنو هذه العقيدة على حديث نبوى، فقالوا إن الرسول - عليه السلام - مر عند أوبته من حجة الوداع بغدير خم - وهو مكان بين مكة والمدينة - وعند هذا الغدير آخى بينه وبين ابن عمه على وقال: «على مولاى، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه».

وقالوا استنتاجًا من هذا أن هذا الحديث يتضمن مبايعة ضمنية من محمد لعلى، وأن عليًا وصى الرسول، أوصى له بالإمامة من بعده لشروط خاصة ينفرد بها، ولعلوم لدنية تلقاها عنه، وأن الإمامة يجب أن تنتقل من على إلى أولاده الواحد بعد الآخر، لأن هذه الشروط والعلوم تنتقل فى نسل على بطريق الوراثة من الابن إلى الابن.

ولهذا وقف أتباع هذا الحزب فيما بعد إلى جانب أولاد على يحرضونهم على المطالبة بحقهم فى الخلافة، فرشحوا أولاً الحسن بن على ليلى أمر المسلمين بعد مقتل أبيه، ولكن الحسن كان رجلاً بعيد النظر، فرأى أن أهل الشام ومصر والحجاز واليمن قلوبهم مع معاوية، ورأى أن أهل العراق الذين تقاعسوا عن نصرة أبيه لا يمكن - مع تحمسهم لعلى وأولاده - أن يتقدموا لنصرته ضد معاوية، فآثر أن يسالم معاوية، وقنع منه بمعاهدة عقدها معه فيها شروط خاصة له ولأتباعه، واستقر بعد ذلك فى مدينة الرسول حيث قضى بقية حياته إلى أن توفى سنة ٥٠ هـ.

ولبث معاوية - وهو خليفة - يستميل الناس ويصطنعهم لنفسه ولأسرته بالسياسة واللين تارة، وبالكرم والعطاء تارة أخرى، حتى استطاع أن يخمد دعوة الشيعة ويسكتها مؤقتًا، وحتى استطاع أن يرسى أسس الحكم والسيادة لبنى أمية على قواعد متينة بأن أخذ البيعة لابنه يزيد قبل موته، وبهذا استن للخلافة نظامًا جديدًا، وقلبها من نظام شورى - هو أقرب شىء إلى النظام الجمهورى - إلى ملك وراثى.

ولم تكن هذه التجربة لتمر فى يسر وسهولة، فلم يكد يزيد يلى الخلافة حتى تجددت الفتنة، وثار أهم المدن الإسلامية، وخاصة مكة والكوفة.

ففى مكة ثار عبد الله بن الزبير، ولثورته قصة أخرى ليس هنا مجال الحديث عنها. وفى الكوفة ثار الشيعة وأرسلوا للحسين بن على يطلبون قدومه إليهم، ويحرضونه على المطالبة بالخلافة، فهو أحق بها من يزيد بن معاوية. وأحسن الحسين الظن بأهل الكوفة، وسارع إليهم، غير أنهم تخلفوا عن نصرته، وتقدم عبيد الله بن زياد - عامل يزيد على العراق - لمقاتلته، ولم يستطع الحسين أن يقف أمامه بجيشه القليل (نحو ٨٠ رجلاً)، فهزم هزيمة نكراء، وقتل كل رجاله، وحمل رأسه بعد ذلك إلى يزيد.

كان لموقعة كربلاء أثر جد خطير فى تطور الحوادث بعد ذلك، فقد أصبح الحسين أبا للشهداء، وأصبحت كربلاء رمزا للاستشهاد، وهب الشيعة فى كل مكان يطالبون بثأر الحسين، ولهذا نرى أن النزاع بين الأمويين والعلويين قد اشتد واحتدم بعد مقتل الحسين، وظل الشيعة طول العصر الأموى يطالبون بأحقية أولاد على فى الخلافة، غير أنهم انقسموا فرقا، فمنهم من دعا لأولاد الحسن، ومنهم من دعا لأولاد الحسين، ومنهم من دعا لمحمد بن الحنفية وابنه أبى هاشم.

واعتبرت الدولة الأموية هذه الحركات جميعا حركات ثورية، وعاملتها بما تعامل به الدولة القوية كل ثائر أو خارج على طاعتها. وظهر فى الوقت نفسه فرع آخر من البيت الهاشمى وهو فرع بنى العباس يطلب الخلافة لنفسه.

واستغل العباسيون ضعف الشيعة العلوية وانقسامهم ومكروا بهم، فجعلوا الدعوة عامة شاملة «للرضا من آل محمد»، يريدون بذلك أن يضمنوا ولاء الشيعة العلوية من ناحية، وأن يخفوا اسم صاحب دعوتهم حتى لا يتتبعه الأمويون باضطهادهم وعذابهم من ناحية أخرى.

ونجح العباسيون فى القضاء على دولة بنى أمية وفى الوصول إلى عرش الخلافة، ولم ينس العلويون دعوتهم، بل اعتبروا أبناء عمومتهم مغتصبين لحقهم، وقام فى العصر العباسى أفراد كثيرون معظمهم من الفرع الحسينى يطلبون الخلافة، وعنف بهم العباسيون أضعاف ما كان يعنف بهم الأمويون، فاضطهدوهم وطاردوهم وقاتلوهم فى كل مكان خرجوا فيه، ولهذا تحولت الدعوة من العلن إلى السر، تقية وصيانة لأشخاص الأئمة أصحاب الدعوة.

الباب الأول

الدولة الفاطمية فى المغرب

١ - قيام الدولة الفاطمية فى المغرب .
٢ - الفاطميون فى المغرب .
٣ - الفتح الفاطمى لمصر .

(١)

قيام الدولة الفاطمية فى المغرب

كان الإسماعيلية – وهم الذين ينتسبون إلى إسماعيل بن جعفر الصادق – أنشط من غيرهم ، فقد بثوا الدعاة فى أنحاء الدولة الإسلامية المختلفة، وفى الأنحاء القاصية بوجه خاص، مثل اليمن وبلاد المغرب .

ففى النصف الثانى من القرن الثالث للهجرة كان فى بلاد المغرب داعيان هما: الحلوانى وأبو سفيان ، وفى اليمن داعيان آخران هما: ابن حوشب أبو عبد الله الشيعى، وأهم هؤلاء جميعًا أبو عبد الله الشيعى فإنه المؤسس الحقيقى للدولة الفاطمية الإسماعيلية فى المغرب ، كما كان أبو مسلم الخراسانى المؤسس الحقيقى للدولة العباسية فى المشرق ، ومن العجيب أن خاتمة الرجلين كانت واحدة ، فقد قتل أبو جعفر المنصور أبا مسلم، كما قتل عبيد الله المهدى أبا عبد الله الشيعى .

كان أبو عبد الله الشيعى يمنى الأصل من مدينة صنعاء ، وقد ولى الحسبة وقتًا ما فى بغداد، ثم ترك منصبه وسار إلى اليمن داعية من الدعاة حيث اتصل هناك بابن حوشب ، وأصبح من كبار أخصائه وأصدقائه ، فلما علم ابن حوشب بموت الحلوانى وأبى سفيان الداعيتين بالمغرب أوفد أبا عبد الله إليها وقال له : (إن أرض كتامه من بلاد المغرب قد حرثها الحلوانى وأبو سفيان وقد ماتا، وليس لك غيرها، فبادر فإنها موطأة ممهدة لك) .

وخرج أبو عبد الله من اليمن إلى مكة ، وفى موسم الحج تعرف على الحاج من قبيلة كتامة، وتقرب إليهم ، وتظاهر بالزهد والتقشف ، فأعجبوا به ووثقوا فيه، وصحبهم فى عودتهم إلى بلادهم ونزل بينهم، وتسامعت به قبائل البربر، ووفدت عليه من كل مكان ، فعظم أمره وكثر أنصاره، وعند ذلك كشف عن شخصيته وأعلن عن أغراضه .

وبعد ثلاث سنوات من وصوله إلى بلاد المغرب – أى فى سنة ٢٩١هـ (٩٠٣م) – بدأ جهوده الحربية؛ فخضعت له مدن كثيرة ، وساعده على هذا النجاح ما كان قد أصاب الدولة الأغلبية – صاحبة الحكم فى تونس حينذاك – من ضعف وانحلال .

عند ذلك أرسل أبو عبد الله المهدى – الإمام الإسماعيلى صاحب الدعوة – وكان يقيم فى مدينة سلمية بالشام – يستدعيه للحضور إلى بلاد المغرب ، فأسرع بتلبية الدعوة وخرج من الشام ومعه أموال وفيرة، ويقال إن الخليفة العباسى علم بخروجه ، فأرسل إلى عماله فى مصر وأفريقية يوصيهم بالقبض عليه. ولكن عبيد الله استطاع بالتستر تارة، وببذل المال تارة أخرى،

أن يفر من مراقبة الولاة . وانتهت به الرحلة إلى مدينة سجلماسة فى المغرب الأقصى حيث قبض عليه واليها وسجنه بها.

وفى سنة ٢٩٦هـ تم لأبى عبد الله النصر النهائى على الولايات القائمة فى شمال أفريقيا : دولة بنى مدرار فى سجلماسة، ودولة بنى رستم فى تاهرت، ودولة الأغالبة فى أفريقية (تونس) ، وأطلق سراح عبيد الله ، فقاد الجيش بنفسه، وسار حتى دخل مدينة رقادة فى سنة ٢٩٧هـ، ونزل بقصر من قصورها. وفى يوم الجمعة خطب باسمه على منابر رقادة والقيروان – بعد أن قضى نهائيًا على ملك الأغالبة – ولقب بأمير المؤمنين عبيد الله المهدى.

وهكذا نجح الشيعة الإسماعيلية فى الوصول إلى عرش الخلافة بعد جهاد طويل مرير، كان بعضه فى العلن إلى عهد محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق ، وبعضه فى السر ويمتد من محمد بن إسماعيل إلى نجاح الدولة وظهور عبيد الله. ويعرف هذا العهد الثانى بعهد الكتمان، فقد كتمت فيه أسماء الأئمة تقية وخوفًا ، وكان يقوم بالدعوة العلنية ويشرف علي توجيهها الأئمة المستودعون من نسل عبد الله بن ميمون القداح ، ومن هنا ثار الجدال حول صحة النسب الفاطمى، فقد أصبح كتمان أسماء الأئمة المستقرين من محمد بن إسماعيل إلى عبيد الله المهدى جزءًا من المذهب ، ولم يكن الخلفاء الفاطميون يسيغون إعلان هذه الأسماء حتى يعد نجاح الدعوة وتوليهم الخلافة .

ومن هذه الثغرة دخل أعداء الدولة الفاطمية من العباسيين فى المشرق، والأمويين فى الأندلس للطعن فى نسب الأئمة الفاطميين ، يريدون بذلك أن يقوضوا الدعائم التى قامت عليها الدولة .

وإلى هذا الشك – الذى ثار حول نسب عبيد الله المهدى منذ اللحظة الأولى – يرجع بعض المؤرخين السبب فى النزاع الذى قام بين عبيد الله وقائده أبى عبد الله، والذى انتهى بقتل هذا الأخير بعد قيام الدولة بنحو عام.

الخلفاء الفاطميون

(١)

فى المغــرب

١ - ٤ ربيع الآخر ٢٩٧هـ (٩٠٩م) المهدى أبو محمد عبد الله

ت ١٤ ربيع الأول ٣٢٢هـ

٢ - ١٤ ربيع الأول ٣٢٢هـ (٩٣٤م) القائم بأمر الله أبو القاسم نزار

ت ١٣ شوال ٣٣٤هـ

٣ - ١٣ شوال ٣٣٤هـ (٩٤٥م) المنصور بنصر الله أبو الطاهر إسماعيل

ت ٢٩ شوال ٣٤١هـ

٤ - أول ذى القعدة ٣٤١هـ (٩٥٢م) المعز لدين الله أبو تميم معد

ت ٣ ربيع الآخر ٣٦٥هـ

(٢)

فى مصر

(وفى شعبان ٣٥٨هـ فتحت مصر ، وفى رمضان ٣٦٢هـ دخل المعز القاهرة)

٥ - ٥ ربيع آخر ٣٦٥ (٩٧٥م) العزيز بالله أبو منصور نزار

ت ٢٨ رمضان ٣٨٦هـ

٦ - ٢٩ رمضان ٣٨٦هـ (٩٩٦م) الحاكم بأمر الله أبو على منصور

اختفى فى ٢٧ شوال ٤١١هـ

٧ - ١٠ ذو الحجة ٤١١هـ (١٠٢٠م) الظاهر لإعزاز دين الله أبو الحسن على

ت ١٥ شعبان ٤٢٧هـ

٨ - ١٥ شعبان ٤٢٧هـ (١٠٣٥م) المنتصر بالله أبو تميم معد

ت ١٨ ذو الحجة ٤٨٧هـ

٩ - ذو الحجة ٤٨٧هـ (١٠٩٤م) المستعلى بالله أبو القاسم أحمد

ت ١٤ صفر ٤٩٥هـ

١٠ - ١٤ صفر ٤٩٥هـ (١١٠٠م) الآمر بأحكام الله أبو على منصور

قتل ٢ ذو القعدة ٥٢٤هـ

١١ - ١٥ المحرم ٥٢٥هـ (١١٣٠م) الحافظ لدين الله أبو ميمون عبد المجيد

ت ٥ جمادى الآخرة ٥٤٤هـ

١٢ - ٦ جمادى الآخرة ٥٤٤هـ (١١٤٩م) الظافر بأمر الله أبو منصور إسماعيل

قتل ٣٠ المحرم ٥٤٩هـ

١٣ - أول صفر ٥٤٩هـ (١١٥٤م) الفائز بنصر الله أبو القاسم عيسى

ت ١٧ رجب ٥٥٥هـ

١٤ - رجب ٥٥٥هـ (١١٦٠م) العاضد لدين الله أبو محمد عبد الله

خلع ٣ المحرم ومات ١٠ المحرم ٥٦٧هـ

(٢)

الفاطميون فى المغرب

قضت الدولة الفاطمية فى المغرب - منذ قيامها إلى أن انتقلت إلى مصر - نيفا ونصف قرن، وتولى الحكم فى هذه المدة أربعة من خلفائها، هم : المهدى أبو محمد عبيد الله / والقائم بأمر الله أبو القاسم نزار ، والمنصور بنصر الله أبو الطاهر إسماعيل، والمعز لدين الله أبو تميم معد .

وقد بذل هؤلاء الخلفاء جهودًا كثيرة للتمكين للدولة وتقويتها ، فقضوا على كل القوى المعارضة .

وبعد أن ذلل المهدى للصعوبات الأولى التى اعترضت طريقه، وبعد أن هدأت الفتن فى ملكه، ودان له الجميع بالولاء، بدأ يفكر فى بناء عاصمة جديدة لدولته ، لأنه لم يكن لأهل القيروان - عاصمة الأغالبة -، فخرج يرتاد موضعًا قريبًا على ساحل البحر، فلم يجد أحسن ولا أحصن من موضع المهدية (وهى جزيرة متصلة بالبر كهيئة كف متصل بزند) ، فبنى هناك فى ذى الحجة سنة ٣٠٣هـ عاصمته الجديدة، وبنى حولها سورًا شاهقًا من الحجر الأبيض لحمايتها والدفاع عنها، وجعل للسور أبراجًا وأبوابًا عظيمة .

وكان عبيد الله يدرك أن دولته الجديدة لا تزال نحيط بها الأخطار من الداخل والخارج، فاتخذ فى مدينته الجديدة كل وسائل الدفاع التى يقتضيها عصره، فأمر أن تنقر دار صناعة فى الجبل تسع مائتى شينى (نوع من السفن الحربية) وعليها باب مغلق ، وأنشأ فى باطن أرضها أهراء للطعام، ومصانع للماء، ولما انتهى من إنشاء هذه التحصينات بنى فيها الدور والقصور .

وقد بنى ابنه القائم بعد ذلك فى سنة ٣٣١هـ مدينة ثالثة أسماها المحمدية، كما بنى المنصور فى سنة ٣٣٨هـ مدينة ثالثة أسماها المنصورية أو المنصورة، وهما مدينتان داخليتان، غير أنه لم يكن لهاتين المدينتين من الشأن أو الأثر فى سياسة الدولة وحياتها قدر ما كان للمهدية ، فقد كانت المهدية مركزًا حصينًا يعتمد على البحر إذا نشبت ثورة فى الداخل، كما كانت مركزًا مناسبًا لإرسال الحملات الحربية المتتابعة لإخضاع الثورات التى قامت فى صقلية، أو لمهاجمة شواطىء إيطاليا ومدنها الساحلية والجزر المحيطة بها، مثل جزيرتى كورسيكا وسردينيا .

لم يصف الملك لدولة الفاطميين بعد قيامها ، بل اعترضتها صعوبات كثيرة كان أشدها وأخطرها ثورة البربر - السكان الأصليين - بزعامة أبى زيد الخارجى ، وذلك أن الدولة اعتمدت عند قيامها على قبيلتين كبيرتين من قبائل شمال أفريقيا، وهما قبيلة كتامة وقبيلة

صنهاجة، أما عامة البربر – وهم قوم فى طبيعتهم حب للثورة والخروج ، ويميلون للحرب والقتال – فلم يدينوا للفواطم بالولاء، بل لعله آذاهم أن تنجح هذه الدولة العربية الوافدة من المشرق فى تكوين ملك لها جديد فى بلادهم ، ولذلك لم يكد يعلن أبو يزيد الخارجى العصيان على الدولة حتى التفت حوله معظم قبائل البربر، وناصروه مدة طويلة ، إلى أن تمكن خلفاء الفاطميين من القضاء على هذه الفتنة.

وثورة أبى يزيد فى الواقع ثورة قومية مذهبية ، فهى ثورة قومية لأن البربر – وهم السكان الأصليون لشمال أفريقيا – إنما قاموا للقضاء على هذا الغزو الخارجي ولاسترداده استقلالهم، وهى ثورة مذهبية لأن زعيمها أبا يزيد كان من الخوارج النكارية، فهو لا يؤمن بمبادئ الشيعة التى قامت على أسسها الدولة الفاطمية .

وقد بدأ أبو يزيد يستكثر من الأنصار فى خلافة المهدى ، غير أنه لم يشتد بأسه إلا فى عهدى القائم والمنصور ، فقد بدأ ثورته على الدولة فى سنة ٣٣٢هـ وظلت فتنته قائمة حى سنة ٣٣٦هـ، وكانت فتنة خطيرة كادت تقضى على الدولة فى مهدها ، وبذل الخليفتان القائم والمنصور جهودًا جبارة فى مقاتلة أبى يزيد وأتباعه وجيشه إلى أن تمكن القائم أخيرًا من القضاء على هذه الفتنة وقتل زعيمها، وبذلك استقرت الدولة على أسس قوية متينة، وبدأت توجه جهودها نحو توسيع ملكها غربا وشرقا .

قام الخلفاء الفاطميون الثلاثة الأول بمحاولات لتوسيع ملكهم غربًا، غير أن هذه المحاولات لم يكن لها من الشأن والخطورة ما كان لمحاولة الخليفة الرابع المعز لدين الله ، وذلك أن تنظيم الدولة الجديدة وثورة أبى يزيد استنفدتا جهود هؤلاء الخلفاء الثلاثة وشغلناهم عن التفكير الجدى فى توسيع ملكهم وإخضاع بقية شمال أفريقيا، فلما ولى المعز عرش الخلافة، استمال إليه – بالسياسة والإحسان – بقية الثائرين من قبائل البربر. وفى سنة ٣٤٧هـ أعد جيشًا عظيمًا، فجعل قيادته لرجلين : وزيره جوهر الصقلى ، وزيرى بن مناد الصنهاجى، وأمرها بالمسير إلى المغرب الأقصى وفتحه .

وسار الجيش إلى أن وصل إلى مدينة فاس ، فاستعصت عليه قليلاً ، فتركها إلى سجلماسة، وكان يحكمها محمد بن واسول، وكان قد لقب نفسه بالشاكر لله، وخوطب بأمير المؤمنين ، وضرب السكة باسمه مدة ستة عشر عامًا، فلما سمع بمقدم جوهر فر من المدينة، ثم أسر وحمل إلى جوهر بعد أن استولى على المدينة .

وترك جوهر سجلماسة وتقدم حتى وصل إلى المحيط الأطلسى (فأمر أن يصطاد له من سمكه، فاصطادوا له، فجعله فى قلال الماء، وحمله إلى المعز) . وقصد جوهر فى عودته إلى فاس، وظل محاصرًا لها إلى أن استولى عليها؛ وبذلك امتد ملك المعز من تونس إلى المحيط الأطلسى ، ويقول ابن تعزى بردى فى ترجمته للمعز : (ووطأ له جوهر من أفريقية إلى البحر سوى مدينة سبتة، فإنها بقيت لبنى أمية أصحاب الأندلس) .

(٣)

الفتح الفاطمى لمصر

كان الغرض الأساسى الذى سعى العلويون دائمًا لتحقيقه هو تكوين خلافة جديدة تقضى على الخلافة العباسية السنية وترثها فى ملك العالم الإسلامى ، وقد رأينا كيف نجح الفاطميون فى تحقيق الشطر الأول من غرضهم ، فأقاموا دولتهم فى المغرب ، ولكنهم لم ينسوا بعد نجاحهم الشطر الثانى والأهم وهو القضاء على الدولة العباسية ، ومصر هى أول جزء من أملاك العباسيين يجاور الدولة الفاطمية من ناحية الشرق .

لهذا كانت مصر حلم الفاطميين منذ اللحظة الأولى ، ولهذا لم تكد الأمور تستقر نوعًا ما للمهدى - الخليفة الأول - حتى أعد العدة للاتجاه شرقًا وغزو مصر، فأرسل فى سنة ٣٠١هـ جيشًا لتحقيق هذا الغرض، ثم أرسل فى سنة ٣٠٧هـ حملة أخرى، ولكنهما منيتا بالفشل . وقد حذا حذوه ابنه القائم ، فأرسل فى سنة ٣٢١هـ حملة ثالثة ، ولكنها لم تكن أسعد حظًا من سابقتيها، ولم يكتب النجاح إلا للغزوة الرابعة التى تمت فى عهد المعز لدين الله .

وقد ساعد على نجاح هذه الغزوة الرابعة أمور كثيرة ، أهمها ضعف الخلافة العباسية صاحبة السيادة على مصر، وضعف الدولة الإخشيدية صاحبة السلطان الفعلى فيها .

أما الخلافة العباسية فقد بدأت عوامل الضعف تتسلل إلى كيانها فى العصر العباسى الثانى، فاستبد الأتراك بشئون الحكم الفعلية حتى غدا الخلفاء كالدمى فى أيديهم يحركونهم كيف شاءوا، وانطبق عليهم عند ذاك قول الشاعر :

خليفـــة فى قفص   بين وصيف وبغـــا
يقـول مـا قالا لـه   كما تقول الببغـــا

وأدى هذا الضعف إلى اجتراء كل طموح أو محب للشغب أو راغب فى السلطة إلى الثورة، فقامت ثورة الزنج فى إقليم البصرة والجزء الجنوبى الغربى من فارس، وظلت مشتعلة خمس عشرة سنة (٢٥٥هـ - ٢٧٠هـ)، ثم تلتها ثورة القرامطة الذين تقدموا حتى ملكوا بادية الشام وجنوبه، وهددوا حدود مصر الشرقية، وعاثوا فى الجزيرة العربية فسادًا. واستلبوا الحجر الأسود حيث بقى معهم مدة اثنين وعشرين عامًا، ولم يردوه إلا بعد أن دفع لهم الخليفة العباسى مبلغًا كبيرًا من المال، وصاحب هذه الثورات انفصال الأطراف وقيام دول مستقلة فيها.

ففى الشرق قامت الدول الصفارية والسامانية والطاهرية، وفى الغرب قامت الدولتان الطولونية والإخشيدية.

وفى قلب الدولة نفسها، فى العراق، قامت دول ملكت زمام الحكم فى أيديها، ففى الشمال قامت الدولة الحمدانية فى نواحى الموصل وحلب، وطالما حاولوا دخول بغداد نفسها، وفى العاصمة بغداد قامت الدولة البويهية فى سنة ٤٤٣هـ، واستبدت بأمور الخلافة جميعا، فأصبحت للبويهيين الكلمة الأولى والعليا فى تولية الخلفاء وعزلهم بل وقتلهم، وصدق بذلك قول البيرونى فيهم: «إن الدولة والملك قد انتقلا من آل العباس إلى أل بويه، والذى بقى فى أيدى الدولة العباسية إنما هو أمر دينى اعتقادى، لا ملكى دنيوى» [١].

وفى مصر انتهت الأمور بعد موت محمد بن طغج الإخشيد فى سنة ٣٣٤هـ إلى الضعف، إذ لم يخلفه أحد من نسله له مقدرته وشجاعته، حقيقة لقد استبد كافور بالحكم دون ولدى الإخشيد، فاستطاع أن يخمد الثورات التى نشبت، وأن ينتصر على الحمدانيين، ولكن هذه الوثبة كانت أشبه شىء بصحوة الموت، فقد ساءت أحوال البلاد الاقتصادية، ففى سنة ٣٥٢هـ قصر النيل فى فيضانه، وحدث بمصر غلاء شديد نتجت عنه مجاعة ظلت نحو تسع سنوات، قاسى المصريون فى خلالها الشدائد، فحدث فى سنة ٣٥٣هـ مثلاً أن «عظم الغلاء، وانتقضت الأعمال لكثرة الفتن، ونهبت الضياع والغلات، وماج الناس فى مصر بسبب السعر، فدخلوا الجامع العتيق بالفسطاط فى يوم جمعة، وازدحموا عند المحراب، فمات رجل وامرأة فى الزحام، ولم تصل الجمعة يومئذ..».

وفى سنة ست وخمسين «لم يبلغ النيل سوى اثنى عشر ذراعًا وأصابع، ولم يقع مثل ذلك فى المملكة الإسلامية، وكان على إمارة مصر حينئذ الأستاذ كافور الإخشيدى، فعظم الأمر من شدة الغلاء».

وفى سنة ٣٥٧هـ مات كافور، فانهارت المقاومة، «وكثر الاضطراب، وتعددت الفتن، وكانت حروب كثيرة بين الجند والأمراء قتل فيها خلق كثير، وانتهبت أسواق البلد، وأحرقت مواضع عديدة، فاشتد خوف الناس، وضاعت أموالهم وتغيرت نياتهم، وارتفع السعر، وتعذر وجود الأقوات حتى بيع القمح كل ويبة بدينار، واختلف العسكر، فلحق الكثير منهم بالحسن بن عبد الله بن طغج - وهو يومئذ بالرملة - وكاتب الكثير منهم المعز لدين الله الفاطمى، وعظم الإرجاف بمسير القرامطة إلى مصر»، وتواترت الأخبار بمجىء عساكر المعز من المغرب، إلى أن دخلت سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة ودخل القائد جوهر بعساكر الإمام المعز لدين الله..» [٢].

---

(١) البيرونى: الآثار الباقية، ص ١٣٢.

(٢) المقريزى: إغاثة الأمة بكشف الغمة، نشر زيادة والشيال، ص ١٢ - ١٣.

هذه صورة رائعة للحالة فى مصر قبيل الغزو الفاطمى، رسمها بقلمه المبدع تقى الدين المقريزى زعيم مؤرخى مصر الإسلامية، ويستطيع أى فنان أن يحيلها بريشته وألوانه إلى لوحة ناطقة نرى فيها عوامل الضعف وأسباب الانهيار وقد تشابكت وأخذ بعضها بخناق بعض، فالنيل قد قصر فى فيضانه سنة بعد أخرى، والأسعار قد ارتفعت، والأقوات قد شحت، والمجاعة قد عمت، والوباء قد انتشر، والجيش قد انقسم إلى فرق وشيع، فلحق نفر منهم بحاكم فلسطين الإخشيدى، وكاتب نفر آخر المعز لدين الله فى المغرب، والأعداء الطامعون يحيقون بمصر من شرق ومن غرب ويطرقون أبوابها، فمن الشرق القرامطة، ومن الغرب الفاطميون، والشعب وسط هذا كله تائه ضائع قد تملكه الخوف واستولى عليه الفزع، يثور مرة فلا يملك إلا أن يلجأ إلى المسجد الجامع فى عاصمة الفسطاط، ثم يدور ببصره فى كل الأنحاء يبحث عن منقذ ولكن البصر يرتد إليه خاسئًا وهو حسير، فيلتمس المنقذ من الخارج، ويرجف بقرب مقدم القرامطة، ويتحدث عن مجىء المعز لدين الله.

وكانت عين المعز فى ذلك الوقت على مصر ترقب مصائر الأمور فيها، وكان دعاته منبثين فى ربوعها ينشرون الدعوة له ويمهدون السبيل لمجيئه، وكان هو يعد العد للغزو، فجمع كل ما استطاع جمعه من مال حتى ليقال إنه صرف على إعداد الجيش أربعة وعشرين مليونا من الدنانير عدا ما حمله ألف جمل من صناديق الذهب للصرف منها على الحملة، وحشد الجيش كل من استطاع حشده من جنده، حتى ليقال إنه كان يزيد على مائة ألف جندى، وحتى وصفه أحد المصريين عند رؤيته بأنه «مثل جمع عرفات كثرة وعدة».

واختار المعز لقيادة هذا الجيش قائده القدير «جوهر الصقلى» الذى مهد له ملك شمال أفريقيا كله، فقد كان يتفاءل به ويؤمن بمقدرته الحربية حتى لقد قال مرة لزعماء المغرب: «والله لو خرج جوهر هذا وحده لفتح مصر».

وخرج جوهر بجيشه فى اليوم الرابع عشر من شهر ربيع الثانى سنة ٣٥٨هـ، وسار فى نفس الطريق الذى سلكه فيما بعد روميل، ولكنه كان يعلم مبلغ ما يعانيه الجيش من صعاب وعقبات عند عبوره هذه الصحراء الممتدة الجدباء، ولهذا فقد عبر الطرق وحفر الآبار، وبنى المنازل للاستراحة على طول الطريق من تونس إلى مصر.

ووصل جوهر الإسكندرية ودخلها دون قتال، فلما وصلت الأخبار بمقدمه إلى الفسطاط، اضطرب أهلها وتملكهم الذعر، واتفقوا مع الوزير جعفر بن الفرات أن يرسل فى طلب الصلح والأمان، فكون الوزير وفدا من أعيان البلد، وجعل على رأسه الشريف أبا جعفر مسلم بن عبد الله، وسار الوفد حتى قابل جوهر - وكان فى طريقه من الإسكندرية إلى الفسطاط - فقبل دعوتهم وكتب لهم أمانًا، وعدهم فيه بما يأتى:

١ - إعزاز المصريين وحمايتهم والجهاد عنهم.

٢ - نشر الأمن، وتأمين طريق الحج الذى تعطل بسبب غارات القرامطة.

٣ - معالجة الحالة الاقتصادية، وتجديد السكة، وتنظيم أمور المواريث.

٤ - ترميم المساجد وتزينها بالفرش والإيقاد، وأن تصرف للمؤذنين وقومة المساجد وأئمتها أرزاقهم من بيت المال.

٥ - أن تكفل الحرية الدينية للمصريين يتبعون المذهب الذى يريدون، ويؤدون فرائضهم فى المساجد فى حرية تامة.

٦ - أن تتمتع الأقليات غير الإسلامية بالحرية الدينية كذلك.

وعاد الوفد إلى الفسطاط، فقرأوا العهد والأمان على الوزير والجند وعلم به الناس. أما العامة فقد رضيت به، وأما الجند فقد انقسموا على أنفسهم، وأصر الإخشيدية والكافورية على القتال، وعبروا إلى الجزيرة وتحصنوا بها، غير أنهم يكونوا على شيء من القوة، كما كانت تنقصهم الوحدة والقيادة الحكيمة، فلم يلبثوا بعد اشتباكهم فى القتال مع جيش جوهر أن هزموا وولوا الأدبار.

وشاع الذعر ثانية بين الناس فى الفسطاط، وطلبوا إلى الشريف أبى جعفر مسلم أن يسأل جوهر إعادة الأمان، ففعل، وأعيد الأمان، وهدأت النفوس، وخرج الوزير جعفر بن الفرات ومعه الأشراف ووجوه البلد يوم الثلاثاء السابع عشر من شعبان ٣٥٨هـ لمقابلة جوهر، ودخل جوهر الفسطاط على رأس جيشه، الشريف أبو جعفر عن يمينه، والوزير ابن الفرات عن شماله، وشق المدينة ونزل فى مناخه الذى هو موضع القاهرة الآن.

الباب الثاني

مصر فى العصر الفاطمى

الفصل الأول : تأسيس القاهرة.

الفصل الثانى : الجامع الأزهر.

الفصل الثالث: العصر الفاطمى الأول، عصر القوة والازدهار.

الفصل الرابع : العصر الفاطمى الثانى، عصر الضعف والانحلال.

الفصل الخامس: نهاية الدولة الفاطمية وقيام دولة صلاح الدين.

الفصل الأول

تأسيس القــاهرة

كانت العاصمة الأولى الإسلامية هى الفسطاط التى أسسها عمرو بن العاص، ولما فر مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية إلى مصر تبعه القائد العباسى صالح بن على، ونـزل بعساكره شمال الفسطاط، وبعد أن هزم مروان وقتله بنى عاصمة جديدة حيث نـزل بجنده، وأسماها العسكر، وبعد أن استقل أحمد بن طولون بمصر أسس عاصمته الجديدة القطائع شمال شرقى العسكر، ولما خضعت مصر لجوهر مر بجنده فى الفسطاط - كما ذكرنا - ثم تركها ونزل بجنده فى المناخ لواقع شمال شرقى القطائع، ووضع أساس العاصمة الفاطمية الجديدة - القاهرة - فى نفس الليلة - ١٧ شعبان سنة ٣٥٨ هـ -.

وكان موقع المدينة قبل تأسيسها صحراء مغطاة بالرمال يمر بها الناس فى مسيرهم من الفسطاط إلى عين شمس، ولم يكن بها عند نزول جوهر سوى بستان الإخشيد المعروف بالبستان الكافورى، ودير للنصارى يعرف بدير العظام، وبناء يعرف بقصر الشوك.

وقيل فى سبب تسمية المدينة بالقاهرة أن جوهرا لما أراد تأسيس العاصمة الجديدة أحضر المنجمين، وأمرهم باختيار طالع سعيد لوضع الأساس، فجعلوا بدائر السور قوائم من خشب، ووصلوا بين كل قائمتين بحبل علقوا فيه أجراسًا، وقالوا للعمال: إذا تحركت الأجراس فالقوا ما بأيديكم من طين وحجارة. وبينما العمال منتظرون إذ وقف غراب على أحد تلك الحبال، فتحركت الأجراس جميعا وبدأ العمال فى البناء، فصاح المنجمون: لا، لا، القاهر فى الطالع، فسميت المدينة بالقاهرة، والقاهر هو المريخ.

ولكننا لا نميل إلى تصديق هذا الرأى، فهو أقرب إلى القصص الخيالية، ويؤيدنا فى شكنا المقريزى نفسه راوى هذه القصة، فإنه يقول فى موضع آخر إن جوهرا «لما سار من الجيزة بعد زوال الشمس من يوم الثلاثاء لسبع عشرة خلت من شعبان سنة ٣٥٨هـ بعساكره، وقصد إلى مناخه الذى رسمه له مولاه الإمام المعز لدين الله أبو تميم معد، واستقرت به الدار اختط القصر، وأصبح المصريون يهنئونه، فوجدوه قد حفر الأساس فى الليل، فأدار السور اللبن، وسماها المنصورية، إلى أن قدم المعز لدين الله من بلاد المغرب إلى مصر، ونزل بها فسماها القاهرة»[1].

وهذا فيما نرى السبب الصحيح لتسمية القاهرة، فإن جوهرًا عندما وضع الأساس للمدينة الجديدة سماها «المنصورية»، ولعله كان يريد أن يتقرب إلى خليفته المعز بإحياء ذكرى والده

---

(١) المقريزى: الخطط جـ ٢، ص ٢٠٤.

الخليفة المنصور، فسمى العاصمة الجديدة باسمه، واختار لها موقعًا خارج العاصمة القديمة الفسطاط لينزل بها الجند، كما كانت المنصورية خارج القيروان، وسمى بابين من أبواب المدينة الجديدة باسمى: زويلة والفتوح، وهما اسمان لبابين بمدينة المنصورية فى المغرب.

فلما أتى المعز إلى مصر سماها «القاهرة» تفاؤلاً، يريد بذلك أنها ستقهر الدولة القديمة التى قام الفاطميون لمنافستها والقضاء عليها، وهى الخلافة العباسية، فالمعز نفسه هو صاحب هذه التسمية، وقد اختارها وهو بعد فى المغرب، فقد روى أنه قال عند وداعه لجوهر أمام جمع من شيوخ كتامة «والله لو خرج جوهر هذا وحده لفتح مصر، ولتدخلن إلى مصر بالأردية من غير حرب، ولتنزلن فى خرابات ابن طولون، وتبنى مدينة تسمى القاهرة تقهر الدنيا»[١].

ومما ينفى قصة الغراب والحبال نفيًا باتًا أن المسعودى[٢] يروى قصة شديدة الشبه جدًا بهذه القصة وينسبها إلى الإسكندر عند بنائه الإسكندرية، فلعل المقريزى نقلها عن مراجع متأخرة شبه عليها الأمر عند الكلام عن قاهرة المعز فاقتبست ما قيل عن إسكندرية الإسكندر.

وأول ما بنى فى القاهرة القصر الكبير ليكون سكنًا للخليفة وأتباعه، ومقرًا لدواوين الحكم، وضع جوهر أساس هذا القصر ليلة نزل بالمناخ.

وفى يوم السبت لست بقين من جمادى الآخرة سنة ٣٥٩ هـ (٥ مايو سنة ٩٧٠م) اختطت القاهرة، فنزلت كل قبيلة أو فرقة من فرق الجيش فى مكان خاص بها وسميت خططها بالحارات، ومنها حارة زويلة، ونزلت بها قبيلة زويلة، وحارة كتامة، ونزلت بها قبيلة كتامة، وحارة البرقية، ونزل بها قوم من برقة.. وهكذا.

ويقال فى سبب اختيار جوهر لهذا المكان كى يبنى مدينته عليه إنه رغب «أن تصير حصنًا فيما بين القرامطة وبين مدينة مصر ليقاتلهم من دونها، فأدار السور اللبن على مناخه الذى نزل فيه بعساكره، وأنشأ من داخل السور جامعًا وقصرًا، وأعدها معقلاً يتحصن به وتنزله عساكره، واحتفر الخندق من الجهة الشامية ليمنع اقتحام عساكر القرامطة إلى القاهرة وما وراءها من المدينة»[٣].

وكانت القاهرة عند إنشائها صغيرة المساحة، ويقدر «على مبارك» فى كتابه «الخطط» أن كل جانب من جوانبها كان يبلغ وقتذاك ألفا ومائتى متر، وأن مساحتها كانت ٣٤٠ فدانًا (الفدان ٤٢٠٠ متر)، وكان القصر يشغل خمس هذه المساحة، أى نحو سبعين فدانًا، وكان

---

(١) المقريزى: اتعاظ الحنفا، نشر الشيال، ص ١٦٢.

(٢) المسعودى: مروج الذهب، ج ١، ص ٢١٥.

(٣) المقريزى: الخطط، ج ٢، ص ١٧٩ – ١٨٠.

بستان كافور يشغل عشر المساحة أى ٣٠ فدانا، وكان الميدان المعد لعرض الجند يشغل ٣٥ فدانا أخرى، أما الباقى وقدره مائتا فدان فقد خصص لنزول فرق الجند المختلفة.

وكان السور الأول الذى بناه جوهر من اللبن، وقد أدرك المقريزى قطعة منه كانت باقية حتى سنة ٨٠٣ هـ (١٤٠١م)، وأعجب ببنائه، وذكر أن اللبنة الواحدة منه كانت قدر ذراع فى ثلثى ذراع، كما ذكر أن عرض جدار السور عدة أذرع، وأنه يسع أن يمر به فارسان:

وكان للسور عدة أبواب فى جهاته المختلفة، فكان فى جهته القبلية بابان متلاصقان يقال لهما «بابا زويلة»، وفى جهته البحرية بابان متباعدان، هما: باب الفتوح، وباب النصر؛ وفى جهته الشرقية بابان، هما باب البرقية والباب الجديد؛ وفى جهته الغربية بابان، هما: باب القنطرة وباب سعادة. ثم أضيفت أبواب أخرى بعد نمو المدينة وتجديد السور.

ولم يكن هذا السور هو الوحيد الذى بنى حول القاهرة، وإنما بنى بعده سوران آخران، أحدهما بناه أمير الجيوش بدر الجمالى وزير الخليفة المستنصر فى سنة ٤٨٠ هـ (١٠٨٧م) ليحيط بزيارات أضيفت إلى القاهرة فى الجهتين البحرية والقبلية، وكان هذا السور من اللبن وأبوابه من الحجارة، ولازال بابان من أبواب هذا السور، وهما باب النصر وباب الفتوح، موجودين حتى اليوم وعليهما نقوش تحمل اسم منشئهما (بدر الجمالى) وتاريخ انشائهما.

وبنى السور الثانى صلاح الدين يوسف بن أيوب، بدأ عمارته سنة ٥٦٦ هـ وهو وزير للخليفة الفاطمى العاضد، وفى سنة ٥٦٩ هـ عين قائده بهاء الدين قراقوش للإشراف على إتمامه، وقد بنى هذا السور كله من الحجر، وكان يضم داخله مدينتى القاهرة ومصر - أى الفسطاط - ولا تزال أجزاء منه باقية حتى اليوم جنوب أطلال الفسطاط، وكان محيط هذا السور ٢٩٣٠٢ ذراع، وكان يبدأ فى الشمال عند قلعة المقس (ميدان باب الحديد الحالى حيث كان يجرى النيل وقتذاك) ميناء القاهرة على النيل، ويدور حول القاهرة والفسطاط جميعا ثم ينتهى جنوبًا عند ساحل مصر (الفسطاط)، وكان خارج السور خندق لحمايته وحماية المدينة، وبذلك كان حدًا المدينة الشمالى والجنوبى ينتهيان عند السور، أما الحد الغربى فكان خليج أمير المؤمنين، كما كان جبل المقطم هو الحد الشرقى.

وكانت القاهرة فى العصر الفاطمى ضاحية ملوكية، يسكنها الخليفة وحرمه وجنده؛ وخواصه، وكانت - كما وصفها المقريزى -: «معقل قتال يتحصن بها ويلتجئ إليها»، فلما قدم إلى مصر أمير الجيوش بدر الجمالى أثناء الشدة العظمى التى كانت فى عهد المستنصر وجد أن القاهرة مدينة خالية غير عامرة «فأباح للناس من العسكرية والملحية والأرمن، وكل من وصلت قدرته إلى عمارة بأن يعمر ما شاء فى القاهرة مما خلاً من فسطاط مصر ومات أهله، فأخذ الناس ما كان هناك من أنقاض الدور وغيرها وعمروا به المنازل فى القاهرة وسكنوها»[1].

---

(١) المقريزى: الخطط، ج ٢، ص ١٨٤.

ولما انتهت الدولة الفاطمية وولى حكم مصر السلطان صلاح الدين «نقلها عما كانت عليه من الصيانة، وجعلها مبتذلة لسكن العامة والجمهور وحط من مقدار قصور الخلافة، وأسكن فى بعضها، وتهدم البعض، وأزيلت معالمه، وتغيرت معاهده، فصارت خططًا وحارات وشوارع ومسالك وأزقة، ونزل السلطان (صلاح الدين) منها فى دار الوزارة الكبرى.. إلخ».

ثم تخطيط القاهرة بعد الفتح الفاطمى بعام، وفى يوم السبت لست بقين من جمادى الآخرة سنة ٣٥٩ هـ (٥ مايو سنة ٩٧٠م) بدأ جوهر عمارة الجامع الأزهر فى الجنوب الشرقى من القصر الكبير، وتم بناؤه بعد عامين، ففتح للصلاة أول مرة فى شهر رمضان سنة ٣٦١ هـ (٩٧٢م).

وظل جوهر يحكم مصر، ويمهد الفتوح فى الأقاليم المجاورة نحو أربع سنوات، ولما تم له إخضاع مصر والشام والحجاز، وبعد أن أكمل تأسيس القاهرة وبناء القصر والمسجد الجامع، أرسل للمعز يستدعيه إلى مصر، وخرج المعز من المنصورية يوم الاثنين لثمان من شوال سنة ٣٦١ هـ؛ وفى يوم الثلاثاء الخامس من شهر رمضان سنة ٣٦٢ هـ وصل القاهرة، ولما دخل القصر خر ساجدًا لله تعالى ثم صلى ركعتين.

الفصل الثانى

الجــامع الأزهـر

كانت القاهرة - كما أسلفنا - رابعة العواصم المصرية فى العصر الإسلامى، وكـانت سياسـة الدول الإسلامية تقضى بأن ينشأ فى كل عاصمة جديدة مسجد جامع، وترجع هذه السياسة إلى عهد عمر بن الخطاب، فقد كتب إلى ولاته على الأقاليم المفتوحة - ومنهم عمرو بن العاص - أن يتخذ كل منهم فى عاصمته مسجدًا للجماعة، واتباعًا لهـذه السياسـة بنـى عمـرو مسـجده فـى الفسطاط، فلما أنشئت العسكر فى أول العصر العباسى بنى فيها مسجد جـامع، وعندمـا أسـس أحمد بن طولون مدينة القطائع بنى فيها مسجده الجامع كذلك.

فهذه المساجد الجامعة كانت رمزًا لظفر المسـلمين، وكـانت مركـزًا للدعـوة الدينيـة، وفيـها كانت تقام صلاة الجماعة، كان يؤم الناس فى الصلاة - فى العصر الأول - ولاة مصر، فقد كـان الغرض الأساسى من الفتوح الإسلامية نشـر الديـن الجديـد، ولذلـك كـانت ولايـة الصلاة ذات أهمية كبرى، فكان الوالى على مصـر يجمـع بـين الولايـة علـى صلاتـها وخراجـها، أو يكتفـى بولايته على صلاتها، ويعين إلى جانبه وال آخر على خراجها.

وكانت المساجد أيضًا مقرًا لدواوين الحكـم، ومجلسًـا للقضـاة، ومعـاهد لنشـر العلـم، ومنـبرًا لإذاعة الأوامر الحكومية.

بنى الجامع الأزهر إذن وفى مصر مسجدان جامعان؛ جامع عمرو وجامع أحمد بـن طولـون، لأن جامع العسكر كان قد هدم وزالـت معالمـه، وقصـد الفـاطميون ببنـاء هـذا الجـامع أن يكـون مصلى للخليفة وجنوده، وأن يكون مسجدًا جامعًـا للعاصمـة الجديـدة، وأن يكـون مركـزًا لنشـر الدعوة الشيعية، وأن يكون رمزًا لانتصار الدولة الجديدة على الدولة العباسية.

بدئ فى إنشاء الجامع الأزهر فى ٢٤ جمادى الأولى سنة ٣٥٩ هـ (أبريـل ٩٧٠م) وتم بنـاؤه فى عامين وثلاثة أشهر، وافتتـح للصـلاة أول مـرة فـى يـوم الجمعـة السـابع مـن رمضـان سـنة ٣٦١ هـ (٩٧٢م).

وسمى الجـامع عنـد إنشـائه جـامع القـاهرة - أى باسـم العاصمـة الجديـدة - وظلـت هـذه التسمية غالبة عليه طول العصـر الفـاطمى، ولم يسم بالجـامع الأزهـر إلا فـى تـاريخ متـأخر، ودليلنا على ذلك أن معظم مؤرخى العصـر الفـاطمى - وفـى مقدمتـهم المسـبحى وابـن الطويـر - يذكرون هذا المسجد دائمًا باسم جامع القاهرة، وقلما يشيرون إليه باسم الجامع الأزهر.

ويرى البعض أن هذا المسجد سمى بالجامع الأزهر بعد إنشاء القصور الفاطمية فى عهد العزيز بالله، فقد كانت هذه القصور تسمى بالقصور الزاهرة، ومن ثم أطلق على الجامع اسم الجامع الأزهر، ولكنا نرجح أن هذه التسمية مشتقة من لفظ الزهراء، لقب السيدة فاطمة الزهراء، ابنة الرسول وزوج على بن أبى طالب، وإليها تنتسب الدولة الجديدة، وباسمها تسمى.

ولبث الجامع الأزهر موضع عناية الخلفاء الفاطميين جميعا ورعايتهم، فكان كل خليفة منهم يتولى الحكم يعمل على تجديده والزيادة فيه وتزيينه حتى زالت الدولة، وبدأت فى مصر دولة صلاح الدين، وهى دولة سنية قامت للقضاء على المذهب الشيعى، فأهمل الجامع الأزهر، لأنه كان المركز الرئيسى لنشر الدعوة الشيعية، وأبطل الخطبة فى الجامع الأزهر قاضى القضاة فى عهد صلاح الدين؛ وأسمه صدر الدين عبد الملك بن درباس، فقد كان شافعى المذهب، والمذهب الشافعى يمنع إقامة خطبتين للجمعة فى بلد واحد.

أبطل هذا القاضى الخطبة من الجامع الأزهر، وأقرها بالجامع الحاكمى، وظل الأزهر معطلاً من إقامة الجمعة فيه نحو مائة عام حتى ولى عرش مصر الظاهر بيبرس، فأعيدت الخطبة إلى الجامع، وعادت إليه أهميته، وعنى به كثيرًا فى عصر المماليك والعصور اللاحقة إلى وقتنا الحاضر.

كان للأزهر عند إنشائه الصفة الدينية الرسمية - شأنه فى ذلك شأن المساجد الجامعة الأخرى - ولكنه لم يلبث أن اتخذ صفة أخرى هامة هى الصفة العلمية التعليمية، وذلك منذ فكر الفاطميون فى نشر مذهبهم الجديد بواسطة دروس تلقى فى حلقاته.

وقد كانت المساجد الجامعة التى بنيت قبله - وخاصة جامع عمرو - مراكز لنشر العلم، وفى حلقاتها كانت تلقى الدروس فى الفقه والتفسير والحديث واللغة والأدب وسائر العلوم المختلفة، غير أن مسجدى عمرو وابن طولون كانا قد اتخذا لهما فى العصر الإسلامى الأول تقاليد علمية خاصة، فكان من الأوفق إذن أن يكون المسجد الجامع الجديد هو المركز الجديد لنشر المذهب الجديد.

يقول المقريزى: «وفى صفر سنة خمس وستين وثلاثمائة جلس على بن النعمان القاضى بجامع القاهرة المعروف بالجامع الأزهر وأملى مختصر أبيه فى الفقه عن أهل البيت.. وكان جمعًا عظيمًا، وأثبت أسماء الحاضرين»، فكانت هذه أول حلقة عقدت للتدريس فى الجامع الأزهر، ثم تتابعت حلقات بنى النعمان بعد ذلك لتدريس المذهب الشيعى.

وفى رمضان سنة ٣٦٩هـ (٩٨٠م) جلس يعقوب بن كلس - وزير الخليفة العزيز بالله - وقرأ على الناس كتابًا ألفه فى الفقه الشيعى على مذهب الإسماعيلية، وكان يجلس بعد ذلك لقراءته فى الأزهر، ويحضر دروسه الفقهاء والقضاة وكبار رجال الدولة.

ويعتبر الوزير ابن كلس أول من فكر فى جعل الجامع الأزهر معهدًا للدراسة المنتظمة، ففى سنة ٣٧٨ هـ (٩٨٨م) استأذن ابن كلس الخليفة العزيز بالله فى أن يعين بالأزهر جماعة من الفقهاء (أى الطلاب) للدرس والقراءة فى أوقات منتظمة مستمرة على أن تعقد حلقاتهم فى الأزهر كل يوم جمعة من بعد الصلاة حتى العصر، وكان عددهم خمسة وثلاثين فقيهًا، ورتب لهم العزيز - تنفيذًا لاقتراح ابن كلس - أرزاقًا وجرايات شهرية، وابنى لهم دارًا لسكناهم بجوار الجامع الأزهر، «وخلع عليهم يوم عيد الفطر وحملهم على بغلات..»، «وكان لهم أيضًا من مال الوزير صلة فى كل سنة..».

فمنذ هذا التاريخ اتخذ الأزهر صفته التعليمية الجامعية، فعين له طلبة متفرغون للدراسة، ووفرت الدولة لهؤلاء الطلاب كل ما يعينهم على الدراسة والتحصيل حتى لا تشغلهم مطالب الحياة أو السعى وراء الرزق، فرتبت لهم الأرزاق والجرايات، وبنت لهم المساكن،وقدمت لهم الكسوة فى كل عيد، ويسرت لهم سبل الركوب والانتقال.

وظلت هذه الصفة التعليمية الجامعية مميزة للجامع الأزهر طول العصر الفاطمى، فزاد عدد طلابه وأساتذته، وكثرت أروقته وحلقات التعليم فيه، ونمت الدراسة وازدهرت، حتى بدأ يجتذب إليه الطلاب والعلماء من خارج مصر. وتعطلت هذه الصفة التعليمية وقتًا ما فى العصر الأيوبى، ولكنها لم تلبث أن عادت إليه مرة أخرى أقوى وأعظم مما كانت عليه منذ عهد الظاهر بيبرس، وبرزت هذه الصفة بروزا واضحًا فى عصر المماليك وما تلاه من عصور، وساعد على هذا أن غزوات المغول فى المشرق قضت على معظم المدارس فيه، وأن معاهد العلم والمساجد الإسلامية المزدهرة بالمغرب انتهى أمرها أيضًا حوالى هذا العصر إلى الضعف والانحلال، وتوافد العلماء من الشرق ومن الغرب إلى مصر يجدون فيها الملجأ والملاذ، فأصبحت القاهرة فى العصر المملوكى مركز العالم الإسلامى، وأصبح الأزهر قبلة طلاب العلم من مختلف جهات العالم الإسلامى.

وقد مرت بالأزهر عصور ازدهار وعصور اضمحلال، ولكنه قاوم الأعاصير التى قابلته، وحافظ على المكانة المرموقة التى يتمتع بها فى قلب كل مسلم فى جميع أنحاء الأرض، فإنه يعتبر حتى اليوم أكبر معهد للدراسات الإسلامية.

الفصل الثالث

العصر الفـــاطمى الأول

عصر القوة والازدهار

حكمت الدولة الفاطمية مصر مدة تنيف على القرنين (٣٥٨هـ - ٥٦٧هـ = ٩٦٩م - ١١٧١م)، غير أنا نستطيع أن نقسم هذه المدة قسمين على وجه التقريب، كانت الخلافة الفاطمية تتسم فى كل منهما بسمات وصفات خاصة.

ففى القسم الأول ومداه قرابة قرن من الزمن وينتهى فى النصف الأول من حكم الخليفة المستنصر تقريبًا (حوالى سنة ٤٥٧هـ)، بذلت الخلافة الفاطمية جهدها لتنظيم شئون مصر الداخلية، فنشرت الأمن فى ربوعها، ووضعت النظم الإدارية الدقيقة، وعنيت بالجيش والأسطول، ونمت الزراعة، ونهضت بالتجارة الداخلية، وشجعت الآداب والعلوم والفنون.

وفى هذه الفترة أيضًا امتاز خلفاء الفاطميين بقوة الشخصية، فكانت السلطة كلها فى أيديهم، ولهم على الشعب ورجال الدولة النفوذ الأول، وللوزراء المكانة الثانية، وفيها امتد النفوذ الفاطمى الخارجى حتى وصل أوجه وأقصاه، فخضعت لهم اليمن والحجاز ومصر والمغرب وصقلية والشام، وخطب لهم فى الموصل وبغداد وقتًا ما.

وخير ما يؤيد هذه السمات التى اتسمت بها الخلافة الفاطمية فى الشطر الأول من حكمها أن نستعرض جهود الخلفاء الذين تولوا الحكم فى هذه الفترة.

كان أول الخلفاء الفاطميين فى مصر هو المعز لدين الله، وقد حكمها ثلاث سنوات (٣٦٢هـ - ٣٦٥هـ) ركز جهوده فى خلالها لتنظيم مركز حكمه الجديد، فعنى أول ما عنى بشئون مصر المالية، لأن مصر كانت وشيكة الخروج من المجاعة الخطيرة التى أصابتها قبيل الفتح الفاطمى وإبانه، فمنع المعز النداء بزيادة النيل - كما كانت العادة قديمًا - وأمر ألا يكتب بذلك إلا إليه وإلى قائده جوهر، حتى إذا تم الفيضان ووصل إلى أقصاه، أعلن ذلك للناس واشترك فى الاحتفال بوفاء النيل. ثم عهد بإدارة شئون مصر المالية جميعا إلى رجلين من أقدر رجال ذلك العصر، وهما يعقوب بن كلس وعسلوج بن الحسن، فقاما بما عهد به إليهما خير قيام، حتى زادت إيرادات الدولة زيادة كبيرة ملحوظة فى وقت وجيز.

وتأكيدًا لاستقلال مصر الاقتصادى عن الدولة العباسية أمر المعز فضربت سكة مصرية جديدة باسمه، وفضل الدينار المعزى فى المعاملات الحكومية على الدينار العباسى، فقلت قيمة هذا الأخير وطرد من السوق شيئًا فشيئًا.

وفى عهده اشتد خطر القرامطة وهددوا مصر برًا وبحرًا، ووصل أسطولهم إلى مدينة تنيس فقاتلهم أهلها، وأخذت عدة من سفنهم وأسر عدد كبير من جنودهم.

وأدرك المعز ما قد تتعرض له مصر من خطر الهجوم عليها من ناحية البحر، فعنى بالأسطول عناية كبيرة، وبنى دارًا جديدة لصناعة السفن فى المقس - ميناء القاهرة - وأنشىء بهذه الدار فى عهده القصيرستمائة سفينة حربية «لم ير مثلها فيما تقدم كبرًا ووثاقة وحسنًا»[1]

وولى الخلافة بعد المعز ابنه العزيز بالله، وكان رجلاً سمحًا كريمًا شجاعًا، ولئن كان عصر المعز قد امتاز بالتنظيم الداخلى للدولة الجديدة، فإن عصر العزيز قد امتاز بالتوسع الخارجى، وامتدت الدولة المصرية عهده من المحيط الأطلسى غربًا إلى الخليج الفارسى شرقًا ومن أقصى الشام شمالاً إلى بلاد النوبة واليمن جنوبًا، وفتحت له حمص وحماة وشيزر، وخطب له المقلد العقيلى - صاحب الموصل - بالموصل وأعمالها فى المحرم سنة ٣٨٢هـ، وضرب اسمه على السكة والبنود، وخطب له باليمن، وخاف بأسه إمبراطور الدولة البيزنطية، فخطب وده، وأرسل إليه رسلاً يحملون الهدايا ويطلبون الصلح والهدنة، فأجابهم العزيز: واشترط شروطًا شديدة التزموا بها كلها منها: أنهم يحلفون أنه لا يبقى فى مملكتهم أسير إلا أطلقوه. وأن يخطب العزيز فى جامع القسطنطينية كل جمعة، وأن يحمل إليه من أمتعة الروم كل ما افترضه عليهم، ثم ردهم بعقد الهدنة سبع سنين [2].

وهكذا ابلغت مصر الذروة فى عهد العزيز، فأصبحت إمبراطورية واسعة تضم - كما أسلفنا - المغرب ومصر واليمن والجزيرة العربية والشام وجزيرة صقلية، وبهذا فاقت الخلافة العباسية قوة ونفوذًا واتساع ملك، وأصبحت الدولة الإسلامية الكبرى فى الشرق، وبدأت تهدد ما بقى فى أيدى العباسيين من ملك وفى الوقت نفسه كان العزيز يرنو ببصره نحو الخلافة الثالثة وهى الخلافة الأموية السنية فى الأندلس يريد أن يزيلها من الوجود لتصبح فى العالم الإسلامى خلافة واحدة هى الخلافة الفاطمية، لهذا أرسل العزيز إلى خليفة الأندلس يهجوه ويتهدده، غير أن الأندلس كانت فى ذلك الوقت فى عنفوان قوتها، فأرسل صاحبها ردا على خطاب العزيز الجملة المشهورة التى يعرض فيها بنسب الفاطميين والتى يقول فيها، «أما بعد، فقد عرفتنا فهجوتنا، ولو عرفناك أجبناك».

---

(١) المقريزى ، الخطط ، ج ٣ ص ٣١٧ (عن المسبحى).

(٢) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج ٤ ، ص١٥١ - ١٥٢.

وقد رأى العزيز أن الجيش القوى هو السياج الطبيعى لحماية هذه الدولة الكبيرة المترامية الأطراف، فصرف همه للعناية بالجيش، وهو أول من استعان من الفاطميين بالعنصرين التركى والسودانى، فأصبح فى جيش مصر فرق من هذين العنصرين بعد أن كان اعتماد الفاطميين على المغاربة الذين ساعدوهم فى فتح مصر وإقامة ملكهم بها. وقد كانت هذه العناصر مصدر قوة فى أول الأمر لما أمتاز به الترك والسودان من الشجاعة والإقدام ، غير أنها لم تلبث أن أصبحت سببًا من أهم أسباب ضعف الدولة وانحلالها عندما دب النزاع وقامت أسباب المنافسة والنضال بينها.

ولم تكن عناية العزيز بالأسطول أقل من عنايته بالجيش، حتى لقد أصبحت مصر فى عهده أكب دولة إسلامية فى الشرق الأوسط.

وقد عرف العزيز بالتسامح مع أهل الذمة، فقد نعموا فى عهده بالحرية التامة فى أداء شعائر دينهم وترميم كنائسهم، وبناء كنائس جديدة، ولا غرو فقد كانت زوجته - أم ولده الحاكم - مسيحية روسية، وقد عين العزيز أخويها بطريركين ملكانيين فى الإسكندرية وأورشليم/ وكان من وزرائه يعقوب بن كلس اليهودى، وعيسى بن نسطورس المسيحى.

وفى عهد العزيز نمت ثروة البلاد وزادت ثروتها، فعاش الناس فى رفاهية، وعاش الخليفة حياة كلها بذخ وترف، وبنى لنفسه قصرًا جديدًا - عرف بالقصر الغربى - مقابل القصر الشرقى الكبير الذى بناه جوهر للمعز، وكان يفصل بين القصرين ميدان متسع يستخدم لعرض الجند، كما بدأ بناء جامعه الكبير الذى أتمه ابنه الحاكم فيها بعد وعرف باسم الجامع الحاكمى.

وكان من حسن حظ مصر أن طالت مدة حكم العزيز، فقد حكمها واحدًا وعشرين عامًا، وتوفى سنة ٣٨٦هـ، فخلفه ابنه الحاكم بأمر الله وهو بعد طفل لا يجاوز الحادية عشرة من عمره.

والحاكم شخصية عجيبة هى فى الحقيقة جماع المتناقضات، مما يدل على أنه كان ملتاث العقل غير متزن الفكر، فقد امتاز عهده بالقسوة والعنف وكثرة سفك الدماء.

وأوضح ما يميز الحاكم التناقض وازدواج الشخصية، فهو حينا دكتور جيكل وحينا آخر مستر هايد، وهو تارة شجاع مقدام محب للعلم والعلماء، وهو تارة أخرى جبان متردد منتقم من العلماء قاتل لهم، وكان الغالب عليه السخاء، غير أنه ربما بخل بما لم يبخل به أحد قط، وأقام يلبس الصوف سبع سنين، وامتنع من دخول الحمام، وأقام سنتين يجلس فى الجمع ليلاً ونهارًا، ثم عن له أن يجلس فى الظلمة فجلس فيها مدة، وكتب على المساجد والجوامع سب أبى بكر وعمر وعثمان وعائشة وطلحة والزبير ومعاوية وعمرو بن العاص فى سنة خمس وتسعين وثلاثمائة ، ثم محا ما كتب فى سنة سبع وتسعين، وأمر بقتل الكلاب ثم نهى عنه، ونهى من

الاشتغال بالنجوم وكان ينظر فيها، ومنع من صلاة التراويح عشر سنين ثم أباحها، ومنع من بيع العنب، وقطع الكروم، وأراق خمسة آلاف جرة عسل فى البحر خوفاً من أن تعمل نبيذا، ومنع النساء من الخروج من بيوتهن ليلاً ونهارًا، وجعل لأهل الذمة علامات يعرفون بها، وهدم الكنائس فى بلاده - ومن بينها كنيسة القيامة - ثم أمر بإعادة بنائها [1] .. وهكذا.

وقد قتل الحاكم عددا من وزرائه وانتهى به الأمر إلى أن ادعى الألوهية، وتكونت طائفة جديدة تنادى بألوهيته هى طائفة الدروز (نسبة إلى الدرزى أول دعاتها).

ورغم هذا التناقض العجيب فى تصرفاته كان الحاكم شخصية قوية جبارة يخافها ويخشى بأسها الجميع. وكان للخلافة الفاطمية فى عهده الشأن الكبير والمقام العظيم، ولم يكن لأحد من وزرائه ورجال جيشه ودولته ونفوذ إلى جانب نفوذه.

ومع هذا فقد كان لشخصية الحاكم المضطربة ولسياسته الخرفاء أثر جد خطير فى الدولة ومستقبلها، ففى عهده بدرت بوادر كثيرة مهدت لضعف الدولة وانحلالها.

بدأت هذه البوادر باجتراء الخلافتين السنيتين المعاصرتين على مهاجمة الدولة الفاطمية ومحاولة القضاء عليها، وقد حالت شخصيتا المعز والعزيز المتزنتان من قبل دون هذا الإجراء وهذا الهجوم.

أما الخلافة العباسية فلم يكن لديها من القوة المادية ما يمكنها من تدبير هجوم إيجابى، ولهذا فقد اتخذ هجومها شكلاً سلبيًا، فجمع الخليفة القادر عددًا من علماء بغداد وقضاتها، وكتبوا محضرًا طعنوا فيه فى النسب الفاطمى، وأعلنوا فيه أن الحاكم وسلفه «أدعياء خوارج لا نسب لهم فى ولد على بن أبى طالب» وإنما هم «كفار فساق زنادقة ملحدون معطلون، وللإسلام جاحدون، ولمذهب الثنوية والمجوسية ومعتقدون».

كتب هذا المحضر فى سنة ٤٠٢هـ، ووقع عليه الحضور من العلماء والقضاة، وأرسلت منه نسخ إلى مختلف أنحاء العالم الإسلامى، فكان له صدى قوى.

ثورة أبى ركوة:

أما الخلافة الأموية فى الأندلس فقد اتخذ هجومها شكلا آخر أكثر إيجابية وخطرًا، فقد خرج فى الصحراء الغربية خارج اسمه أبو ركوة، وادعى أنه ينتسب إلى بنى أمية. وجمع هذا الرجل جيشًا كبيرًا، وهاجم حدودَ مصر الغربية، وانضم إليه بنو قرة - من عرب البَحيرة - وكانوا ناقمين على الحاكم لكثرة ما أوقع بهم وغنم من أموالهم. واشتد خطر أبى ركوة، فأرسل

---

(١) النجوم الزاهرة، ج ٤ ، ص١٧٦ - ١٧٨ ، نقلاً عن سبط ابن الجوزى فى مرآة الزمان.

إليه الحاكم جيشًا لمقاتلته، فهزم الجيش، فأرسل إليه جيشًا آخر فكتب له النصر، وتتبع أبا ركوة فى الصعيد، وانتهى الأمر بالقبض عليه فى بلاد النوبة وإرساله إلى القاهرة وقتله.

لقد اكتفت الخلافة العباسية بأضعف الإيمان، فأصدرت هذا المحضر وأرسلته إلى أطراف العالم الإسلامى، وانتهت ثورة أبى ركوة - التى كانت تؤيدها الخلافة الأندلسية - بالفشل، ولكن هاتين الحركتين أثرتا دون شك فى الدولة الفاطمية، فأضاعتا ما كان لها من هيبة قديمة، وبدأ الكل يجترئون عليها، وتطور الأمر إلى أن قام النزاع فى الداخل بين العناصر المختلفة المكونة للجيش الفاطمى من مغاربة وأتراك وسودان، واشتد النزاع بين كل فريق والآخر، ولم تهدأ الفتنة إلا بعد أن قتل عدد كبير من قادة الجيش.

ومن الأمور التى بدأت تزعزع كيان الدولة الفاطمية ما أقدم عليه الحاكم نفسه من محاولة تغيير أصل هام من أصول المذهب الإسماعيلى. وذلك أن نظام الوراثة عند الشيعة الإسماعيلية يقضى أن تكون الإمامه فى نسل على بن أبى طالب دون غيرهم، وأن تنتقل دائمًا من الأب إلى الابن، لأنهم كانوا يعتقدون أن للإمامة صفات وعلومًا خاصة تنتقل بالوراثة كما تنتقل الصفات الخلقية تمامًا.

وقد التزم الفاطميون منذ إقامة دولتهم هذا النظام، فكان كل خليفة ابنا للخليفة السابق. ولكن الحاكم حاول مخالفة هذا المبدأ، فأوصى بولاية العهد لابن عمه عبد الرحيم بن إلياس، وأصدر أوامره بأن يضرب اسمه إلى جانب اسم الخليفة على السكة، وأن ينقش على البنود والطراز، كما أمر أن ينوب ابن عمه وولى عهده عنه فى الخطبة والصلاة والنحر والنظر فى المظالم، وأن يسايره فى المواكب.

وكادت هذه المحاولة أن تؤدى إلى انقسام خطير بين الشيعة الإسماعيلية، لأن فى تنفيذها هدمًا لركن قوى من أركان المذهب، لولا أن الحاكم قتل، وقضت ست الملك أخت الحاكم على هذه المحاولة، فأرسلت إلى عبد الرحيم من قبض عليه وقتله، وأجلست الظاهر بن الحاكم على عرش الخلافة.

يتضح من هذا كله أن هذه البوادر الأربع: المحضر العباسى بالطعن فى النسب الفاطمى، وثورة أبى ركوة، والنزاع بين عناصر الجيش الفاطمى، ومحاولة الحاكم الخروج عن أصول المذهب الإسماعيلى، كان لها أثر قوى فى هز كيان الدولة الفاطمية، فبدأت عوامل الضعف تعمل فى بنيانها.

وولى الظاهر فى سنة ٤١١هـ عرش الخلافة بعد أبيه، وكان عند ذاك صبيًا مراهقًا فى السادسة عشرة من عمره تحت وصاية عمته ست الملك، فترك أمور الحكم بين يديها وبين أيدى رجال الدولة من وزراء وقادة وقضاة.

وأبرز ما يميز عهده أنه أباح كل ما كان قد حرمه أبوه، بل إنه قد غالى فأقبل هو نفسه على شرب الخمر، ورخص للناس بشربها، فأقبلوا على خياة اللهو.

ومما يحمد له أنه عمل على تحسين العلاقات بين مصر والدولة البيزنطية بـع أن كـانت قـد بلغت من السوء مبلغًا كبيرًا فى عهد أبيه، فجدد الهدنة مع صاحب الـروم فـى سـنة ٤١٨هـ بشروط كان أهمها: أن يفتح جامع القسطنطينية، وأن يعين فيه مؤذن، ويخطـب فيـه للظـاهر، وأن يعيد الظاهر بناء كنيسة القيامة بمدينة القدس.

وفى سنة ٤٢٧هـ ولى الخلافة المستنصر بن الظاهر وعمره ٧ سنوات، وقد طالت مدة خلافتـه حتى بلغت ستين عامًا، وهى أطول مدة حكمـها خليفـة مسلم. وقـد بلغـت الخلافـة الفاطميـة فىالقسم الأول من حكمه أوجها فى العظمة داخليًا وخارجيًا. وزار مصر فى هـذا النصـف الأول الرحالة الفارسى ناصر خسرو، ووصفها ووصف نظمها ومدنها وغناها وثروتها وحضارتها وصف المعجب بما رأى وشاهد.

وبدأن مصر فى هذا النصف الأول ترنو بأبصارها ثانيـة نحـو العـراق مقـر الخلافـة العباسـية المتهاوية، وأحس الخليفة العبـاسى بوادر الخطر، فأصدر فى سنة ٤٤٤هـ محضرًا ثانيًا شـبيها بالمحضر الأول الذى صدر فى عهد الحاكم للطعن فى نسب الخلفاء الفاطميين، ووقع عليه كبار العلماء والقضاة فى بغداد، وأرسلت منه نسخ إلى أطراف العالم الإسلامى.

ولكن رد المستنصر كان قويًا وإيجابيًا، ففى سنة ٤٤٨هـ خرج علـى الخليفـة العباسـى أحـد قواده وهو أبو الحارث البساسيرى، وانتمى للخليفة المستنصر، فأرسل إليه الأموال والسلاح.

وتقدم البساسيرى فى سنة ٤٥٠هـ فدخل بغداد، ففرمنها الخلفة العباسـى القـائم بـأمر الله، وأرسل البساسيرى ثياب هذا الخليفة الفار وعمامته إلى القاهرة، وخطب للمسـتنصر علـى منـابر بغداد نحو عشرة شهور، وحذت مدن العراق الأخرى حذو بغداد، وخطب للمسـتنصر فـى هـذه السنة على منابر البصرة وواسط وأعمالها.

الفصل الرابع

العصر الفاطمى الثانى

عصر الضعف والانحلال

وهكذا بلغت الخلافة الفاطمية المصرية فى النصف الأول من حكم المستنصر أو ج عظمتها وأقصى اتساعها، فامتدت من المحيط الأطلسى إلى العراق، ولكن عوامل الضعف الكامنة لم تلبث أن بدأت تنخر فى كيان الدولة فى النصف الثانى من حكم هذا الخليفة، فدخل طغرل بك السلجوقى بغداد وقتل البساسيرى، وأعاد الخليفة العباسى إلى عرشه، فانقطعت الخطبة للمستنصر وعادت للقائم.

وقبل هذا بقليل نشب نزاع بين البازورى - وزير المستنصر - والمعز بن باديس عامل الفاطميين على المغرب، وآل الأمر أن قطع ابن باديس الخطبة للفاطميين بالمغرب وأقامها للعباسيين.

وفى سنة ٤٥٧هـ أصيبت مصر بالمجاعة الخطيرة التى ظلت سبع سنوات (٤٥٧هـ - ٤٦٤هـ) فكانت الطامة الكبرى، وتدهورت أحوال مصر الاقتصادية تدهورًا خطيرًا، والمقريزى يسمى هذه المجاعة «بالشدة العظمى»، ويرجع أسبابها إلى ضعف السلطنة، واختلال أحوال المملكة، واستيلاء الأمراء على الدولة، واتصال الفتن بين العربان، وقصور النيل، وعدم من يزرع ما شمله الرى.

وكان من نتائجها - فى رأيه - أن: «نزع السعر وتزايد الغلاء، وأعقبه الوباء حتى تعطلت الأراضى من الزراعة، وشمل الخوف، وخيفت السبل برًا وبحرًا، وتعذر السير إلى الأماكن إلا بالخفارة الكثيرة وركوب الغرر، واستولى الجوع لعدم القوت حتى أبيع رغيف الخبز فى النداء بزقاق القناديل من الفسطاط كبيع الطرف بخمسة عشر دينارًا، وأبيع الأردب من القمح بثمانين دينارًا، وأكلت الكلاب والقطط حتى قلت الكلاب فبيع كلب ليؤكل بخمسة دنانير، وتزايد الحال حتى أكل الناس بعضهم بعضًا.. ثم آل الأمر إلى أن باع المستنصر كل ما فى قصره من ذخائر وثياب وأثاث وسلاح وغيره، وصار يجلس على حصير، وتعطلت دواوينه، وذهب وقاره. وكانت نساء القصور تخرجن ناشرات شعورهن تصحن: «الجوع! الجوع!» تردن المسير إلى العراق فتسقطن عند المصلى وتمتن جوعا.. إلخ.. إلخ» [1].

---

(١) المقريزى: إغاثة الأمة، نشر زيادة والشيال، ص ٢٤، ٢٥.

وكان من نتيجة الغلاء الذى صاحب هذه المجاعة أن منعت مصر ما كانت ترسله إلى الحجاز من غلال ومؤن، وقطعت الخطبة للمستنصر فى مكة والمدينة، وخطب للخليفة العباسى فى سنة ٤٦٢هـ، وإن كانت قد أعيدت للمستنصر فى سنة ٤٦٩هـ.

وهكذا توالى انفصال أجزاء الدولة، فاتفصل شمال أفريقيا كله وخطب للعباسيين، ثم قطعت الخطبة من بغداد والعراق بعد أن أقيمت للفاطميين عشرة أشهر، ثم انقطعت الخطبة لهم فى الحجاز لمدة سبع سنوات. وأخيرًا فى سنة ٤٦٣هـ دخل النورمان صقلية واستولوا عليها، فخرجت بذلك عن حكم الفاطميين بعد أن ظلت جزءًا من أملاكهم منذ قامت دولتهم فى سنة ٢٩٧هـ .

وفى سنة ٤٦٦هـ تفاقم الحال واضطربت أمور مصر اضطرابًا شديدًا واختلت أحوالها، وعجز المستنصر عن أن يصنع شيئًا لعلاجها، فاستدعى واليه على عكا بدر الجمالى، فلبى الدعوة، وتولى بعد مجيئه أمور مصر كلها، وتلاشت - منذ ذلك الحين - سلطة الخليفة، وبدأ عهد سيطرة الوزراء.

وقد جرى المؤرخون الإسلاميون على تقسيم الوزارة إلى نوعين: وزارة تنفيذ، وفيها تكون السلطة كل السلطة بيد الخليفة وإنما يقوم الوزير بتنفيذ أوامره، ووزارة تفويض، وفيها يكون الخليفة مغلوبًا على أمره والأمور كلها مفوضة للوزير.

وتطبيقًا لهذا التقسيم النظرى نستطيع أن نقول إن وزراء العصر الفاطمى الأول كانوا جميعًا وزراء تنفيذ، أما وزراء العصر الفاطمى الثانى فكانوا جميعا وزراء تفويض وكان أولهم أمير الجيوش بدر الجمالى.

وقد أنشىء لبدر سجل خاص بتفويض أمور الحكم إليه جاء فيه:

«وقد قلدك أمير المؤمنين جميع جوامع تدبيره، وناظر بك النظر فى كل ما وراء سريره، فباشر ما قلدك أمير المؤمنين من ذلك مدبرًا للبلاد، ومصلحا للفساد، ومدمرًا لأهل العناد».

وأصبحت الأمور كلها مردودة إليه، والاتصال بين الخليفة وبينه اتصالاً مباشرًا. وجعل له تعيين قاضى القضاة وداعى الدعاة - وكان تعيينهما من اختصاص الخليفة دون غيره - ولهذا لقب بكافل قضاة المسلمين وهادى دعاة المؤمنين.

وقد كان وزراء العصر الأول جميعا من أرباب القلم، أى من رجال الفكر والدين، أما بدر فقد كان من أرباب السيف - أى من رجال الجيش - ولهذا لقب أيضًا بالسيد الأجل أمير الجيوش، وهو اللقب الذى توارثه من بعده وزراء التفويض فى العصر الفاطمى الثانى، فقد كانوا جميعا من أرباب السيوف. ولم يحدث أن ولى الوزارة ابن بعد أبيه فى العصر الأول، وإنما حدث

هذا فى العصر الثانى. فولى الوزارة بعد بدر الجمالى ابنه شاهنشاه، فوزر للمستنصر ثم للمستعلى ثم للآمر . وقد زيد فى ألقابه «الأفضل»، وبه اشتهر، حتى أصبح يعرف بالأفضل شاهنشاه، وقد أضيف هذا اللقب أيضًا للوزراء من بعده.

ومنذ عهد الخليفة الحافظ لقب الوزير بلقب «الملك» وأول من لقب به رضوان بن ولخشى وزير الحافظ لدين الله فقيل له: «السيد الأجل الملك الأفضل»، ولقب به كذلك من أتى من بعده من الوزراء فقيل للصالح طلائع بن رزيك « الملك المنصور»، ولقب ابنه رزيك بن طلائع «بالملك العادل»، ولقب شاور «بالملك المنصور»، ولقب صلاح الدين - وهو آخر وزراء الدولة من أرباب السيوف - «بالملك الناصر».

وخير ما تدل عليه هذه الألقاب أن الوزير فى العصر الفاطمى الثانى أصبح هو كل شىء فى الدولة، فقد أصبح «السيد الأجل»، ثم «أمير الجيوش»، ثم «الأفضل»، ثم «الملك»، يقول المقريزى: «وصار وزير السيف من عهد أمير الجيوش إلى بدر إلى آخر الدولة هو سلطان مصر وصاحب الحل والعقد، وإليه الحكم فى الكافة من الأمراء والأجناد والقضاة والكتاب وسائر الرعية، وهو الذى يولى أرباب المناصب الديوانية والدينية..» [1] .

ولهذا عرف العصر الفاطمى الثانى عند المؤرخين بعصر الوزراء، وتأييدًا لسلطانهم بنيت لهم دار خاصة فى القاهرة بالقرب من القصر الخليفى يباشر فيها الوزير شئون الحكم وعرفت باسم «دار الوزارة الكبرى».

وكان لتولى بدر الجمالى الوزارة نتائج أخرى كثيرة أهمها إضافة عنصر جديد إلى العناصر المكونة للجيش الفاطمى، فقد كان هذا الجيش فى أول أمره مكونا من المغاربة - وخاصة قبيلة كتامة - الذين أتوا مع جوهر لغزو مصر، ثم استعان العزيز بالله بالأتراك واستخدم عددًا كبيرًا منهم فى جيشه، ومنذ عهد الحاكم بدأ دخول السودان فى الجيش الفاطمى. فلما ولى المستنصر استكثرت أمه من السودان - فقد كانت منهم - حتى يقال إنهم بلغوا نحوا من خمسين ألف أسود، واستكثر هو من الأتراك، فتجدد النزاع بين العنصرين وقامت بينهما - كما يقول المقريزى - :«الحرب التى آلت إلى خراب مصر وزوال بهجتها».

ثم قدم بدر الجمالى من عكا، وقتل رجال الدولة، وأقام له جندًا وعسكرًا من الأرمن - فقد كان هو أرمنيا - وصار معظم الجيش منذ ذلك الوقت من الأرمن.

وهكذا تعددت العناصر المكونة للجيش الفاطمى، فأصبح يتكون من المغاربة والعرب والأتراك والسودان والأرمن وغيرهم من الأجناس، وبدأت أسباب النزاع بين كل عنصر وعنصر، وكثيرًا

---

(١) المقريزى: الخطط ، ح ٢، ص ٣٠٥.

ما أدى هذا النزاع إلى خراب البلاد ونهب أموال الأهلين، وكانت أسوأ نتائجه ضعف الجيش الفاطمي وبالتالي ضعف الدولة نفسها.

ولم تكن هذه وحدها هي الأسباب التي أدت إلى ضعف الدولة وانحلالها ثم زوالها، وإنما كانت تضاف إليها كلما تقدم الزمن بالدولة عوامل جديدة منها أن معظم خلفاء العصر الثاني تولوا الخلافة وهم بعد أطفال صغار مما زاد في شوكة الوزراء واستقلالهم بأمور الحكم، فقد ولي الخليفة الآمر وعمره خمس سنوات، وولي الفائز في نفس العمر، وتوفي في الحادية عشرة من عمره، وولي العاضد كذلك وعنده أحد عشر عامًا.

وقد ولي هؤلاء الخلفاء في هذه السن المبكرة لأن نظام الوراثة عند الشيعة الإسماعيلية كان يقضي - كما ذكرنا - أن تكون الإمامة - أي الخلافة - في نسل علي بن أبي طالب دون غيرهم، وأن تنتقل دائمًا من الأب إلى الابن، [1] فهم في هذا يختلفون عن أندادهم الخلفاء السنيين من الأمويين والعباسيين الذين كانوا يبيحون أن تنتقل الخلافة أحيانًا إلى الأخ أو إلى ابن العم أو إلى أكبر أفراد الأسرة سنا، لأنهم كانوا يشترطون فيمن يتولى الخلافة شروطًا أخرى كثيرة من أهمها أن يكون بالغًا عاقلاً سليم الحواس، وقد كان لنظام الوراثة عند الفاطميين فوائد كثيرة أهمها أنه كان عاملاً من عوامل الاستقرار، وأنه جنب الأسرة والدولة - إلى حد كبير - عوامل المنافسة والنزاع والتخاصم في سبيل العرش.

غير أن هذا النظام كانت له - إلى جانب هذه الفوائد - مضار وعيوب منها أنه كان يوجب تولية هؤلاء الخلفاء الأطفال لا لشيء إلا لأن كلا منهم كان ابنا للخليفة السابق وقد نص على توليته العرش، مما أتاح الفرصة لاستبداد الوزراء بشئون الحكم وقيام أسباب التنافس والنزاع بين رجال الدولة المتطلعين إلى منصب الوزارة.

وكان من الشروط الهامة لصحة الإمامة عند الشيعة الإسماعيلية، الوصية أو «النص»، أي أن ينص الإمام السابق على الإمام اللاحق من أولاده، فهم يعتبرون النص بمثابة أمر بالتعيين صادر عن الإمام السابق، ولذلك هو عندهم شرط هام من شروط صحة الإمامة، ويشترط في النص عندهم أن يصدر عن الإمام وقت نقلته ، أي عند موته، بمعنى أنه إذا صدر عن الإمام أكثر من نص لأكثر من ولد من أولاده فإنه لا يؤخذ إلا بالنص الأخير الذي صدر عنه وقت نقلته وانتقاله إلى الدار الآخرة ، لأنه في رأيهم يجب كل النصوص الأخرى السابقة.

وقد التزم الفاطميون منذ إقامة دولتهم هذا النظام الوراثي بجميع شروطه فيما عدا ثلاث حالات.

---

(١) الشيال: مجموعة الوثائق الفاطمية ، القاهرة ١٩٥٨م، ص ٢.

– فى الحالة الأولى حاول الخليفة الحاكم بأمر الله أن يحرم ابنه، فعهد بولاية العهد لابن عمه عبد الرحيم بن إلياس، وقد أشرنا إلى هذه المحاولة وأثرها فيما سلف، ورأينا أنها لم يكتب لها النجاح، فقد قتل الحاكم قتلة تحوطها الريب والشكوك، وسعت أخته «ست الملك» حتى أقامت الظاهر بن الحاكم على عرش الخلافة.

– والحالة الثانية والثالثة خولف فيهما هذا المبدأ فعلاً وتولى الخلافة ابن العم لا الابن، فبعد وفاة الخليفة الآمر بأحكام الله ولى الخلافة ابن عمه الحافظ لدين الله، وبعد وفاة الخليفة الفائز ولى الخلافة ابن عمه العاضد لدين الله وهو آخر خلفاء الدولة.

وفى كل مرة خولف فيها نظام الوراثة – كما نص عليه المذهب – حدث انقسام مذهبى سياسى، وهذه الانقسامات المذهبية السياسية – وقد حدثت كلها فى العصر الفاطمى الثانى – هزت الدولة هزات عنيفة وكانت من أهم العوامل التى أدت إلى إضعاف الدولة وانحلالها.

فعند وفاة المستنصر حدث خلاف فى تحديد النص، فقال نزار – الابن الأكبر – بأن النص والوصية له، وقال الوزير القائم بالحكم الأفضل شاهنشاه بأن النص والوصية للابن الأصغر أبى القاسم أحمد – الذى ولى الخلافة باسم المستعلى –، وانتهى النزاع بهزيمة نزار وتولية المستعلى ، وانقسم الإسماعيلية منذ ذلك الحين إلى فرقتين:

– الإسماعيلية النزارية التى نجح دعاتها فى إقامة ملك لهم فى قلعة الموت ثم فى الشام، وقد لعبوا دورًا خطيرا فى التاريخ الإسلامى فى القرنين الخامس والسادس.

– والإسماعيلية المستعلية أتباع الخلافة الفاطمية فى مصر.

وقد ناصب النزارية الفواطم فى مصر العداء، ولم يلق الخلفاء الفاطميون منذ عهد المستعلى أعداء أشد قسوة من النزارية، بحيث نستطيع أن نقول إن تاريخ الحركة الإسماعيلية بوجه عام وتاريخ الدولة الفاطمية فى مصر بوجه خاص كان من الممكن أن يتخذ شكلا آخر غير الذى عرفناه لو أن الإسماعيلية النزارية (الحشيشية) اتحدوا مع الفاطميين فى مصر بدلا من انتهازهم كل فرصة ممكنة للمكيدة لهم والإضرار بهم.

والحقيقة أن إبعاد نزار وتولية المستعلى يعتبر انقلابًا سياسيًا Coup d'état واضح المعالم قام به الوزير الأفضل شاهنشاه محافظة على السلطان القوى الذى كان يتمتع به منفردًا منذ أواخر عهد المستنصر بالله، فقد كان نزار – عند موت أبيه المستنصر – رجلاً مكتمل الرجولة، ولم تكن العلاقات بينه وبين الأفضل – أثناء حياة المستنصر – علاقات طيبة، بل لقد كانت على العكس علاقات يشوبها الكره المتبادل.

والانقسام المذهبى الثانى حدث بعد وفاة الخليفة الآمر، فقد خولفت أصول المذهب وولى الخلافة الحافظ ابن عم الآمر وفى حين أنه كان قد ولد للآمر قبيل وفاته ابن اسمه «الطيب» وأخذت له البيعة بولاية العهد، ولهذا انقسمت الإسماعيلية مرة ثانية إلى:

- إسماعيلية حافظية.
- إسماعيلية طيبية.

وقد مرت الدولة الفاطمية عند مقتل الخليفة الآمر بأزمة عنيفة كادت تودى بها وتضع حدًا لحياتها، وذلك أن بعض جواسيس النزارية تسللوا إلى القاهرة وتربصوا للآمر، وقتلوه فى ذى القعدة سنة ٥٢٤ هـ (١١٣٠م). وتذكر المراجع المطبوعة المتداولة - ومعظمها مراجع سنية - أن الآمر لم يكن عند قتله قد أعقب، وإنما ترك من بعده إحدى زوجاته حاملاً، فعين الحافظ - ابن عم الآمر - حاكمًا مؤقتًا، على أن يكون وليًا للعهد وكفيلاً للطفل الذى يولد إن أتى ذكرًا، ولكن الزوجة أنجبت بنتًا فاستقر الحافظ خليفة.

كان هذا هو الرأى الذى تعرضه المراجع السنية المتداولية إلى عهد قريب ولا تذكر رأيًا غيره، ثم بدأت تظهر فى عالم المطبوعات مراجع «تاريخية» سنية تشير إلى رأى آخر، وأول هذا المراجع «تاريخ مصر لابن ميسر»، وقد أورد المؤلف فيه نصًا يشير إلى أن الآمر كان قد ولد له قبل موته بشهور ولد أسماه أبوه «الطيب»، واحتفل بمولده احتفالاً علنيا رائعًا، وأعلنه وليًا لعهده وأرسلت السجلات بتولية الطيب ولاية العهد إلى اليمن، وأعلنت هناك،ولهذا سيظل إسماعيلية اليمن - فى معظمهم - بعد ذلك طيبية، ثم يكونون لهم جالية أخرى فى الهند تتبع نفس المذهب والفرقة.

ولكن بعض المؤرخين لا يزالون مع هذا - وحتى اليوم - يشكون فى هذه القصة وفى وجود الطيب، لأنه منذ مات الآمر لم يظهر إلى الوجود، بل أعلنت القصة الجديدة، قصة وجود زوجة من زوجات الآمر حاملاً، وقصة كفالة الحافظ للمولود المنتظر.

ثم ظهرت للنور بعد ذلك بعض المؤلفات السنية والشيعية تحمل نصوصًا جديدة عن الطيب، وكلها تثبت وجوده، وأنه ولد فى ربيع الأول سنة ٥٢٤هـ، وأنه أعلن بعد مولده وليًا للعهد، وزينت القاهرة ومصر زينة حافلة بهذه المناسبة. وورد فى كتاب «البستان الجامع» الذى نشره الأستاذ كلود كاهن نص يفيد أن الحافظ دس لهذا الطفل - بعد مقتل أبيه - أحد أتباعه «فأخذه عنده»، ولم يظهر له خبر إلى الآن بموت أو بغيره»[1].

وهذه النصوص تفيد أيضًا أن الطيبية - أتباع الطيب - انتشروا بعد ذلك فى اليمن والشام دون مصر.

---

(١) الشيال: مجموعة الوثائق الفاطمية، ٧٩ - ٨٥.

اختفى الطيب إذن من الميدان – بعد مقتل والـده – وانتقلت السلطة الفعلية إلى اثنين من رجال الجيش هما: هزار الملوك وبرغش، واختار هذان القائدان عبد المجيد – ابن عم الآمر – ليلى السلطة من الناحية الشكلية فقط، وليكون كفيلاً للمولود المرتقب إن أتى ذكرًا.

واختار عبد المجيد (الحافظ) هزار الملوك ليكون وزيرًا له، ولكن هذا الوضع الجديد لم يعمر غير نصف يوم، فقد دفعت الغيرة برغش إلى تحريض قائد آخر له مكانته على الثورة، هذا القائد الآخر وهو أبو على أحمد بن الأفضل شاهنشاه – الملقب بكتيفات – وقد ثار هذا القائد فعلاً، وثار معه الجيش عقب الاحتفال بتولية هزار الملوك الوزارة، وانتهت الثورة بالقبض على هزار الملوك وقتله.

«واستقرت الوزارة لأبى على أحمد بن الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجمالى، وكان يلقب بكتيفات، فى يوم الخميس سادس عشر ذى القعدة»[1].

«واستدعى (الحافظ) الخلع لأبى على، فأفيضت عليه يوم الأربعاء خامس عشرة، وركب إلى دار الوزارة، والجماعة مشاة فى ركابه، فكانت وزارة هزار الملوك نصف يوم بغير تصرف..».

وكان أول عمل باشره أبو على أحمد بعد توليه الوزارة أنه، «أحاط بالحافظ وسجنه فى خزانة فيما بين الإيوان وباب العيد.. وتمكن أبو على، واستولى على جميع ما فى القصر من الأموال والذخائر..».

هذا انقلاب جديد واضح المعالم كاد يضع حدًا نهائيًا للدولة الفاطمية الإسماعيلية، فأبو على قائد قواد الجيش له مكانة خاصة فى الدولة، فهو ابن وزير وحفيد وزير، وأبوه وجده كانت لهما السلطة الفعلية الكاملة والمكانة الأولى فى الدولة أيام وزارتيهما، وقد ثار أبو على ثورة عسكرية انتهت بقتل القائم، والقبض على الكفيل، وسجنه، ثم توليه هو السلطة كلها دون منازع أو مشارك.

ويضاف إلى هذا كله أمر هام بالغ الأهمية، وهو أن أبا على لم يكن إسماعيلى المذهب، بل كان إماميًا، ولهذا بدأ باتخاذ إجراءات كثيرة تهدف كلها للقضاء على المذهب الإسماعيلى وإلغائه، والاعتراف بالمذهب الإمامى، ومعنى هذا انتهاء الدولة الفاطمية الإسماعيلية وقيام دولة علوية إمامية. يقول المقريزى: «وكان (أبو على) إماميًا متشددًا، فالتفت عليه الإمامية ولعبوا به حتى أظهر المذهب الإمامى»[2].

ومن هذه الإجراءات التى اتخذها أبو على لإظهار المذهب الإمامى أنه:

---

(١) المقريزى: مخطوطة اتعاظ الحنفا، ص ١٣٣ ب.
(٢) المقريزى: مخطوطة اتعاظ الحنفا، ص ١٣٤ أ.

– رتب فى الحكم أربعة قضاة: قاضيًا للشافعية، وقاضيًا للمالكية، وقاضيًا للإسماعيلية، وقاضيًا للإمامية – وصار كل قاض يحكم بمذهبه، ويورث بمذهبه ويعلق المقريزى على هذا بقوله: «ولم يسمع بمثل هذا فى الملة الإسلامية قبل ذلك»[1].

– وأسقط اسم إسماعيل بن جعفر الصادق – الذى تنسب إليه الإسماعيلية – واسم الحافظ من الخطبة.

– وألغى الأذان الإسماعيلى الفاطمى.

– وجعل الخطبة على المنابر له وحده باعتباره «ناصر إمام الحق فى حالتى غيبته وحضوره، والقائم بنصرته بماضى سيفه وصائب رأيه وتدبيره».

– وضرب دراهم ودنانير جديدة باسم الإمام المنتظر.

حكم أبو على أحمد إذن حكمًا مطلقًا، واتخذ هذه الإجراءات الكثيرة التى تهدف جميعًا إلى القضاء على الإسماعيلية ومذهبهم، غير أنه ظل يشغله أمران: أمر الحافظ كبير أفراد الأسرة وولى العهد والكفيل السابق، وأمر المولود الجديد الذى ولد للآمر.

أما الحافظ فيبدو أنه لم يكن ذا خطر، ولم يكن له أعوان يشدون أزره، وقد سجنه أبو على أحمد، وشدد عليه الرقابة فى سجنه، وقد فكر أكثر من مرة فى قتله ولكنه لم يفعل.

وأما المولود فقد ظل أمره يقلق بال أبى على أحمد، وظل دائب البحث عنه. وقد تضاربت الأقوال فى شأن هذا المولود، فبعض المراجع المنشورة المتداولة تشير إلى أن المولود جاء بنتا، وبهذا أمن أبو على أحمد واطمأن، وبعض المراجع التى لا تزال مخطوطة تشير إلى أن المولود جاء ذكرًا، وأن أمه عملت على إخفائه خوفًا عليه من الوزير أبى على ومن الحافظ إلى أن قبض عليه الحافظ فيما بعد وقتله.

والرأى الثانى ذكره المقريزى فى كتابه «اتعاظ الحنفا» نقلاً عن الشريف محمد بن أسعد الجوانى، وهو الصحيح، بدليل ما تذكره المراجع أيضًا من أن أمر هذا المولود قد شغل بال أبى على أحمد كثيرا أثناء السنة التى انفرد فيها بالحكم، وأنه ظل طول هذه السنة دائب البحث عنه، فقد قال المقريزى فى نفس المرجع: «واشتد ضرره (أى ضرر أبى على أحمد» على أهل القصر من الإرعاد والإبراق، وأكثر من إزعاجهم، والتفتيش على ولد الآمر..».

ولبث أبو على أحمد يحكم مستقلاً ما يزيد عن السنة قليلاً، ولو طالت مدة حكمه لكان قد قضى على الدولة الفاطمية والمذهب الإسماعيلى نهائيًا، ولكن الإسماعيلية لم يرضوا عن حكمه،

---

(١) المقريزى: مخطوطة اتعاظ الحنفا، ص ١٣٤ أ.

وتكونت منهم معارضة قوية تولى زعامتها القائد يانس، وظلوا يتربصون بأبى على الفرص للقضاء عليه، إلى أن تمكنوا من قتله فى المحرم سنة ٥٢٦ هـ.

قضى إذن على أبى على أحمد، وقضى بطبيعة الحال على المحاولة التى حاولها لجعل الدولة إمامية، وعادت الدولة إسماعيلية كما كانت، وأعيد الحافظ - بعد إطلاق سراحه - إلى منصب الخلافة.

واعتبر هذا اليوم الذى قتل فيه أبو على أحمد وأعيد الحافظ - إلى الحكم يوم عيد قومى، لا للحافظ نفسه بمناسبة إطلاق سراحه وإعادته للحكم، بل للدولة كلها وللمذهب الإسماعيلى وأتباعه، فقد كان المذهب على وشك أن يقضى عليه، ولهذا اعتبر هذا اليوم عيدًا للإسماعيلية، وسمى «عيد النصر»، وضم إلى قائمة الأعياد الرسمية، وظلت الدولة تحتفل به سنويًا فى عهد الحافظ، وفى عهود من أتى بعده من الخلفاء، إلى أن دالت الدولة وزالت.

ورغم تولى الحافظ الحكم فقد كانت المشكلة الشرعية المذهبية لا تزال قائمة. فالمذهب الإسماعيلى - كما أسلفنا - لا يبيح أن يتولى الخلافة من ليس ابنا للخليفة السابق، والحافظ ليس ابنا للآمر، بل هو ابن عمه، والطفل الذى ولد للآمر بعد مقتله والذى أخفته أمه كان لا يزال موجودًا، ويبدو أن الحافظ كان يعلم بوجوده، فلا يصح إذن أن يتولى الخلافة مع وجود الطفل، ولهذا لم يجرؤ رجال الدولة وشيوخ المذهب على تعيين الحافظ خليفة، بل أعادوه - كما كان - وليًا للعهد وكفيلاً للطفل المختفى، يقول المقريزى: «فاجتمع الناس، وأخذ له العهد على أنه ولى عهد كفيل لمن لم يذكر اسمه»(١).

ويؤكد هذه الحقيقة التاريخية وجود عملة ضربت فى الإسكندرية فى سنة ٥٢٦ هـ (ومن المؤكد تبعا للحوادث التاريخية أنها ضربت فى المدة بين المحرم وربيع الأول من هذه السنة) تحمل اسم عبد المجيد ولقبه كولى للعهد، ونص ما عليها: (أبو الميمون عبد المجيد ولى عهد المسلمين)(٢).

ويبدو أيضًا أن الحافظ ظل منذ تلك اللحظة يعمل جاهدًا للبحث عن هذا الطفل ليتخلص منه نهائيًا، ولتخلص له الخلافة من كل شائبة، ولم يطل بالحافظ الوقت، فقد عثر على الطفل بعد نحو شهرين، وحسم الأمر بقتله، ورأى أن يعلن على الملأ توليه الخلافة، فإن المقريزى يقول فى حوادث سنة ٥٢٦ هـ:

«وفيها استقرت حال الحافظ لدين الله، وبويع له بيعة ثانية لما عدم الحمل»(٣).

---

(١) المقريزى: مخطوطة اتعاظ الحنفا، ص ١٣٤ أ.

(٢) الشيال: مجموعة الوثائق الفاطمية، ص ٩٨ - ٩٩.

(٣) المقريزى: مخطوطة اتعاظ الحنفا، ص ١٣٥ أ، وابن ميسر: تاريخ مصر، ص ٧٥.

أخيرًا ولى الحافظ الخلافة، وبتوليته حدث انقطاع فى الفرع الفاطمى الأصيل، فقد كان الخلفاء الفاطميون الذين حكموا قبله كلهم من نسل عبيد الله المهدى، وكل خليفة منهم ابنا للخليفة السابق، وسيصبح الحافظ - أصلاً لفرع جديد، ولكن هذا التحول فتت الإسماعيلية تفتيتًا جديدًا، فانقسموا كما أسلفنا - إلى إسماعيلية حافظية وهم أتباع الخلافة الفاطمية الجديدة فى مصر، وإسماعيلية طيبية، وقد انتشروا فى اليمن والهند.

وفى عهد الحافظ حدثت أزمة أخرى كانت معولاً جديدًا ساعد على تحطيم ما بقى للدولة الفاطمية من قوة، فقد أراد الحافظ أن يتخلص من سلطة الوزراء واستبدادهم بشؤون الحكم، كما أراد أن يمهد لاستقرار الحكم فى أسرته، فأصدر فى سنة ٥٢٨ سجلاً بتولية ابنه الأكبر سليمان ولاية العهد وأقامه مقام الوزير.

ولكن سليمان توفى بعد صدور هذا السجل بشهرين، فأصدر الحافظ سجلاً آخر بتولية ابنه الثانى حيدرة ولاية العهد، فشق ذلك على أخيه حسن، فقد كان أكبر أولاد الحافظ سنا بعد وفاة سليمان، وقام حسن بثورة حربية خطيرة، وانقسم الجيش الفاطمى نتيجة لهذه الفتنة على نفسه، وكانت هذه الواقعة - كما يقول المقريزى - «أول مصيبة نزلت بالدولة من فقد رجالها ونقص عدد عساكرها..».

وحاول الحافظ محاولات كثيرة لإخماد هذه الثورة واسترضاء ابنه حسن، ولم يجد بدًا «من مداراة حسن، وتلافى أمره عساه ينصلح، وكتب سجلاً بتوليته العهد، وأرسله إليه، فقرىء على الناس، فما زاده ذلك إلا جرأة عليه، وإفسادًا له».

ولم تخمد هذه الفتنة إلا بعد أن قتل حسن، ولكنها كانت عاملاً جديدًا من عوامل إضعاف الدولة بعد انقسام الجيش على نفسه وقتل عدد كبير من كبار قواده.

ولم تنشب الصعوبات فى هذا العصر الثانى فى الداخل وحسب بل نشبت فيه صعوبات أخرى فى الخارج، أخذت تؤثر فى كيان الدولة وتعمل على فصل أطرافها طرفًا طرفًا، وقد أشرنا من قبل إلى انفصال شمال أفريقيا كله، ثم انقطاع الخطبة الفاطمية فى الحجاز لفترة ما، ثم انفصال جزيرة صقلية.

وقد استمرت حركة الانفصال فى طريقها، ففى عهد المستعلى بدأ عدوانان خطيران يهددان أملاك الدولة فى الشام، فاستولى الأتراك السلاجقة على دمشق والأجزاء الداخلية من الشام، وقطعوا الخطبة للمستعلى وخطبوا للخليفة العباسى.

وفى عهده أيضًا، فى سنة ٤٩٠ هـ، تحركت الحملة الصليبية الأولى من القسطنطينية لأخذ سواحل الشام فملكوا أنطاكية، وفى سنة ٤٩٢ هـ ملكوا بقية الساحل وبيت المقدس، ولم يبق بأيدى الفاطمين غير مدينة عسقلان.

وفى عهد الآمر استولى الفرنج على عدد آخر من مدن الشام وخاصة طرابلس وبانياس وصور. وفى عهد الحافظ قطع الصليحيون الخطبة له فى اليمن، وخطبوا للطيب. وهكذا تجمعت عوامل الضعف لتعمل مجتمعة على إنهاء الدولة، وأصبح وزراء الدولة هم أصحاب السلطان الفعلى، بل أصبحوا هم الذين يختارون الخلفاء.

ومن الشواهد القوية على عظم هذا النفوذ إن الصالح طلائع بن رزيك عمد إلى اختيار طفل صغير ليلى الخلافة بعد موت الفائز، وهو الذى سمى فيما بعد باسم «العاضد لدين الله»، واجتمع الناس للاحتفال بتوليه وأحدثوا ضجة كبرى، فسأل طلائع عن مصدر هذه الضجة فقيل له إن الناس يفرحون بالخليفة، فقال: «كأنى بهؤلاء الجهلة يقولون: ما مات الأول حتى استخلف هذا، وما علموا أننى كنت من ساعة استعرضهم استعراض الغنم»[1].

(١) المقريزى: مخطوطة اتعاظ الحنفا، ص ١٥ ب.
وانظر أيضًا الشيال: مجموعة للوثائق الفاطمية، ص ١٢٠ - ١٢٣.

الفصل الخامس

نهاية الدولة الفاطمية

وقيام دولة صلاح الدين

كان أهم الأسباب التى أدت إلى ضعف الدولة - كما أسلفنا - هو استبداد الوزراء بشؤون الحكم، لهذا أصبح منصب الوزارة محط أنظار قواد الجيش وكبار رجال الدولة، فقامت بين بعضهم والبعض الآخر منافسات دامية فى سبيل الوصول إلى هذا المنصب، وكان النزاع الذى قام بين شاور - وزير العاضد آخر خلفاء الفاطميين - وضرغام - صاحب الباب - هو آخر حلقة من حلقات هذه المنافسة، وقد انتهى الصراع بين الرجلين بانتصار ضرغام وتوليه الوزارة، وفرار شاور إلى الشام.

وكانت الشام قد انسلخت من ملك الفاطميين واقتسمت ملكها قوتان: قوة نور الدين محمود ابن زنكى فى الداخل، وقوة الصليبيين فى الساحل وفى فلسطين.

وقد لجأ شاور إلى القوة الإسلامية، إلى نور الدين، وسأله أن يرسل معه جيشاً إلى مصر ليساعده فى نضاله مع خصمه ضرغام، وفى إعادته إلى منصب الوزارة، وعرض أن يدفع له - مقابل هذه المساعدة - ثلث إيرادات مصر، وأن يدين له بالولاء إن عادت إليه مقاليد الحكم والوزارة.

ورحب نور الدين بشاور واستضافة، وتردد أول الأمر فى إجابته إلى مطلبه، ولكنه لم يلبث أن وافق، ففى هذه الموافقة تحقيق لخطته التى كان يهدف من ورائها إلى توحيد الجبهة الإسلامية توطئة لمقاومة الخطر الصليبى والقضاء عليه.

وأرسل نور الدين مع شاور جيشًا بقيادة أسد الدين شيركوه، وصحب أسد الدين معه ابن أخيه يوسف صلاح الدين، وعلم ضرغام بخروج هذا الجيش وقرب وصوله إلى مصر، فأصابه الفزع، إذ لم يكن الجيش الفاطمى فى حالة تمكنه من المقاومة أو إحراز النصر، وأرسل ضرغام يستنجد بالقوة الثانية فى الشام، بالصليبيين.

ووصل أسد الدين شيركوه إلى مصر - وفى معيته شاور -، وانتصر على جيش ضرغام، وتفرق عن ضرغام قواده وأعوانه، ثم قبض عليه وقتل، وأعيد شاور - نتيجة لهذا النصر - إلى دست الوزارة.

غير أن شاور كان من خلقه الغدر والخيانة، فلم يلبث أن حنث بوعده، ورفض أن يدفع لشيركوه المبلغ المتفق عليه، بل طلب إليه الانسحاب بجيشه والعودة إلى الشام، وآلم شيركوه

مسلك شاور، وأبى أن يستمع له، وعسكر بجيشه عند مدينة بلبيس، وتحصن بأسوارها، وهنا فعل شاور ما فعله ضرغام من قبل، فلجأ إلى عمورى Amairic ملك بيت المقدس الصليبى، وأرسل يستنجد به، ورحب عمورى بالدعوة وأسرع بالخروج بجيشه، لأنه كان يخشى أن يملك نور الدين مصر فتصبح قوى الصليبيين وأملاكهم فى الشام محاصرة بقوى نور الدين من الشمال والجنوب.

اتجه عمورى بجيشه فى سنة ٥٥٩هـ (١١٦٤م) نحو مصر، وحاصر أسد الدين فى بلبيس شهورًا ثلاثة، وأحس نور الدين بما يهدد جيشه فى مصر من خطر، فبدأ يضغط على أملاك الصليبيين فى الشام، وهاجم بانياس، مما جعل عمورى يفكر جديا فى الانسحاب، واتفق أخيرًا مع شيركوه على أن ينسحبا معًا وفى وقت واحد من مصر.

خرجت القوتان من مصر ولكن لتعودا إليها ثانية وثالثة، وكل منهما كانت تحاول فى كل مرة من المرات الثلاث أن تستولى على مصر للقضاء على القوة الأخرى، ولكن النصر كتب أخيرًا وفى الحملة الثالثة، لقوى نور الدين بقيادة أسد الدين شيركوه.

وقتل شاور لغدره وخيانته واستعانته بالصليبيين المرة بعد الأخرى، ولم يجد العاضد من بين رجاله من يصلح للوزارة، فاختار أسد الدين ليكون وزيره، غير أن أسد الدين لم يعمر فى الوزارة غير شهرين ثم مات، فاختار العاضد ابن أخيه صلاح الدين وزيرًا.

كان موقف صلاح الدين منذ ولى الوزارة موقفًا غريبًا، فهو وزير لصاحب مصر الخليفة العاضد الفاطمى الشيعى، وهو فى الوقت نفسه قائد الجيش نور الدين صاحب الشام السنى، فهو موزع الولاء، ومع هذا كان يتبع فى سياسته إزاء الرجلين الحكمة والتؤدة.

غير أن نور الدين كان يود أن يبادر صلاح الدين بالقضاء على الدولة الفاطمية، وقطع الخطبة لآخر خلفائها العاضد، ثم إقامة الخطبة للخليفة العباسى، وكان نور الدين مدفوعًا فى هذا بسنيته، وكرهه للشيعة، وبرغبته فى إجابة الخليفة العباسى إلى طلبه، فقد كان دائم الإلحاح عليه أن يقيم له الخطبة فى مصر، ولكن صلاح الدين كان أعرف من نور الدين بأحوال مصر.

ولهذا آثر التمهل، وأن يمهد الطريق قبل أن يضرب ضربته الأخيرة، فقد كان رجال القصر والدولة الفاطمية غاضبين، ويودون لو استطاعوا أن يقضوا على صلاح الدين ومن معه، ليستعيدوا نفوذهم وسلطانهم المسلوب، وكان صلاح الدين يخشى إن هو أسرع بقطع الخطبة والقضاء على الدولة أن ينجح هؤلاء فى الثورة عليه، يقول ابن واصل فى كتابه «مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب»: «كان العادل نور الدين لما تحقق ضعف الدولة المصرية، وأنه لم يبق

لهم منعة، كتب إلى صلاح الدين يأمره أن يقطع خطبة العاضد، ويخطب للخليفة من بنى العباس، فاعتذر صلاح الدين بن أيوب بالخوف من وثوب أهل مصر وامتناعهم من الإجابة لذلك لميلهم إلى العلوية» فلم يصغ نور الدين إلى قوله، وأرسل إليه يلزمه إلزامًا لا فسحة فيه..» [1].

وبدأ صلاح الدين بالخطوات التمهيدية لتقليم أظافر الخليفة العاضد وقواد جيشه ورجال قصره، فأبعد هؤلاء القواد عن القاهرة، واستولى على إقطاعاتهم ومنحها لقواده هو المخلصين له فى ولاءهم وإخلاصهم، ثم أرسل إلى نور الدين يستأذنه فى أن يرسل إليه أباه نجم الدين أيوب وبيته وأهله، فأرسلهم إليه، وكان نجم الدين أيوب بعد وصوله خير عضد ونصيح لابنه صلاح الدين، فقد كان الرجل ذا دهاء ومكر وخبرة طويلة.

وبدأ صلاح الدين كذلك بتعميم حركة إنشاء المدارس فى مصر، وقد كان الهدف من حركة إنشاء المدارس منذ بدأها السلاجقة وتبعهم فيها الأتابكة هو محاربة المذهب الشيعى، والدعوة للمذهب السنى وتدريسه، وقد كانت أول مدرسة أنشأها صلاح الدين فى مصر هى المدرسة الناصرية التى أنشئت فى الفسطاط لتدريس المذهب الشافعى، ثم أنشأ مدرسة أخرى لتدريس المذهب المالكى، ثم تبعه أفراد أسرته ورجال دولته، فأنشأوا مدارس أخرى كثيرة فى مختلف المدن المصرية.

وخطا صلاح الدين خطوة أخرى، فعين صدر الدين عبد الملك بن درباس الشافعى قاضيًا للقضاة، فجعل القضاة فى سائر الديار المصرية شافعية، يقول ابن واصل معقبًا على حركة إنشاء المدارس، وعلى حركة تحويل القضاة من المذهب الشيعى الإسماعيلى إلى المذهب الشافعى: «فاشتهر مذهب الشافعية، واندرس مذهب الإسماعيلية بالكلية، وانمحى أثره، ولم يبق أحد من أهل البلاد يمكنه التظاهر به».

وليس أبلغ من هذا القول للدلالة على قيمة هذه الخطوات التى كان يخطوها صلاح الدين فى حرص وحذر للتمهيد لتحقيق رغبة الخليفة العباسى ونر الدين بقطع الخطبة للعاضد.

ولما تم له ذلك كله، جمع أمراء جيشه ليستشيرهم فى أمر قطع الخطبة فترددوا كثيرًا، وأخيرًا تقدم فقيه يدعى الأمير العالم وتطوع أن يبدأ هو بتنفيذ هذه الفكرة.. وفى يوم الجمعة الأول من المحرم سنة ٥٦٧هـ خطب هذا الرجل، ولم يدع للخليفة العاضد، وإنما دعا للخليفة

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب، نشر الشيال، ج١.

العباسى المستضىء بنور الله، فلم ينكر ذلك أحد عليه، فلما كانت الجمعة التالية، أمر صلاح الدين بتعميم الخطبة للخليفة العباسى فى مساجد الفسطاط والقاهرة جميعًا، وبذلك انتهى آخر خيط فى حياة الدولة الفاطمية.

أما الخليفة العاضد فيقال إنه كان مريضًا، فلما سمع بهذا النبأ اشتد به المرض، وتوفى فى يوم عاشوراء، أى فى اليوم العاشر من المحرم من هذه السنة، وهكذا انتهت الدولة الفاطمية بعد أن حكمت مصر قرابة قرنين من الزمان، كانت مصر فى خلالهما إمبراطورية مستقلة واسعة مترامية الأطراف ذات حضارة مجيدة مزدهرة.

البـــاب الثالث

العلاقات بين مصر واليمن
فى العصر الفاطمى

العلاقات بين مصر واليمن
فى العصر الفاطمى

قامت فى مصر كما قامت فى اليمن – منذ أقدم العصور – حضارات ومدنيات عظيمة سجلت لكل من البلدين ذكرًا ومجدًا فى التاريخ، وقد نشأت بينهما علاقات كبيرة مختلفة، بعضها تجارى اقتصادى، وبعضها سياسى تاريخى. ولقد كان البحر الأحمر منذ عهد الفراعنة طريق اتصال بين مصر وبلاد «بنت» لحاجة شعب مصر وحكامها إلى منتجات هذه البلاد، وخاصة المر واللبان وأصناف البخور والعطور والصموغ، إذ لم يكن لهم غنى عنها لضرورة استعمالها فى معابدهم وهياكلهم الدينية. وقد زاد الاهتمام بتجارة مصر مع بلدان الشرق فى عهد رمسيس الثانى الذى أنشأ أسطولاً تجاريًا كبيرًا كانت سفنه تجوب البحر الأبيض إلى شواطئ سوريا، والبحر الأحمر إلى الصومال وجنوبى بلاد العرب. ولما ولى البطالمة عرش مصر جعلوا همهم الأول أن يشيدوا فى مصر دولة مستقلة غنية، لهذا سعوا للسيطرة على طرق التجارة المؤدية إلى الشرق، ومنها طريق البحر الأحمر، فانتعشت التجارة فى أيامهم، ولكنها ضعفت وأضمحلت فى أواخر عهدهم بسبب الثورات والفتن التى سادت البلاد وأدت أخيرًا إلى انتقال الحكم إلى أيدى الرومان.

وفى عهد الرومان أرسل أغسطس حملة لإخضاع قبائل اليمن العربية. وذلك لتحويلها التجارة عن طريق مصر إلى الطريق البرية الأخرى، فخرب الأسطول عدن، وعادت لمصر سيطرتها على تجارة الشرق. كذلك نهج البيزنطيون هذا النهج، فاهتموا اهتمامًا شديدًا بتجارة الهند عن طريق مصر، فكانوا يعينون موظفًا خاصًا يرتحل سنويا لجلب متاجر الهند عن طريق البحر الأحمر، وكان يساعد فى نقلها تجار من الهنود والعرب والمصريين. وفى عهد عمر بن الخطاب فتح العرب مصر، فاشتد وثاق الروابط بين مصر وبلاد العرب عامة، فقد أصبحت أرض الفراعين إحدى ولايات الخلافة الإسلامية.

يتضح من هذه الإشارات العابرة أن العلاقات الاقتصادية والسياسية بين مصر واليمن كانت علاقات ذات أهمية فى تاريخ البلدين جميعا منذ القدم ويزيد فى وضوح هذه العلاقة دراسة اتجاهات الطرق التجارية فى كل منهما، فكثير من الطرق البرية الداخلية فى مصر ممتد بين المدن النيلية وشواطئ البحر الأحمر، كما أن الطرق البحرية فى هذا البحر تتجه فى معظمها نحو ثغور بلاد العرب الغربية والجنوبية. كذلك كانت الطرق البرية الرئيسية فى شبه جزيرة

العرب تصل بين أقصى الجنوب وأقصى الشمال، ثم تتجه بعد ذلك شمالا إلى الشام أو تنحرف غربا مخترقة شبه جزيرة سيناء إلى مصر.

وأهم هذه الطرق البرية بوادى النيل كان يبدأ عند «عيذاب»، ويخترق وادى الحمامات حتى يصل إلى قفط. ويلى هذا الطريق فى الأهمية طريق آخر كان يبدأ قرب منف - العاصمة القديمة - ويجتاز وادى الطميلات حتى يصل إلى مدينة القلزم، وهى تبعد قليلاً عن السويس الحالية، فكانت تجارة الشرق الوافدة من اليمن تصل إلى أحد هذين الميناءين ، ثم تحمل منهما عبر هذين الواديين إلى ضفة النيل الشرقية، ومن هناك تحملها السفن النيلية إلى موانى، مصر الشمالية : دمياط، ورشيد، والاسكندرية، وكان هناك طريق برى ثالث تصعد التجارة عبره من الفرما إلى القلزم التى يصفها المقريزى بأنها كانت «فرضة مصر والشام، ومنها تحمل الحمولات إلى الحجاز واليمن».

هذه هى الطرق التى كانت تنقل بوساطتها التجارة الوافدة من الشرق والصادرة إليه قديمًا. فلما كان الفتح العربى أعيد فتح الترعة القديمة سنة ٢٣هـ (٦٤٣م) التى كانت بدايتها شمال مصر القديمة بقليل ونهايتها إلى ما قبل القلزم بميل، وذلك لنقل الغلال إلى المدينة مقر الخلافة الإسلامية وقتذاك.

وكانت على ضفتى النيل طرق زراعية تسير بمحاذاة النهر تصل بين جنوب مصر وشمالها، ففى العصر الفاطمى مثلاً كان هناك جسر مرتفع من الطين «ليسير عليه الناس، وتصرف خزانة السلطان كل سنة للعامل المعتمد عشرة آلاف دينار مغربى لتجديد عمارته» (١) .

هذه هى طرق القطر المصرى الداخلية بين البحر الأحمر والنيل، أما الطريق عبر البحر إلى اليمن فقد كان محفوفًا بالأخطار، تعترضه الصعاب المناخية والشعاب الصخرية، ومع هذا كانت تجتازه السفن إلى موانئ اليمن الشهيرة التى تقع على شواطئ بلاد العرب الغربية والجنوبية. وقد كانت موانئ الشاطئ الغربى فى تغير مستمر لتوال ارتفاع هذا الشاطئ وانحسار مياه البحر عنها، فالرمال ما برحت تطمر مرافئه وتمنع السفن الكبيرة من الوقوف إلا على بعد شاسع. حدث هذا الطمر قبل أربعة أو خمسة قرون فى مرفأ غلافقة، وقد كانت - كما قال ياقوت فى «معجم البلدان»: «مرسى زبيد»، وكانت زبيد عاصمة تهامة وأكبر مدنها فيما مضى، فلما اندثر غلافقة انحط شأن زبيد. وحدث الطمر أيضًا - إلى حد كبير - فى ميناء مخا، فكان ذلك من أسباب تأخرها وتقدم الحديدة الحديثة العهد.

أما الموانئ الجنوبية فأهمها جميعًا عدن، وهى «بلد جليل عامر آهل حصين خفيف، دهليز الصين، وفرضة اليمن، وخزتنة المغرب، ومعدن التجارات، كثير القصور، مبارك على من دخله، مثرٍ لمن سكنه» (٢).

---

(١) انظر: ناصر خسرو: «سفر نامه»، ترجمة الدكتور يحيى الخشاب» ص ٤٣.

(٢) المقدسى : (أحسن التقاسيم) ، ص ٨٥.

ويذكر المقدسى ثبتًا دقيقًا لأنواع المتاجر التى كان اليمن يشتهر بها فيقول:

«واليمن معدن العصائب والعقيق، والأدم والرقيق، فإلى عمان تخرج آلات الصيادلة والعطر كله حتى السمك والزعفران والبقم والساج، والساسم والعاج، واللؤلؤ والديباج، والجزع واليواقيت والأبنوس، والنارجيل والقندو الاسكندروس، والصبر والحديد والرصاص، والخيزران والغضار، والصندل والبلور والفلفل وغير ذلك، وتزيد عدن بالعنبر والشروب والدرق والحبش والخدم وجاود النمور..» [1].

أما ما كانت تشتهر به مصر، فيقول المسعودى فى «التنبيه والاشراف» (ص ١٩): «ويحمل إليها من حميع الممالك المحيطة بهذين البحرين (بحر الحجاز وبحرالشام) من أنواع المتعة والطرائف والتحف من الطيب والأفاويه والعقاقير والجوهر والرقيق، وغير ذلك من صنوف المآكل والمشارب والملابس، فجميع البلدان تحمل إليها وتفرغ فيها..».

وقد كان لهذا النشاط التجارى بين القطرين - فى العصر الفاطمى خاصة - أثره فى توثيق العلاقات بينهما، فرحل إلى اليمن كثيرون من تجار مصر، واستقر بعضهم فى مدنها، واتخذوها وطنًا ثانيًا، كبنى الخطباء، وهم «تجار من مصر تديروا عدن، وولى بعضهم نظر عدن» [2] فى العصر الفاطمى، وبنوا هناك دارًا شهيرة عرفت باسم «دار السعادة».

كذلك كان لهذه العلاقات التجارية، ولخضوع الأسر الشيعية - التى حكمت اليمن - لسلطان الفاطميين، وإقرارهم بالولاء لخلفاء هذه الدولة المصرية، أثر اقتصادى كبير، فأصبحت العملة المصرية هى المنتشرة والمتداولة فى اليمن.

هذا من الناحية الاقتصادية، أما من الناحية السياسية فقد كانت هناك أيضًا أوجه شبه كثيرة بين تاريخ مصر وتاريخ اليمن منذ ظهور الإسلام إلى قيام الدولة الفاطمية، فقد ظل اليمن فى القرنين الأول والثانى للهجرة أقسامًا ثلاثة يحكم كلا منها وال، فكان هناك وال على الجند ومخاليفها، وآخر على صنعاء ومخاليفها، وثالث على حضرموت ومخاليفها، وفى القرن الثالث تفككت عرى الدولة العباسية، ونشأت فى أطرافها دويلات جديدة تحكمها أسرات مستقلة، كدولة الأدارسة فى المغرب الأقصى، ودولة الاغالبة فى أفريقية (تونس).. إلخ.

وحذا محمد بن زياد - من ولد عبيد الله بن زياد بن أبى سفيان - حذر مؤسسى تلك الدول، وأخذ - منذ سنة ٢٠٤هـ يشيد لنفسه سلطانًا فى اليمن، وبنى مدينة جديدة فى تهامة أسماها زبيد، واتخذها عاصمة لملكه. وظل أعقابه يتداولون حكم اليمن - مع إقرارهم بالولاء

---

(١) «أحسن التقاسيم»، ص ٩٧ و٩٨.

(٢) بامخرمة: «تاريخ ثغر عدن»، ج ١، ص ١٠ و١١.

للدولة العباسية - حتى ولى منهم أبو الجيش إسحق بن إبراهيم سنة ٢٩١هـ - ٣٧١هـ (٩٠٣ - ٩٨١م) وفى عهد ولايته لليمن بلغه قتل الخليفة المتوكل وخلع المستعين، واستبداد القواد الأتراك بالأمر دون الخلفاء «فمنع ارتفاع اليمن، وركب بالمظلة شأن سلاطين العجم المستبدين»[1].

وفى أيامه خرج باليمن الإمام الهادى إلى الحق [2] يحيى بن الحسين بن القاسم الرسى بن طباطبا، واتخذ صعدة مركزًا لنشر دعوته، وفى عهده أيضًا ظهرت بوادر الدعوة الفاطمية، قام بها على بن الفضل ببلدة عدن لاعة وفى جبال اليمن سنة ٣٤٠هـ؛ كما أخضع سليمان بن طرف جزءًا كبيرًا فيما يجاور الساحل الشمالى لليمن وجعل عاصمته «عثر» يذكر با مخرمة خبر خروج هؤلاء الولاة على أبى الجيش إسحق، ولكنه يذكر أيضًا أن اثنين منهم، وهما أسعد بن أبى يعفر - صاحب صنعاء - وسليمان بن طرف - صاحب «عثر» - «كانا مع فعلهما يخطبان لأبى الجيش، ويضربان السكة على اسمه، لكن لا يحملان له ضريبة ولا ميرة ولا هدية» [3].

وقد خلف أبو الجيش هذا أطفالاً صغارًا استبد بالأمر دونهم وزراء من الموالى، إلى أن أسس نجاح - وهو مولى مرجان أخر وزير لبنى زياد - أسرة جديدة - وهى أسرة بنى نجاح - فى زبيد سنة ٤١٢هـ (١٠٢١م).

وهناك شبه كبير بين تاريخ اليمن وتاريخ مصر فى تلك الفترة، فقد بقيت مصر والحكم فيها بيد الولاة المعينين من قبل الخلفاء، حتى كان منتصف القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) بعد قيام دولة بنى زياد باليمن بنحو نصف قرن - فاستقل بحكم مصر أحمد بن طولون، ثم الإخشيديون، إلى أن ضعف شأنهم، ففتحها الفاطميون وجعلوها مركز دولتهم الواسعة.

ولم تكن بين مصر واليمن فى عهد هذه الدويلات غير العلاقات التجارية السابق ذكرها، ولكن الأمر تغير فى عهد الفاطميين، فدانت بالولاء لمصر، وقامت بالقطرين دول شيعية بينها كثير من التشابه، وتبودلت الرسل والسفارات والهدايا بين البلدين، وبقيت العلاقات السياسية بين حكام مصر واليمن وثيقة قوية، واستمرت الدعوة الشيعية العبيدية فيها حتى ظهرت دولة صلاح الدين وكانت دولة سنية، فجعلت همها الأول القضاء على المذهب الشيعى والقائمين بأمره والحاكمين باسمه فى البلدين جميعًا.

وقد بدأت الدعوة الفاطمية فى الظهور حوالى منتصف القرن الثالث الهجرى، وكان ذلك فى سليمة - بين حماة وحمص - ومنها أرسل عبيد الله المهدى الدعاة إلى أطراف العالم الإسلامى، وخاصة بلاد الجزيرة وبلاد فارس واليمن.

---

(١) ابن خلدون: العبر، ج ٤، ص ٢١٣.

(٢) انظر أخباره بالتفصيل فى: المرجع السابق، ص ١١١- ١١٣، الواسعى: فرجة الهموم والحزن، ص٢١-٢٣

(٣) با مخرمة: تاريخ ثغر عدن، ج ٢، ص ١٦ - ١٧، انظر أيضًا عمارة: تاريخ اليمن، ص ٤ - ٦.

وكان أنجح هؤلاء الدعاة أولئك الذين أرسلوا إلى اليمن، وهم على بن الفضل الجدنى اليمانى، وأبو القاسم بن زاذان الكوفى الملقب بالمنصور، وأبو عبد الله الشيعى.

أما على بن الفضل فيمنى كان ينتحل مذهب الاثنى عشرية، وقد خرج من اليمن حاجًا، فأدى الفريضة، وسار إلى الكوفة ليزور قبر الحسين، وهناك تقابل مع عبيد الله المهدى فاتفقا فى المشارب والغايات، وقال ابن الفضل لصاحبه: «إن الفرصة ممكنة باليمن، وإن الذى تدعو إليه جائز هناك»، فقال عبيد الله: «أنا موجهك والمنصور الحسن بن زاذان» [١].

وعاد المنصور وعلى بن الفضل إلى اليمن، فذهب أولهما إلى الجند، ووصل الثانى إلى عدن لاعة، وأخضع الجهات الجبلية المجاورة، وحارب أسعد بن يعفر وأغتصب منه صنعاء حينًا إلى أن استردها منه، فلما قوى شأنه «استعمل الطبول والرايات وأظهر مذهبه»، [٢] ودعا إلى عبيد الله المهدى، وكان ذلك فى السنوات العشرة الأخيرة من القرن الثالث الهجرى.

ولم ينس المنصور أيضًا زعيمه - عبيد الله - فأرسل إليه خبر هذه الفتوح، وأرسل مع الخبر الهدايا قال ابن مالك الحمادى اليمنى: «وقد كان المنصور كتب قبل أن يختلف هو وعلى بن الفضل إلى ميمون (يقصد عبيد الله) وولده يخبره بما فتح من البلاد، ووجه إليهما بهدايا وطرف من طرف اليمن، وكان ذلك فى سنة تسعين ومائتين، فلما وصلت هديته، سرهما ذلك، وقال (أى عبيد الله) لولده: «هذه دولتك قد أقبلت» [٣].

وقد اختلف على بن الفضل - بعد أن قوى شأنه وملك صنعاء - وزميله المنصور بن زاذان، وكان يملك قلعة شبام، وخلع ابن الفضل عبيد الله المهدى، بعد أن دعا إليه، فكتب إليه المنصور يعاتبه، واشتمد النزاع بين الرجلين واستمر إلى أن مات المنصور سنة ٣٠٢هـ (٩١٤م)، ثم مات من بعده على بن الفضل مسمومًا فى سنة ٣٠٣هـ بعد أن حكم سبع عشرة سنة، ملك فيها معظم إقليم الجند، وكان يقيم بمذ بخرة، فلما مات هاجم أسعد ابن يعفر هذه المدينة وهدمها، وقتل من بها من القرامطة، واسترد صنعاء.

وأراد أن يستعد للمستقبل فلا يتيح لأتباع ابن الفضل القيام بهذه الدعوة من جديد، فعقد حلفًا بينه وبين القائمين بالأمر فى قسمى اليمن الآخرين، وهما: الأمير إبراهيم بن زياد فى زبيد، والإمام الهادى الناصر أحمد بن يحيى فى صعدة، «وتعاقدوا على المعاضدة والمناصرة، وقتل القرامطة حيث ما وجدوا.. ولم يبق من القرامطة إلا شرذمة قليلة من أولاد المنصور فى ناحية مسور» [٤].

---

(١) ابن مالك الحمادى اليمنى: «كشف أسرار الباطنية»، ص ٢٢.
(٢) المرجع السابق ص ٢٦.
(٣) المرجع السابق، ص ٢٧ - ٢٨.
(٤) المرجع السابق: ص ٣٨ - ٣٩.
انظر أيضًا: البهاء الجندى «أخبار القرامطة» (ضمن «تاريخ اليمن» لعمارة)، ص ١٥٠.

أما المنصور فكان أوفى بالعهد من على بن الفضل، فأوصى أن يخلفه - بعد موته - ابنه أبو الحسن المنصور، ورجل آخر يدعى عبد الله بن عباس الشاورى، وقال لهما: «قد أوصيتكما بمبدأ الأمر فاحفظاه، ولا تقطعا دعوة بنى عبيد.. فنحن غرس من غرسهم، ولولا ناموسهم، وما دعونا به إليهم ما صار إلينا من الملك ما قد نلناه، ولا تم لنا فى الرياسة حال، فعليكما بمكاتبة القائم منهم، واستيراد الأمر منهم، فأوصيكما بطاعة المهدى - يعنى عبيد الله - حتى يرد أمره بولاية أحدكما، ويكون كل منكما عونًا لصاحبه..».

وقد اتصل كل من الرجلين - على حدة - بعبيد الله المهدى يطلب الأمر لنفسه، فولى المهدى ابن عباس، لسابق معرفته به عندما خرج مع أبى عبد الله الشيعى يقيم وإياه الدعوة بالمغرب، فتألم أولاد المنصور وظلوا يدبرون المكيدة لابن عباس، حتى وثب عليه أبو الحسن بن المنصور، وقتله وولى الأمر من بعده، «ورجع إلى مذهب الإسلام، وجمع العشائر من بلده، وأشهر لأنه رجع عما كان عليه أبوه فأحبه الناس..»، واقتفى آثار أتباع أبيه وأنصار مذهبه يقتلهم ويفتك بهم، فلم يبق منهم إلا نفر قليل يكتمون أمرهم، ويقيم ناموسهم رجل منهم دائم الاتصال بخلفاء الفاطميين، فكان كما يقول ابن مالك: «لا يقطع مكاتبة بنى عبيد».

وظل الأمر على ذلك إلى أن ولى المعز، فكان زعيم هؤلاء القرامطة باليمن رجل يقال له «ابن رحيم»، سار على نهج سلفه من الدعاة، فكانت المعز بعد خروجه إلى مصر، ولم يزل يكاتب خلفاءه من الفاطميين وينهى إليهم أخبار أهل اليمن حتى مات. وخلف ابن رحيم داع آخر يسمى «يوسف بن الأمشح» من أهل شبام خمير، فظل يدعو فى السر للخليفة الحاكم وبعد موته خلفه عامر بن عبد الله الزواحى، وكان ثريًا وفير المال فاستمال الرعاع والفقراء إلى مذهبه، وجهر بالدعوة والمبايعة للحاكم ثم للمستنصر من بعده.

وكان كل داعية من هؤلاء يمهد السبيل لداعية آخر يخلفه إذا مات، وهكذا فعل الزواحى، فإنه اتصل بقاضى سنى المذهب ذى رياسة وسؤدد، اسمه محمد بن على الصليحى، وأكثر من زيارته، وكان فى تردده عليه يتصل بابنه على وهو صبى يافع البلوغ، ويخلو به، ويلقنه مبادئ الدعوة، ويوهمه أنه يرى فى كتبه التى بين يديه أنه ذو مستقبل باهر، وأنه سيكون له شأن ودولة وحكم.

وقبيل موته أوصى له بكتبه وبمال كثير كان قد جمعه من أهل مذهبه ومنذ ذلك الحين بدأ على بن محمد الصليحى يدعو للمذهب سرًا، ويمهد الأمر لنفسه، فتبعه نفر غير قليل.

وفى سنة ٤٢٩هـ ثار الصليحى فى رأس مسار، وفى سنة ٤٥٢هـ استولى على تهامة بعد أن أهدى نجاحا والى زبيد جارية جميلة قتلته بالسم. وفى السنة التالية أرسل سفارة - من خاله

أحمد بن المظفر، ومعه أحمد بن منصور الصليحى - والد السيدة الصليحية الآتى ذكرها - إلى الخليفة المستنصر بالله يستأذنه فى إظهار الدعوة.

وكان السفراء يحملون معهم الهدايا الثمينة إلى الخليفة الفاطمى، فعاد إليه الجواب بالإذن، وأرسل إليه المستنصر رايات وألقابًا وعقد له الولاية «فطوى البلاد طيا، وفتح الحصون والتهائم، ولم تخرج سنة خمس وخمسين وبقى عليه من اليمن سهل ولا وعر ولا بر ولا بحر إلا فتحه» [١].

وفى سنة ٤٥٥هـ استولى على بن محمد الصليحى على مكة أيضًا، وبذلك بلغ الذروة من القوة، فخضع له اليمن نجدًا وتهامة، كما خضعت له مكة، كذلك افتتح مدينة عدن فوجد بنى معن يحكمونها فأبقاها فى أيديهم مع خضوعهم له، وقد حكم من بعده ابنه المكرم أحمد فنقل العاصمة من صنعاء إلى ذى جبلة فى مخلاف جعفر، وخرج بنو معن - حكام عدن - عن طاعته، فسار إليها وافتتحها ثانية، وأزال بنى معن، وولاها العباس ومسعودا ابنى المكرم الهمدانى الزريعى.

ثم خلف من بعدهما أولاد العباس هذا، وكونوا الأسرة الزريعية التى ظلت تحكم عدن ثلاثًا وتسعين سنة (٤٧٦هـ - ٥٦٩هـ) وهى أسرة شيعية أيضًا، كان أمراؤها - كما يروى بامخرمة - «يؤدون الخراج إلى الخلفاء الفاطميين وهو لأجل المذهب».

وقد تزوج المكرم بن على من الحرة الملكة السيدة بنت أحمد، وكانت ذات عقل راجح وتفكير سليم، فعاونته معاونة جدية فى إدارة ملكه، وقد بقيت تقيم فى مقر حكمه - ذى جبلة - وخلفته أيضًا فى الدعوة - اتباعًا لوصيته - بالاشتراك مع المنصور سبأ بن أحمد بن المظفر بن على الصليحى الذى اتخذ «أشيح» مقرًا له وقد حدث نزاع بينه وبين السيدة الحرة، موضوعه رغبته فى الزواج منها ورفضها هذا الزواج، وألح هو فى طلبه، وألحت هى فى رفضها، وأخيرًا لجأ المنصور سبأ إلى الخليفة المستنصر يستنجد به، فأرسل الخليفة إلى اليمن رسولين وأستاذًا، مازالوا بها حتى أقنعوها فقبلت، غير أنه كان زواجًا فاشلاً لم يعمر أكثر من ليلة واحدة[٢].

---

(١) عمارة «تاريخ اليمن» ص ١٤ و١٨؛ وانظر أيضًا: ابن مالك، المرجع السابق، ص ٤٣، وبامخرمة، المرجع السابق، ج ٢، ص ١٥ و١٦١. وهناك خلاف واضح بين المؤرخين عند تحديد السنة التى دعا فيها الصليحى للخليفة المستنصر باليمن: فالمقريزى فى «الخطط»، ج ٢، ص ١٧٠، يذكر أن الدعوة بدأت سنة ٤٤٢هـ؛ وأبو المحاسن فى «النجوم الزاهرة»، ج ٥، ص ٥٨، يقرر أنها كانت سنة ٤٤٧هـ؛ أما عمارة فيذكر أن الصليحى كتب للمستنصر يستأذنه فى نشر الدعوة سنة ٤٥٣هـ؛ ويؤيده فى هذا بامخرمة: «تاريخ ثغر عدن» ج ٢، ص ١٦١ و «دائرة المعارف الإسلامية» مادة: «على الصليحى».

(٢) أنظر تفاصيل هذا الزواج، وأخبار السفارة المستنصرية، وأسماء هؤلاء السفراء، ووصف مجلس السيدة الحرة لمقابلة الرسول، وكيف فشل هذا الزواج فى: «تاريخ اليمن» لعمارة، ص ٣٤ - ٣٧.

وانظر أيضًا: العرشى، «بلوغ المرام»، ص ٢٧.

ويبدو أن الدعوة الفاطمية كان لها دعاة فى اليمن كدعاتـها فـى القـاهرة، وأن هـؤلاء الدعـاة يتلقون الدعوة الواحد عن الآخر منذ عهد على بن الفضل والمنصور بن زاذان إلى عهد الصليحيين ومن تلاهم، وكان كل داع يحافظ على حسن العلاقة بينـه وبـين القـائم بـالأمر مـن الفـاطميين، ويحرص على أن تأتيه الموافقة الرسمية على تعيينه داعيا أو تثبيته واليا، ولكن العلاقـات بـين مصر واليمن تطورت تطورًا جديدًا فى عهد الخليفة الآمر بأحكام الله، إذ نراه يرسـل مـن لدنـه فى سنة ٥١٣ هـ (١١١٩م) داعيًا مصريًا - هو أبو الحسن على بـن إبراهيـم بـن نجيـب الدولـة المصرى - ليقوم بالدعوة، وليشرف على شؤون القائمين بأمر الدولة الصليحية فى اليمـن: الملكـة الحرة سيدة بنت أحمد الصليحى.

كان ابن نجيب الدولـة يلقب بموفـق الديـن، ومـن نعوتـه: الأمـير المنتخـب عـز الخلافـة الفاطمية، فخر الدولة، داعى أمير المؤمنين.ويتفق عمارة وبامخرمة على وصفه بالشـهامة والنبـل والعقل وحسن التدبير، وأنه كان كثير المحفوظات مستبصرًا فى مذهـب الشـيعة، قيمًـا بتـلاوة القرآن على عدة روايات، وكان فى ابتداء أمره على خزانة الكتب الأفضلية.

ولم تبين المراجع الغرض الذى أرسل من أجله ابـن نجيـب الدولـة إلى اليمـن ولكـن القـارئ يستطيع أن يستشف من بين السطور أن الأمور لم تستقم للسيدة الحرة فى منطقة نفوذهـا، وقـد تكون أرسلت إلى الآمر تستعين به فأنجدها بهذا الرسول الداعى، بدليل ما تذكـره المراجـع مـن أنها أحسنت استقباله ووثقت به، وعهدت إليه بأمور الحكم يصرفها.فكان منها بمثابـة الوزيـر «فغزا أهل الأطراف، واستخدام ٤٠٠ فارس من همدان وغـيرهم، فاشـتد بـهم جانبـه، وقويـت شوكته، وأمنت البلاد، ورخصت الأسعار»، وبدليل قول عمارة تعليقًا على مجهود ابـن نجيـب الدولة فى إخضاع الأطراف وتهدئة الحال، «وقبض يده على أموال الناس، وعدل فيهم، وأقـام الحدود، وعز به جانب الحرة الملكة، وانقمع أهل اليمن عن مطمع فى أطراف بلادها».

وبعد سنتين من وصول ابن نجيب الدولة إلى اليمن، أى فى سنة ٥١٥ هـ (١١٢١م)، مـات الأفضل شاهنشاه وزير الخليفة الآمر، وخلفه المأمون البطائحى، فكتـب إلى ابـن نجيـب الدولـة يجدد تفويضه، وأعانه ببعثة عسكرية قوامها ٤٠٠ فارس من الأرمن، و ٧٠٠ أسـود، فعـز بـهم جانبه وقوى شأنه. وفى سنة ٥١٨ هـ حاول ابن نجيب الدولة فتح زبيد واغتصابها من المنصـور فاتك النجاحى (٥٠٣هـ - ٥١٧ هـ)، ولكنه لم يوفق إلى تحقيق هذه الرغبة.

وبعد قليل وفد على اليمن رسول آخر مـن قبـل الآمـر بأحكـام الله إلى ابـن نجيـب الدولـة، ويدعى هذا الرسول (الأمير الكذاب)، ولم تذكر المراجع موضوع الرسالة التى كـان يحملـها هـذا الأمير الكذاب، ولا السبب الذى من أجله نعت بالكذاب، ولكن بامخرمة يقول إنه اجتمع بابن نجيب الدولة فى مجلس حافل، ثم أوجز وصف المجلس الذى ضـم الرجلـين والحديـث الـذى دار بينهما، فقال: «فلم يحفل به ابن نجيب الدولة، وربما أغلظ له فى القول، وأراد أن يغـض

منه فقال له: أنت والى الشرطة فى القاهرة، فقال: أنا الذى ألطم خيار من فيها عشرة آلاف نعمل».

وهذا الكذاب لم يكن بالرجل الهين اللين، فقد بدأ يكيد لابن نجيب الدولة، ومن الطبيعى أن يكون فى ذى جبلة بعض الكارهين للداعية المصرى، وخاصة بعد أن استبد بأمور الحرة الملكة، ويؤيدنا فى هذا الرأى قول بامخرمة: «فالتصق به أعداء ابن نجيب الدولة، وأكثروا بره، وحملوا إليه الهدايا، فضمن لهم هلاكه، وقال: اكتبوا معى أنه دعاكم إلى نزار[1] وأنه راودكم على البيعة له فامتنعتم، واضربوا لى سكة نزارية، وأنا أوصلها إلى الآمر. ففعلوا ذلك، فأوصل الكتب والسكة إلى مصر إلى الآمر بأحكام الله».

واتفق عند عودة الأمير الكذاب إلى القاهرة أن الخليفة الآمر كان قد قبض على وزيره المأمون البطائحى، فأوصل الكذاب الخطاب والسكة إلى الخليفة نفسه الذى اعتقد صحة ما بلغه، وأرسل رجلاً من رجال دولته اسمه الموفق بن الخياط، ومعه ابنه سعد الملك ومائة فارس من الحجرية للقبض على ابن نجيب الدولة فى اليمن وإعادته إلى مصر، فلما وصل ابن الخياط إلى ذى جبلة، وطلب إلى الحرة الملكة أن تسلمه ابن نجيب الدولة أبت وامتنعت، فخلا وزراؤها - وكانوا يضمرون الكره للداعية المصرى - وحرضوها على تسليم ابن نجيب الدولة حتى لا تتهم بالنزارية، ومازالوا بها حتى اقتنعت.

ولكنها كانت تعز ابن نجيب الدولة وتخشى أن يغدر به ابن الخياط، فاستوثقت منه بأربعين يمينًا قبل أن تسلمه ابن نجيب الدولة، وأرسلت معه كاتبها محمد بن الأزدى يحمل إلى الآمر هدية جليلة كان من بينها بدنة قيمة الجوهرة التى فيها أربعون ألف دينار، ولكن يبدو أن ابن الخياط ورجاله كانوا يضمرون الكرة الشديد لابن نجيب الدولة، أو أنهم كانوا يحملون الأمر من الخليفة بتعذيبه وقتله، فإنهم لم يكادوا يغادرون ذى جبلة بليلة واحدة حتى «جعلوا فى رجله قيدًا ثقيلاً وشتموه وأهانوه، وبات فى الدهليز عريانًا فى الشتاء، وبادروا إلى عدن وسفروه إلى مصر فى جلبة سواكنية، وأخذوا رسول الملكة الحرة ابن الأزدى بعده بخمسة عشر يومًا، وتقدموا على ربان المركب بأن يغرقه فغرقه.. قال الخزرجى: ولا يعلم ما جرى لابن نجيب الدولة بعد خروجه من اليمن»[2].

كانت العلاقات وثيقة بين الخليفة الآمر والسيدة الحرة، وقد تبودلت الرسائل الكثيرة بينهما، وكان الآمر يثق فى ولاء هذه السيدة وحزمها وإخلاصها فى نشر الدعوة باليمن،

---

(١) عندما مات المستنصر الخليفة الفاطمى لم يشأ وزيره الأفضل أن يلى الخلافة ابنه الأكبر نزار، وإنما ولاها ابنه الأصغر أحمد الملقب بالمستعلى، ففر نزار إلى الإسكندرية، ونادى بنفسه خليفة، فحاربه الأفضل إلى أن قتله.

(٢) بامخرمة، المرجع السابق، ج ٢، ص ١٣٤، ٧١، انظر أيضًا: (تاريخ اليمن)، ص ٤٧ و ٤٨.

Kay: op. Cit. p. 266 - 67

فلما ولد له ابنه أبو القاسم الطيب فى ربيع الأول سنة ٥٢٤هـ أوصى له بولاية العهد، وأسرع فكتب رسالة إلى السيدة الحرة يحمل إليها هذه البشرى ويبلغها الوصية له بولاية العهد وبالإقامة من بعده، ويأمرها أن تذيع الخبر فى أطراف ملكها باليمن.

ولكن الخليفة الآمر لم يلبث أن قتل فى أواخر سنة ٥٢٤هـ (ذو القعدة). فأخفى الأمير عبد المجيد بن محمد بن المستنصر خبر الإمام الطيب، وأخذ البيعة من المصريين على أن يكون وليًا للعهد وكفيلاً لحمل منتظر.

وعلمت السيدة الحرة بما فعله الحافظ فلم تقره عليه، وإنما اعتبرت إمامته باطلة، وقد حاول الحافظ كثيرا أن يحصل على موافقتها، وأرسل إليها رسائل متتابعة فى هذا المعنى، ولكنها لم تستمع إليه، فقد سبق أن علمت بمولد الطيب وولايته للعهد، وتعهدت بنشر الدعوة له.

وسعت السيدة الحرة فعلاً وبذلت جهودها لنشر الدعوة الطيبية فى اليمن. بل لقد حاولت أن تنشر هذه الدعوة خارج ملكها، فقد علمت أن أمير مكة هاشم بن فليتة يخطب فى إمارته للخليفة الحافظ، فأرسلت إليه تتوعده إن لم يقلع عن الخطبة لهذا الخليفة. وقد كان لموقفها هذا صدى طيب فى نفوس الفرقة المستعلية فى مصر، فقد كانت هذه الفرقة ترى أن تبقى الإمامة فى نسل المستعلى.

أما الحافظ فإنه عندما يئس من موافقة السيدة الحرة حاول أن يحصل على ولاء الأسرة الشيعية الثانية فى اليمن وهى أسرة بنى زريع حكام عدن، فقلد أمراء هذه الأسرة أمر دعوته، ودان الزريعيون فعلاً بالولاء للحافظ، واعترفوا بإمامته، ونشروا دعوته، وبهذا انقسم الإسماعيلية فى اليمن فرقتين:

- فرقة تؤيد الدعوة الطيبية وتعتقد أن أبا القاسم الطيب هو الخليفة والإمام الحقيقى، ويتزعم هذه الفرقة السيدة الحرة.

- وفرقة تؤيد الحافظ وتعترف بإمامته وتدعو له ويتزعمها آل زريع.

غير أن الفرقة الأولى لم تلبث أن ضعف أمرها بعد وفاة السيدة الحرة فى سنة ٥٣٢هـ، بل لقد ضعف شأن الصليحيين عامة بعد هذه السيدة، ولم تخلفها شخصية قوية، وانتهى الأمر باستيلاء الزريعيين على حصون الصليحيين وقلاعهم.

تسهب المراجع بعض الشىء فى ذكر هذه العلاقات الواضحة بين مصر واليمن فى عهد الآمر سنة ٤٩٥ هـ (١١٠١م - ١١٣٠م)، ولكنها تعود إلى الصمت مرة أخرى، فلا تكاد تبين عن شىء من هذه العلاقات، حتى إذا كان عهد العاضد - آخر خلفاء الفاطميين - وجدنا هذه

المراجع تشير إلى أن رسولاً وصل من صاحب الديار المصرية إلى اليمن، واسمه أبو الحسن أحمد بن علىبن إبراهيم بن محمد بن الحسين بن الزبير الغسانى، القاضى الرشيد بن الرشيد، كان أسود البشرة من أسوان. ولكن مراجع هذا العصر لا تذكر أيضًا موضوع الرسالة التى كان يحملها هذا القاضى الأسوانى إلى اليمن، فلعله كان داعية من الدعاة. غير أن بامخرمة يذكر أن القاضى أبا الحسن أراد أن يدعى الخلافة باليمن، ويزيد ياقوت فى «معجم الأدباء» أنه «أنفذ إلى اليمن فى رسالة، ثم قلد قضاءها وأحكامها، ولقب بقاضى قضاة اليمن وداعى دعاة الزمن، ولما استقرت بها داره سمت نفسه إلى رتبة الخلافة، فسعى فيها، وأجابه قوم، وسلم عليه بها»؛ ولكن الأدفوى فى «الطالع السعيد» يقول إنه اطلع فى أسوان على محضر كتبه القاضى ابن الزبير الأسوانى باليمن «فيه خط جماعة كثيرة أنه لم يدع الخلافة، وأنه مواظب على الدعوة للخليفة..».

وكان للقاضى الرشيد أخ اسمه المهذب الحسن بن على، يقول عنه ياقوت فى «معجم الأدباء» إنه مضى أيضًا إلى «اليمن فى رسالة من بعض ملوك مصر واجتهد هناك فى تحصيل كتب النسب»، وقد اتهم كأخيه باتصاله بأسد الدين وصلاح الدين، فسجنه شاور، ولكنه مدح ابنه الكامل حتى أفرج عنه، وقد مات فى ٥٦١هـ.

ولكن هذه المراجع لا تذكر فى عهد من أرسل هذا الداعية القاضى الرشيد بن الزبير إلى اليمن، ولا عن موضوع الرسالة التى كان يحملها هذا القاضى إلى اليمن غير مرجع واحد وهو الأدفوى فقد قال إنه «توجه رسولاً إلى اليمن داعيًا للخليفة الحافظ فى شهر ربيع الأول سنة ٥٣٩هـ»، فإذا صحت رواية الأدفوى وضح الغرض من رسالة ابن الزبير الأسوانى إلى اليمن، فقد أرسل حسب روايته للدعوة للخليفة الحافظ وبالتالى لمحاربة الدعوة الطيبية ولكن سيرة ابن الزبير التى ترجم له فيها ياقوت تجعلنا نتشكك فى هذا التاريخ الذى ذكره الأدفوى موعدًا لرسالته وبالتالى نتشكك فى الغرض من رسالته، فقد ذكر ياقوت المناسبة التى مهدت لابن الزبير الاتصال بالبلاط الخليفى، قال: «كان السبب فى تقدمه فى الدولة المصرية أول أمره.. أنه دخل مصر بعد مقتل الظافر وجلوس الفائز، وعليه أطمار رثة وطيلسان صوف، فحضر المأتم، وقد حضر شعراء الدولة، فأنشدوا مراثيهم على مراتبهم، فقام فى آخرهم وأنشد قصيدته التى أولها.

ما للرياض تميل سكرا　　　هل سقيت بالمزن خمرا

إلى أن قال:

أفكر بلاء بالعـــــــــــرا　　　ق؟ وكربلاء بمصر أخرى؟!

فذرفت العيون، وعج القصر بالبكاء والعويل، وانثالت عليه العطايا من كل جانب.. وحمل إليه من قبل الوزير جملة من المال».

فهذا النص يحدد تاريخ اتصال ابن الزبير بالبلاط الفاطمى ويجعله أول عهد الفائز، ولا يمكن أن يعين ابن الزبير داعيًا ويرسل إلى اليمن إلا بعد أن أصبحت له هذه المكانة الممتازة لدى الوزير ورجال القصر، وإلا فقد كان قبل ذلك يقيم فى مدينته أسوان، وكان عند أول وروده إلى مصر - على حد قول ياقوت - عليه أطمار رثة وطليلسان صوف، أى أنه كان رجلاً عاديًا رقيق الحال. وياقوت ينص فى موضع آخر على أن ابن الزبير لم يرسل إلى اليمن إلا بعد أن تقرب إلى رجال القصر الفاطمى ووزرائه وتقدم عندهم، فهو يقول: «ومولده بأسوان.. وهاجر منها إلى مصر، فأقام بها، واتصل بملوكها، ومدح وزراءها. وتقدم عندهم، وأنفذ إلى اليمن فى رسالة».

ويؤكد شكنا ما ذكره ياقوت بعد هذا عن اتهام ابن الزبير وهو باليمن بأنه ادعى الخلافة، وقد ذكر أنه قبض عليه وأرسل مكبلاً إلى قوص، فأساء معاملته والى هذه المدينة لعداء قديم كان بينهما، ولكن بعض أصدقاء الوالى نصحه أن يحسن معاملة الرجل لأن أخاه المهذب حسن بن الزبير قريب من قلب الصالح (طلائع) «ولا استبعد أن يستعطفه عليه فتقع فى خجل». وعقب على هذا ياقوت بقوله إنه لم تمر بعد هذا ليلة أو ليلتان حتى وصلت إلى أمير قوص رسالة من الصالح يأمره فيها بإطلاق الرشيد بن الزبير والإحسان إليه.

من هذا يتضح أن الرشيد بن الزبير كان موجودًا فى اليمن وأعيد منه فى وزارة الصالح طلائع بن رزيك؛ والذى نعرفه أن الصالح لم يل الوزارة للحافظ ولا للظافر، وإنما ولى الوزارة فى عهد الفائز من ٥٤٩ هـ إلى ٥٥٥ هـ.

وقد روى ياقوت بعد هذا أن الرشيد بن الزبير كان واحدًا من جلساء الصالح طلائع، وأنه كان يشارك فى المطارحات الأدبية والعلمية التى تدور فى هذا المجلس. فإذا قرنا هذه الروايات مجتمعة بالرواية الأولى التى تحدد اتصال ابن الزبير بالبلاط الفاطمى بتولية الفائز الخلافة، استطعنا أن نرجح أن سفارة ابن الزبير إلى اليمن لم تكن فى عهد الحافظ ولا فى عهد الظافر، وإنما كانت فى عهد الفائز.

وبعد، فهذا موجز مختصر سريع للعلاقات السياسية التى كانت قائمة بين مصر واليمن فى العصر الفاطمى، وقد كانت علاقات قوية متينة، فقد كان دعاة الدعوة فى اليمن يدينون بالولاء للخلفاء الفاطميين، ويخطبون ودهم، ويرسلون إليهم الهدايا، ويحكمون باسمهم، ويؤدون إليهم الخراج، ويوسطونهم فى مشاكلهم الخاصة، كما كان الفاطميون يهتمون دائمًا بأمر اليمن فيقرون الدعاة منهم فى مراكزهم، بل لقد انتهى بهم الحال - فى أواخر عهد الدولة الفاطمية - إلى

إرسال الدعاة والقضاة المصريين - كابن نجيب الدولة والقاضي الرشيد بن الزبير الأسواني - إلى اليمن، ليكونوا كالولاة من قبلهم، يساعدون القائمين بالدعوة والحكم هناك على حفظ ملكهم، والمحافظة على الأمن، والضرب على أيدي العصاة.

وقد انتشر مذهب الشيعة في ولايات اليمن المختلفة كلها قبيل الفتح المصري الأيوبي لهذا القطر، فقد خلف الهمدانيون الصليحيين في صنعاء، وكانوا على رأى الباطنية إلا آخرهم وهو على بن حاتم (٥٥٦هـ - ٥٦٩ هـ) فالظاهر أنه كان مفارقًا لهم[1] ، وبقى آل زريع يحكمون عدن حتى فتحها الأيوبيون. والزريعيون كانوا شيعة يدينون بالولاء للفاطميين، ويرسلون إليهم الخراج، كما سبق أن ذكرنا. أما زبيد فقد انتقلت من بنى نجاح إلى على بن مهدى سنة ٥٤٤ هـ، ثم إلى ابنه مهدى بن على، ثم إلى حفيده عبد النبى بن مهدى، وقد كان آل مهدى جميعا من غلاة الشيعة.

وفى سنة ٥٦٧ هـ انتهى أمر الدولة الفاطمية، وانتقل الحكم فيها إلى صلاح الدين الأيوبى، وفى سنة ٥٦٩ هـ سار الملك المعظم توران شاه - أخو صلاح الدين الأكبر - من مصر بجيش كبير، ففتح اليمن، وقضى على ما بها من دويلات شيعية وضمها إلى ملك مصر.

---

(١) العرشى «بلوغ المرام»، ص ٢٩ و ٣٠.

المراجع العربية

ابن آدم القرشي (يحيى)

= كتاب الخراج، ليدن ١٨٩٥م - ١٨٩٦م

الأبشيهى (محمد بن أحمد أبو الفتح)

= المستطرف فى كل فن مستظرف، القاهرة، ١٣٥٢ هـ.

ابن أبى الصلت (أمية)

= الرسالة المصرية، نسخة خطية بدار الكتب المصرية.

ابن الأثير

= الكامل فى التاريخ ١٢٠ جزءا، ليدن ١٨٦٦م - ١٨٧٤م

= أسد الغابة فى معرفة الصحابة، ٥ أجزاء، القاهرة ١٢٨٥هـ - ١٢٨٦ هـ.

= تاريخ دولة الأتابكة.

الإدريسى (محمد بن محمد بن عبد الله، الشريف)

= صفة المغرب وأراضى السودان ومصر والأندلس مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق، ليدن ١٨٦٤م - ١٨٦٦م.

الأزرقى

= أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، جزءان، المطبعة الماجدية بمكة المكرمة، ١٣٥٢ هـ.

الأصطخرى (إبراهيم بن محمد)

= كتاب المسالك والممالك، الجزء الأول من المكتبة الجغرافية، ليدن، ١٩٢٧م.

أمين (أحمد)

= فجر الإسلام، ج ١، القاهرة، ١٩٢٨م.

= ضحى الإسلام، ج ٣، القاهرة، ١٩٣٦م.

= ظهر الإسلام، ج ١، القاهرة ١٩٤٥م.

إلياس الأيوبى:

= تاريخ مصر الإسلامية، ج ١، القاهرة، ١٩٣٢م.

ابن إياس (أبو البركات محمد بن أحمد)

= كتاب تاريخ مصر المعروف باسم بدائع الزهور فى واقع الدهور، ٣ أجزاء، بولاق، ١٣١٢هـ - ١٨٩٤م.

= نشق الأزهار فى عجائب الأمصار، طبع قسما من الكتاب الأستاذ Langlés، باريس، ١٨٠٧م.

الباقلانى

= التمهيد فى الرد على الملاحدة والشيعة، طبع دار الفكر العربى.

بامخرمة (أبو محمد عبد الله بن أحمد الطيب)

= المختار فى تاريخ ثغر عدن، صور شمسية بدار الكتب المصرية بالقاهرة.

البكرى (أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز)

= المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب، طبع دى سلان، الجزائر، ١٨٥٧م.

البغدادى (أبو منصور عبد القادر بن طاهر)

= الفرق بين الفرق، القاهرة، ١٣٢٨هـ - ١٩١٠م.

البلاذرى

= كتاب فتوح البلدان، ليدن، ١٨٦٦م.

البلوى (أبو محمد عبد الله بن محمد بن عمير بن محفوظ المدينى)

= سيرة أحمد بن طولون، حققها وعلق عليها محمد كرد على، دمشق، ١٣٥٨ هـ.

البندارى (الفتح بن على بن محمد)

= تاريخ دولة آل سلجوق، القاهرة ١٣١٨ هـ - ١٩٠٠م.

بندلى جوزى

= تاريخ الحركات الفكرية فى الإسلام.

البهاء الجندى (أبو عبد الله بهاء الدين بن يوسف بن يعقوب)

= أخبار القرامطة باليمن، المنقول من كتاب السلوك فى طبقات الموالى والملوك.

بهجت (على) وألبير جبريل

= حفريات الفسطاط، القاهرة، ١٩٢٨م.

ابن تغرى بردى (أبو المحاسن يوسف)

= النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، الجزء الأول والثانى، ظهر منه ١٢ جـزءًا، طبعة دار الكتب المصرية، ١٩٢٩م - ١٩٥٦م.

التنوخى (أبوعلى المحسن بن أبى القاسم)

= الفرج بعد الشدة، مصر، ١٣٥٧ هـ.

= جامع التواريخ بكتاب نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة، الجزء الأول، طبع مصر، ١٩٢١م؛ والجزء الثامن، دمشق، ١٩٣٠م.

تيمور (أحمد باشا)

= نظرة تاريخية فى حدوث المذاهب الأربعة، القاهرة ١٣٥١ هـ.

= التصوير عند العرب، أخرجه وزاد عليه الدراسات الفنية والتعليقات الدكتور زكى محمد حسن، القاهرة ١٩٤٢م.

الثعالبى (أبو منصور عبد الملك النيسابورى)

= يتيمة الدهر، ٤ أجزاء، القاهرة، ١٣٥٤ هـ.

= لطائف المعارف، طبع دى يونج، ليدن، ١٨٧٦م.

جروهمان (أدولف)

= أربع محاضرات عن الأوراق البردية العربية، تعريب الأستاذ توفيق اسكاروس، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٣٠م.

الجهشيارى (أبو عبد الله محمد بن عبدوس الكوفى)

= كتاب الوزراء والكتاب، حققه ووضع فهارسه الأساتذة مصطفى السقا وإبراهيم الإبيارى وعبد الحفيظ شلبى، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٣٨م.

ابن الجيعان (شرف الدين يحيى)

= التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية، القاهرة، ١٣١٦ هـ - ١٨٩٨م.

حاجى خليفة

= كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون، ٧ أجزاء، ليبزج - ليدن، ١٨٣٥م - ١٨٥٨م.

ابن حجر العسقلانى (شهاب الدين بن على)

= الإصابة فى تمييز الصحابة، ٨ أجزاء، القاهرة، ١٣٢٣هـ - ١٣٢٥ هـ.

= رفع الإصر عن قضاة مصر، نسخة خطية بدار الكتب المصرية رقم ١٠٥.

ابن حزم (أبو محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن صالح الأندلسى الظاهرى)

= جمهرة أنساب العرب، تحقيق وتعليق أ. ليفى بروفنسال، القاهرة، ١٩٤٨م.

= الفصل، القاهرة.

حسن (الدكتور حسن إبراهيم)

= تاريخ عمرو بن العاص، القاهرة، ١٩٢٦م.

= تاريخ الإسلام السياسى، ج ١، القاهرة، ١٩٣٥م؛ الجزء الثالث، القاهرة ١٩٤٦م.

= عبيد الله المهدى إمام الشيعة الإسماعيلية ومؤسس الدولة الفاطمية فى بلاد المغرب (بالاشتراك مع طه شرف)، القاهرة ١٩٤٧م.

= الفاطميون فى مصر وأعمالهم السياسية والدينية بوجه خاص، القاهرة، ١٩٣٢م.

= المعز لدين الله إمام الشيعة الإسماعيلية ومؤسس الدولة الفاطمية فى مصر، القاهرة، ١٩٤٨م.

= النظم الإسلامية (بالاشتراك مع الدكتور على إبراهيم حسن)، القاهرة، ١٩٣٩م.

حسن (الدكتور زكى محمد)

= الفن الإسلامى فى مصر، الفن الإسلامى فى مصر، ج ١ القاهرة ١٩٣٥م.

= كنوز الفاطميين، القاهرة، ١٩٣٧م.

= فى مصر الإسلامية، مع عبد الرحمن زكى وآخرين القاهرة ١٩٣٣م.

= الفنون الإيرانية فى العصر الإسلامى، القاهرة، ١٩٣٩م.

= بعض التأثيرات القبطية فى الفنون الإسلامية، فى مجلة جمعية الآثار القبطية، القاهرة، ١٩٣٧م.

= مصر والحضارة الإسلامية، القاهرة، ١٩٤١م.

= الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى، القاهرة، ١٩٤٥.

= فنون الإسلام، القاهرة، ١٩٤٨م.

= دراسات فى مناهج البحث فى التاريخ الإسلامى، مجلة كلية الآداب، المجلد ١٢، ج ١، مايو ١٩٥٠.

حسن (الدكتور سليم)

= أقسام مصر الجغرافية فى العهد الفرعونــى، المجتمع المصرى للثقافة العلميـة، الكتـاب السنوى الثالث عشر، القاهرة، ١٩٤٢م.

حسن (الدكتور على إبراهيم)

= دراسات فى تاريخ المماليك البحرية، القاهرة، ١٩٤٤م.

حسين (الدكتور طه)

= مع المتنبى، جزءان، القاهرة، ١٩٣٦م.

حسين (الدكتور محمد كامل)

= فى الأدب المصرى الإسلامى من الفتح الإسلامى إلى دخول الفاطميين، القاهرة، ١٩٣٩م.

= نظرية المثل والممثول، القاهرة، ١٩٤٨م.

= فى أدب مصر الفاطمية، القاهرة، ١٩٥٠م.

الحصرى القيروانى (أبو الحسن على بن عبد الغنى الفهرى)

= زهر الآداب وثمر الألباب، طبعة الدكتور زكى مبارك، القاهرة، ١٩٢٥م.

الحمادى اليمانى (محمد بن مالك بن أبى الفضائل)

= كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة، القاهرة، ١٩٣٩م.

ابن حوقل (أبو القاسم محمد بن حوقل البغدادى)

= المسالك والممالك، ليدن، ١٨٧٣م.

حنا النقيوسى

«تـــاريـــخ»

= Chronique de Jean. Évêque de Nikiou. Texte Ethiopien publié et traduit par M.H. Zotenberg (Notices et extrais de Manuscrits de la Bibliothéque Nationale et autres bibliothéques. T. 24. Paris, 1883).

ابن خرداذبة

= كتاب المسالك والممالك، المجلد السادس من مجموعة المكتبة الجغرافية، ليدن، ١٨٩٩م.

الخطيب البغدادى (الحافظ أبو بكر أحمد بن على)

= تاريخ بغداد أو مدينة السلام، ١٤ جزءا، القاهرة ١٣٤٩ هـ - ١٩٣١م.

ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد المغربى)

= العبر وديوان المبتدأ والخبر، ٧ أجزاء، القاهرة ١٢٨٤ هـ.

= المقدمة، القاهرة، ١٢٤٨ هـ - ١٩٣٠م.

ابن خلكان (شمس الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم)

= وفيات الأعيان، جزءان، القاهرة، ١٢٩٩هـ.

خليل الظاهرى (غرس الدين بن شاهين)

= زبدة كشف الممالك فى بيان الطرق والمسالك، طبعة Paul Ravaisse باريس، ١٨٩٤م.

الخولى (أمين)

= مصر فى تاريخ البلاغة، مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة. المجلد الثانى، الجزء الأول، القاهرة، مايو ١٩٣٤م.

ابن الداية (أبو جعفر أحمد بن يوسف)

= سيرة أحمد بن طولون، برلين، ١٨٩٤م.

= المكأفاة، القاهرة، ١٣٣٢ هـ - ١٩١٤م.

ابن دقماق (إبراهيم بن محمد المصرى)

= كتاب الانتصار لواسطة عقد الأمصار، الجزء الرابع والخامس، بولاق، ١٣٠٩هـ، نشره المتشرق فولرز

الدورى (الدكتور عبد العزيز)

= دراسات فى العصور العباسية المتأخرة، بغداد، ١٩٤٥م.

= موجز تاريخ الحضارة العربية (بالاشتراك مع ناجى معروف)، بغداد، ١٩٥٢م.

الديبع الشيبانى (الفقيه وجيه الدين عبد الرحمن بن على بن محمد الشيبانى الشافعى، المشهور بالديبع الزبيدى)

= قرة العيون فى تاريخ اليمن الميمون، صور شمسية بدار الكتب المصرية بالقاهرة.

الدينورى

= الأخبار الطوال، القاهرة، ١٣٣٠م.

رسائل إخوان الصفا، القاهرة.
الرسائل المستنصرية، نشر الدكتور عبد المنعم ماجد، القاهرة.
ابن رستة
= الأعلاف النفسية، الجزء السابع من مجموعة المكتبة الجغرافية، ليدن، ١٨٩١ - ١٨٩٢م.
ابن زولاق (أبو محمد الحسن بن إبراهيم)
= فضائل مصر، نسخة خطية بمكتبة الأزهر.
= أخبار سيبويه المصرى، نشره الأستاذين محمد إبراهيم سعد وحسن الديب، الطبعة الأولى، ١٣٥٢ هـ - ١٩٣٣م.
ابن الزيات (شمس الدين أبو عبد الله)
= الكواكب السيارة، المطبعة الأميرية بمصر، ١٣٢٥ هـ - ١٩٠٧م.
زيدان (جورجى)
= تاريخ آداب اللغة العربية، ٤ أجزاء، الطبعة الثانية ١٩٢٤م.
السبكى (تاج الدين أبو النصر عبد الوهاب)
= طبقات الشافعية الكبرى، ٦ أجزاء، المطبعة الحسينية، ١٣٢٤ هـ.
سبط ابن الجوزى (شمس الدين أبو المظفر يوسف بن غزا أو غلى، المعروف بسبط ابن الجوزى)
= مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان، صور شمسية بدار الكتب المصرية بالقاهرة رقم ٥٥١ تاريخ.
سركيس (يوسف إليان)
= معجم المطبوعات العربية والمعربة، القاهرة، ١٩٢٨م - ١٩٣٠م.
سرور (الدكتور محمد جمال الدين)
= النفوذ الفاطمى فى جزيرة العرب، ١٩٥٧م.
= النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام والعراق، ١٩٥٧م.
= الظاهر بيبرس وحضارة مصر فى عصره، القاهرة، ١٩٣٨م.
ابن سعد (كاتب الواقدى)
= الطبقات الكبير، ٨ أجزاء ليدن ١٩١٥م ٠ ١٩٢١م.

ابن سعيد (على بن موسى المغربى)

= المغرب فى حلى المغرب، ليدن، ١٨٩٩م.

سعيد بن بطريق (المعروف باسم أوتيخا)

= كتاب التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق، جزءان، بيروت، ١٩٠٥م و ١٩٠٩م.

السيد (أحمد لطفى)

= قبائل العرب فى مصر، ج ١، القاهرة، ١٩٣٥م.

ابن سيده

= المخصص.

سيرة الأستاذ جوذر.

نشر الدكتورين محمد كامل حسين ومحمد عبد الهادى شعيرة.

السيوطى (جلال الدين)

= تاريخ الخلفاء، القاهرة، ١٣٥١ هـ.

= حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة: جزءان، القاهرة، ١٣٢٧ هـ.

= بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة، القاهرة، مطبعة السعادة، ١٣٢٦ هـ.

ابن شاكر الكتبى

= فوات الوفيات، جزءان، القاهرة، ١٢٦٩ هـ.

أبو شامة المقدسى

= الروضتين فى أخبار الدولتين، القاهرة، ١٢٨٧ هـ.

ابن الشحنة (أبو الفضل محمد)

= الدر المنتخب فى تاريخ مملكة حلب، بيروت، ١٩٠٩م.

شرف (الدكتور طه)

= دولة النزارية أجداد أغا خان، القاهرة، ١٣٦٩ هـ - ١٩٥٠م.

الشهرستانى

= الملل والنحل، القاهرة.

شيخو (الأب لويس، اليسوعى)

= هلال الصابى وتآليفه، مجلة الشرق، السنة السادسة، بيروت سنة ١٩٠٣م.

الشيزرى (عبد الرحمن بن نصر).

= كتاب نهاية الرتبة فى طلب الحسبة، قام على نشره الدكتور السيد الباز العرينى، القاهرة، ١٩٤٦م.

أبو صالح الأرمنى (أبو المكارم جرجس بن مسعود)

= «تاريخ» المعروف بكنائس وأديرة مصر، طبعة Evetts، أكسفورد ١٨٩٥م.

الصفدى (صلاح الدين خليل بن أيبك)

= الغيث المنسجم، القاهرة.

= الوافى بالوفيات، الجزء الأول، الآستانة ١٩٣١م.

الصولى الشطرنجى (أبو بكر محمد بن يحيى)

= أخبار الراضى بالله والمتقى بالله من كتاب الأوراق، نشره هيورث دن Heyworth Dunne، القاهرة ١٣٥٤ هـ - ١٩٣٥م.

ابن الصيرفى (أمين الدين أبو القاسم على بن منجب)

= الإشارة إلى من نال الوزارة، طبع مطبعة المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية، ١٩٢٤م.

ابن طباطبا (محمد بن على، المعروف بابن الطقطقى)

= الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية، الطبعة الثانية، مطبعة المعارف بمصر؛ والمطبعة الرحمانية بمصر ١٩٢٥ هـ - ١٩٢٧م.

الطبرى

= تاريخ الأمم والملوك، ١١ جزءا، الطبعة الأولى بالمطبعة الحسينية المصرية بمصر.

= تفسيره

طوسون (عمر)

= مالية مصر من عهد الفراعنة إلى الآن، الإسكندرية، ١٩٣١م.

الطوسى

= فهرست كتب الشيعة، كلكتا، ١٨٥٥م.

ابن ظافر الأزدى المصرى (جمال الدين على)

= الدول المنقطعة ، صورة فتوغرافية بدار الكتب، رقم ٨٩٠.

ابن عبد الحكم (عبد الرحمن بن عبد الله)

= فتوح مصر وأخبارها، طبعة تورى Torrey، نيوهافن ١٩٢٢م؛ وطبعة هنرى ماسيه Henri Massé، المعهد العلمى الفرنسى، القاهرة ١٩١٤م.

عبد القادر الأنصارى (الشيخ زين الدين عبد القادر بن البدرى محمد بن إبراهيم)

= درر الفرائد المنظمة فى أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة، مخطوط بدار الكتب المصرية بالقاهرة.

عبد اللطيف البغدادى (الشيخ موفق الدين عبد اللطيف بن يوسف المعروف بابن اللباد)

= «عبد اللطيف البغدادى فى مصر»، وهو الكتاب المعروف باسم «الإفادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر»؛ طبعة المجلة الجديدة (سلامة موسى).

ابن العبرى (أبو الفرج بن هرون الملطى)

= تاريخ مختصر الدول، مطبعة الآباء اليسوعيين ببيروت، ١٨٩٠م

ابن العديم الحلبى (كمال الدين أبو حفص، أو أبو القاسم، عمر بن أحمد بن هبة الله)

= زبدة الحلب فى تاريخ حلب، نشر سامى الدهان، دمشق ١٩٥١م.

العرشى (القاضى حسين بن أحمد الزيدى)

= بلوغ المرام فى شرح مسك الختام فى من تولى ملك اليمن من ملك وإمام، نشره الأب أنستاس مارى الكرملى.

عريب بن سعد القرطبى

= صلة تاريخ الطبرى، الجزء الثانى عشر من كتاب تاريخ الأمم والملوك (للطبرى)، الطبعة الأولى بمطبعة الحسينية بمصر.

ابن عساكر (أبو القاسم على بن أبى محمد الحسن بن هبة الله بن عساكر الشافعى الدمشقى الملقب ثقة الدين)

= التاريخ الكبير، ٥ أجزاء، دمشق، ١٣٢٩هـ - ١٣٣٢ هـ.

عمارة اليمنى (أبو محمد بن أبى الحسن على بن زيدان بن أحمد الحكمى، الملقب بنجم الدين)

= تاريخ اليمن، نشر Henri Cassels kay

= النكت العصرية فى أخبار الوزارة المصرية، نشر Hartwig Derenbourg العمرى (شهاب الدين أحمد بن فضل الله)

= مسالك الأبصار، نسخة خطية بدار الكتب المصرية.

= التعريف بالمصطلح الشريف، القاهرة، ١٣١٢ هـ.

ابن العميد (المعروف بالمكين)

= تاريخ المسلمين، ليدن، ١٩٢٥م.

عيسى (أحمد)

= تاريخ البيمار ستانات فى الإسلام، القاهرة، ١٩٣٩م.

العينى (بدر الدين محمود)

= عقد الجمان، نسخة خطية بدار الكتب المصرية رقم ١٥٨٤.

الغزالى

= الرد على الباطنية، ليدن، ١٩٢٦م.

الغزولى (علاء الدين على بن عبد الله البهائى الغزولى الدمشقى)

= مطالع البدور فى منازل السرور، جزءان، الطبعة الأولى، مصر، ١٢٩٩هـ - ١٣٠٠ هـ.

أبو الفدا (الملك المؤيد إسماعيل صاحب حماة)

= المختصر فى أخبار البشر، ٤ أجزاء، الطبعة الأولى بالمطبعة الحسينية ١٣٢٥ هـ.

ابن فرحون:

= كتاب الديباج المذهب فى معرفة أعيان علماء المذهب، القاهرة، ١٣٢٩ هـ.

ابن الفقيه (أبو بكر أحمد بن أحمد بن محمد الهمذانى)

= مختصر كتاب البلدان، الجزء الخامس من المكتبة الجغرافية، ليدن، ١٨٨٥م.

ابن قتيبة

= كتاب الإمامة والسياسة، جزءان، القاهرة، ١٣٢٥ هـ.

قدامة بن جعفر

= نبذ من تاريخ الخراج وصنعة الكتابة، الجزء السادس من المكتبة الجغرافية، ليدن، ١٨٨٩م.

القضاعى

= عيون المعارف وفنون أخبار الخلائف، نسخة خطية بدار الكتب المصرية، رقم ١٧٧٩.

القفطى

= إخبار العلماء بأخبار الحكماء، طبع القاهرة، ١٣٢٦ هـ.

ابن قلاقس

= ديوانه، تحقيق خليل مطران، طبع بجريدة الأهرام.

ابن القلانسى (أبو يعلى حمزة)

= ذيل تاريخ دمشق، نشر آمدروز، ليدن، ١٩٠٨م.

القلقشندى (شهاب الدين أبو العباس أحمد بن على)

= صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء، ١٤ جزءا، المطبعة الأميرية بالقاهرة، ١٩١٣م - ١٩١٩م.

كاشف (الدكتورة سيدة إسماعيل)

= مصر فى فجر الإسلام، القاهرة، ١٩٤٧م.

= مصر فى عصر الولاة، القاهرة، (بدون تاريخ).

= مصر فى عصر الإخشيديين، القاهرة، ١٩٥٠م.

ابن كثير (عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشى الدمشقى)

= البداية والنهاية، ١٤ جزءا، مطبعة السعادة بالقاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٣٢م.

كرد على (محمد)

= خطط الشام، ٦ أجزاء، دمشق، ١٩٢٥ - ١٩٢٨م.

الكرمانى (أحمد حميد الدين)

= راحة العقل، تحقيق محمد كامل حسين ومحمد مصطفى حلمى، من مطبوعات الجمعية الإسماعيلية.

الكرملى (الأب أنستاس)

= النقود العربية وعلم النميات، القاهرة، ١٩٣٩م.

كشاجم (أبو الفتح محمود بن الحسين بن شاهق - أو شاهك -

= ديوان كشاجم، بيروت، ١٣١٣ هـ.

الكشى

= معرفة أخبار الرجال، طبع بمباى، ١٣١٧ هـ.

الكندى (أبو محمد بن يوسف)

= كتاب الولاة وكتاب القضاة، بيروت، ١٩٠٨م، Gibb Memorial Series

= فضائل مصر، نسخة خطية بدار الكتب المصرية، رقم ٧٥٣.

الماوردى (أبو الحسن على بن محمد بن حبيب)

= الأحكام السلطانية. القاهرة، ١٢٩٨ هـ.

= أدب الوزير المعروف بقوانين الوزارة وسياسة الملك. القاهرة ١٣٤٨ هـ - ١٩٢٩م.

مبارك (الدكتور زكى)

= النثر الفنى فى القرن الرابع، جزءان، القاهرة، ١٩٣٤م.

مبارك (على باشا)

= الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة، ٢٠ جزءا، بولاق، ١٣٠٦ هـ.

المجالس المستنصرية، تحقيق محمد كامل حسين، من سلسلة مخطوطات الفاطميين.

ابن المجاور (جمال الدين أبو الفتح يوسف بن يعقوب بن محمد، المعروف بابن المجاور الشيبانى الدمشقى)

= تاريخ ابن المجاور، صور شمسية بدار الكتب المصرية بالقاهرة رقم ٥٣٤٢.

المراكشى (أبو محمد عبد الواحد بن على، محيى الدين)

مرسى (الدكتور محمد كامل)

= الملكية العقارية فى مصر وتطورها التاريخى من عهد الفراعنة حتى الآن، القاهرة ١٩٣٦م.

المسعودى (أبو الحسن على بن الحسين بن على)

= مروج الذهب ومعادن الجوهر فى التاريخ، جزءان، طبعة القاهرة، ١٣٤٦ هـ؛ ٨ أجزاء، طبعة Barbier de Meynard، باريس ١٨٦١م - ١٨٧٤م؛ و ٩ أجزاء، باريس ١٨٦١م - ١٨٧٧م.

= التنبيه والإشراف، الجزء الثامن من المكتبة الجغرافية، ليدن، ١٨٩٣ - ١٨٩٤م، القاهرة ١٩٣٨م.

مسكويه (أبو على أحمد بن محمد بن يعقوب)

= كتاب تجارب الأمم وتعاقب الهمم، الجزء الأول، ليدن، ١٩٠٩م؛ والجزء الخامس والسادس مطبعة شركة التمدن بمصر، ١٣٣٢هـ و ١٣٣٣ هـ - ١٩١٤م و ١٩١٥م.

المقدسى (شمس الدين أبو عبد الله)

= أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، ليدن، ١٨٧٧م.

المقريزى (تقى الدين)

= المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار، جزءان، بولاق، ١٢٧٠ هـ.

= البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب، القاهرة ١٣٥٦ هـ.

= شذور العقود فى ذكر النقود القديمة الإسلامية، المعروف باسم النقود الإسلامية، القسطنطينية، ١٢٩٨ هـ.

= إغاثة الأمة بكشف الغمة، طبعة الدكتورين محمد مصطفى زيادة وجمال الدين الشيال، القاهرة، ١٩٤٠م.

= السلوك لمعرفة دول الملوك، نشر الدكتور زيادة.

= اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، نشر الدكتور جمال الدين الشيال، القاهرة، ١٩٤٨م.

= المقفى الكبير، نسخة خطية بالمكتبة الأهلية بباريس، رقم ٢١٤٤.

الملطى (أبو الحسن)

= التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع، استامبول، ١٩٣٦م.

المقفع (ساويرس أسقف الأشمونين)

= سيرة الآباء البطاركة، الجزء الأول والخامس والعاشر من مجموعة Patrolelogia Orientalis، باريس ١٩٠٧م و ١٩١٠م و ١٩١٥م. والمجلد الثانى، مطبوعات جمعية الآثار القبطية، القاهرة، ١٩٤٨م.

ابن مماتى (أبو المكارم أسعد بن مهذب بن مينا)

= كتاب قوانين الدواوين، نشره وعلق عليه الدكتور عزيز سوريال عطية، القاهرة، ١٩٤٣م.

ابن منجب الصيرفى

= الإشارة إلى من نال الوزارة، القاهرة، ١٩٢٤م.

= قانون ديوان الرسائل، نشر على بهجت، القاهرة.

المؤيد فى الدين داعى الدعاة (هبة الله الشيرازى).

= المجالس المؤيدية، (ثمانمائة مجلس)، نسخة خطية بمكتبة الدكتور محمد كامل حسين.

= ديوانه، تحقيق محمد كامل حسين، من سلسلة مخطوطات الفاطميين.

= سيرة المؤيد فى الدين داعى الدعاة، تحقيق محمد كامل حسين،. من سلسلة مخطوطات الفاطميين، القاهرة، ١٩٤٩م.

ميتز (آدم)

= الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى، ترجمة الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريدة.

ابن ميسر (محمد بن على بن يوسف بن جلب)

= تاريخ مصر، طبعة هنرى ماسيه Henri Massè، القاهرة، ١٩١٩م.

ناصرى خسرو

= سفر نامة، ترجمة الدكتور يحيى الخشاب، القاهرة.

ابن النديم (محمد بن إسحاق)

= الفهرست، ليبزج، ١٨٧١م.

النوبختى

= فرق الشيعة، استامبول، ١٩٣١م.

النويرى (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب)

= نهاية الأرب فى فنون الأدب، المطبوع منه ١٥ جزءا، الطبعة الأولى بدار الكتب المصرية.

ابن هانئ الأندلسى

= ديوانه، تحقيق زاهد على، طبع القاهرة.

هلال الصابى (أبو الحسن - أو أبو الحسين - هلال بن المحسن بن أبى اسحق إبراهيم).

= تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء، نشره Amedroz، بيروت - ليدن، ١٩٠٤م.

الهمة فى آداب اتباع الأئمة، تحقيق محمد كامل حسين، من سلسلة مخطوطات الفاطميين، طبع دار الفكر العربى.

يحيى بن آدم القرشى

= كتاب الخراج، ليدن، ١٨٩٥م - ١٨٩٦م.

يحيى بن الحسين

= أنباء الزمن فى أخبار اليمن، برلين، ١٩٣٦م.

يحيى بن سعيد الأنطاكى

= «تاريخ» أو صلة كتاب سعيد بن بطريق المسمى «التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق»، جزءان، بيروت، ١٩٠٩م.

اليعقوبى

= كتاب البلدان، الجزء السابع من مجموعة المكتبة الجغرافية، ليدن، ١٧٩٢م.

= «تاريخ»، جزءان، طبعة هوتسما Houtsma، ليدن، ١٨٨٣م.

اليمانى (محمد بن محمد)

= سيرة الحاجب جعفر بن على وخروج المهدى من سلمية ووصوله إلى سجلماسة، نشر إيفانوف. مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة، ديسمبر، ١٩٣٦م.

أبو يوسف (يعقوب، صاحب أبى حنيفة)

= كتاب الخراج، بولاق، ١٣٠٢ هـ.

المراجع غير العربية

Al-Hamdani (Husain)

= Letters of Al-Mustansir Billah. Bulletin of the School of Oriental Studies, vol. VIII, Part 2, 1934.

Amedroz (H.F.)

= The Office of Kadi. Journal of the Royal Asiatic Society, 1910, p. 779 & seq.

Amélineau (E.)

= Etude sur le Christianisme en Egypte au Septime siècle. Paris, 1887.

Arnold (Th.)

= The Preaching of Islam. London, 1935.

= The Caliphate, Oxford, 1924.

= The Islamic Book, by Th. Arnold and A. Grohmann, London, 1929.

Asaf A. A. Fyzee

= A Chronogical List of the Imams and Da´is. (J. B. B. R. A. S. 1934).

= Isma´ilia Law and Its Founder.

= Matèrials For an Ismaili, bibliography. (J. B. B. R. A. S. Vol. II, 1935).

= Qadi un-Nu´mans. (J. R. A. S. 1934).

Bahgat (Ali)

= Les Manufactures d'Etoffe en Egypte au Moyen-Ages, Bulletin de l'Institut Egyptien, Quatriéme Série – 6 Avril 1903 – Le Caire, 1903.

Baynes (Norman H.) and Moss

= Byzantium. Oxford, 1949.

Becker (C. H.)

= The Expansion of Saracens. The Cambridge Medieval History, Vol. II, Cambridge, 1913.

= Art. Egypt. The Encyclopedia of Islam, vol. II. Leyden – London, 1927.

= Art. Cairo. The Encyclopedia of Islam. Vol. I. Leyden – London 1913.

= Historische Studien über das Londoner Aphroditowerk. Der Islam Band II, 1911.

= Islamstudien, Vom Werden und Wesen der islamischen Welt. I Band. Leipzig. 1924.

= Beiträge Zur Geschichte Ägyptens unter dem Islam. Strassburg, 1902 – 1903.

= Neue Arabische Papyri des Aphroditofundes, Der Islam II. Strassburg, 1911.

Bell (H. I.)

= Translations of the Greek Aphrodito papyri in the British Museum. Der Islam. Band II, III, IV, XVII. 1911, 1912, 1913, 1928.

Berg (Van den)

= Principes du Droit Musulman, Alger, 1896.

Bowen (H.)

= The Life and Times of Ali ibn Isa, (the Good Vizier). Cambridge. 1928.

Brockelmann (Carl)

= Geschichte der Arabischer Litteratur, 2 vols. Wèimar, Berlin, 1898-1902, 2 Suplementband. Leiden, 1937-1938.

= History of the Islamic Peoples. London, 1949.

نقله إلى العربية بعنوان «تاريخ الشعوب الإسلامية» الدكتور نبيه أمين فارس والأستاذ منير بعلبكي، بيروت، دار العلم الملايين ١٩٤٨م - ١٩٤٩م

Browne (E. G.)

= A Volume of Oriental Studies presented to Edward Browne on his 60 th Birthday. Ed. by T. W. Arnold and R.A. Nicholson. Cambridge, 1922.

Butcher (Mrs. E. L.)

= The Story of the Church of Egypt. 2 vols. London, 1897.

تعريب اسكندر تادرس بعنوان «تاريخ الأمة القبطية وكنيستها»، في ثلاثة أجزاء، القاهرة ١٩٠٠ و ١٩٠١و ١٩٠٦م.

Butler (Alfred J.)

= The Arab Conquest of Egypt. Oxford, 1902.

تعريب الأستاذ محمد فريد أبو حديد بعنوان «فتح العرب لمصر»، القاهرة، ١٩٣٣م.

= The Ancient Coptic Churches of Egypt. 2 vols. Oxford, 1884.

= The Treaty of Misr in Tabari. Oxford, 1913.

= Islamic Pottery. London, 1929.

Caetani (Leone)

= Annali dell' Islam. Vols. IV, V, Milano. 1911-1912.

Canard (Marius)

= Sayf al Daula. Alger, 1934.

Carra de Vaux

= Les Penseurs de l'Islam. Paris, 1921-1926.

Codrington (O.)

= A Manual of Musulman Numismatics. London, 1904.

Combe (Et.), J Sauvaget, and G. Wiet.

= Répertoire Chronologique d'épigraphie Arabe. t. I, II. Le Caire, 1931; Tome Cinquième, Le Caire, 1934.

Creswell (K. A. C.)

= Coptic Influences on Early Moslim Architecture. Extrait, Bulletin de La Société d'Archéologie Copte. Tome V, 1939. Le Caire.

= Early Muslim Architecture (Ummayyads, Abbassids and Tulunids). 2 vols. Oxford, 1932 – 1940.

Crum (W. E.)

= Coptic Ostraca. London. 1902.

De Castries (Henri)

= L'Islam, Impression et Etudes. Paris, 1896.

تعريب أحمد فتحى زغلول بعنوان «الإسلام، خواطر وسوانح»، مطبعة السعادة بالقاهرة.

Defrémery

= Mémoire sur les Emirs – el – Oumara (dans Mémoires présentés par divers savants à l'Académie des Inscriptions et Balles – Lettres 1re série. l. II. Paris, 1852.

De Goeje

= Memoire sur les Caramathes du Bahrain et les Fatimides. Leyden, 1886.

De Sacy (Silvester)

= Recherches sur la nature et les Révolutions du droit de propriété territorial ën Egypte. Bibiliothèque des Arabisants Français, t. II, Institut Français d'Archéologie Orientale, le Caire, 1923.

= Trāité des monnaie Musulmanes. Le Caire, 1905.

= Bihliothèque des Arabisants Français. Tome Premier Le Caire, 1905.

Devanshire (Mme R. L.)

= L'Egypte Musulmane et les Fondateurs de ses Monuments. Paris, 1926.

Dozy

= Histoire des Musulmans d'Espagne. 3 tomes. Leyde, 1932.

= Supplément aux Dictonnaires Arabes, 2 vols, Leyden, 1881.

= Dictionnaire détaillé des nomes des vêtements Chez les Arabes. Amesterdam, 1845.

Drioton (Etienne) et Vandier (Jacques)

= L'Egypte (dans Les Peuples de l'Orient Méditerranéen, t. ll). Paris, 1938.

Encyclopedia of Religion and Ethics.

Encyclopedia of Islam.

Fahmy (Ali Mohamed)

= Muslim Sea-Power in the East Mediterranean from the Seventh to the Tenth Century A. D. Alexandria, 1950.

Faris (N. A.)

= The Arab Heritage. Princeton, 1944.

Franz (J.)

= Kairo, 1903.

Flury (S.)

= Ein Stuckmihrab des IV. (X) Jahrhumderts. (Jahrbuch der Asiatischen Kunts, II, 1925).

Gaudefroy – Demombynes (M.)

= Le Monde Musulman. Histoire du Monde, VII, l Paris, 1931.

Gottschalk, (Hans)

= Die Madaraijjun. Berlin and Leipzig, 1931.

Grohmann (Adolf)

= Arabic Papyri in the Egyptian Library, vols. l, II, III. Cairo, 1934, 1936, 1938.

الجزء الأول نقلته الدكتورة سيدة إسماعيل كاشف إلى العربية بالاشتراك مع الدكتور حسن إبراهيم حسن بعنوان «أوراق البردى العربية بدار الكتب المصرية»، القاهرة ١٩٣٤م.

= Art Tiraz (in Encyclopedia of Islam).

Grunebaum (G. E. von)

= Medieval Islam. Chicago, Illinois, 1947.

Guyard (M. S.)

= Fragments relatifs à la doctrine des Ismailis, Paris.

Hamadany (H. F.)

= The History of the Isma'ili da'wat and its literature during the last Phase of the Fatimid (J. R. A. S. , 1932).

Hassan (Hassan Ibrahim)

= Relations between Egypt and the Caliphate. Cairo, 1940.

Hassan (Zaki Mohamed)

= Les Tulunides. Paris, 1933.

= Hunting as practised in Arab Countries of the Middle Ages. Cairo, 1937.

= Moslim Egypt and its Contribution to Islamic Civilisation (Bulletin of the Faculty of Arts, University of Cairo, vol. XI, Part II, Des. 1949, Cairo).

= Moslem Arts in the Fouad l University Meueum. Vol. l Cairo, 1950.

Haurt (A.)

= Histoire des Arabes. 2 vols. Paris, 1912.

Heffening (W.)

= Art. Shāhid (Encyclopedia of Islam).

Herz (Max)

= Catalogue Raisonné des monuments exposés dans la Musée National de l'Art Arabe. Le Caire, 1906.

ترجمه علي بهجت بعنوان: فهرس مقتنيات دار الآثار العربية المطبعة الأميرية بمصر، ١٣٢٧هـ.

Heyd

= Histoire du Commerce du Levant au Moyen Age. 2 vols Leipzig, 1885-1886.

Hitti (Philip)

= History of the Arabs London, 1946.

= History of Syria.

Ibn Said-Vollers

= Fragments aus dem Mughrib Weimar 1895.

ظهرت له ترجمتان باللغة العربية.

Ivanow (W.)

= The Rise of Fatimids (Bombay, 1942).

= A Guide to Ismaili Literature. London, 1933.

= The Organisation of the Fatimid Propaganda. J. B. B. R. A. 3. 1939.

= Ismailis and Qaramtians. J. B. B. R. A. S. 1940.

Johnson Allan Chester

= An Economic Survey of Ancient Rome. Vol. S II. Roman Egypt. Baltimore, 1936.

Jouguet (Pierre)

= L'Egypte Gréco Romaine. Précis de l'histoire d'Egypte. t. 1

Kammerer (Albert)

= La Mer Rouge. Tome Premier, Le Caire, 1929.

Kay (Henri Cassels)

= Yaman, Its Easly Medieval History.

Kremer (A. V.)

= Kulturgeschichte des Orients unter den Chalifen. 2 Bände (Wien 1875-77).

Kühnel (E.)

= Islamische Schriftkunst. Berlin.

Lamm (Carl John)

Cotton in Medieval Textiles of the Near East. Paris, 1937.

Lammens (pére Henri)

= Un gouverneur Omaiyade d'Egypte Qorra ibn Sarik d'après les papyrus Arabes. Bulletin de l'Instifut Egyptien. 5e. Serie. Tome 11. Le Caire Décembre. 1908.

= La Syrie. Précis Historique, Tome 1.

Lane – Poole (Stanley)

= A History of Egypt in the Middle Ages. London, 1900.

= The Muhammadan Dynasties, 1925.

= Catalogue of Oriental Coins in the British Museum. London, 1875 – 1890.

Lavoix (Henri)

= Catalogue des Monnaies Musulmanes. Paris, 1896.

Lévy – Provençal (E.)

= Le Traité d'Ibn Abdun. (Journal Asiatique. Avril – Juin 1934).

Levy (R)

= An Introduction to the Sociology of Islam, 2 vols. London 1931- 1933.

Lewis (Bernard)

= The Arabs in History. London 1950.

نقله إلى العربية بعنوان «العرب فى التاريخ» الأستاذان نبيه أمين فارس ومحمود يوسف زايد. بيروت ١٩٤٥م.

= The origins of Isma'ilim, 1940.

Macdonald (D. B.)

= Muslim Theory, Jurisprudence and Contitutional Theory. London, 1903.

Macmichael.

= A History of the Arabs in the Sudan, 2 vols. Cambridge, 1922.

Marcel

= Egypte, dépuis la conquête des Arabes jusqu'à la domination Français. Paris, 1848.

Massignon (L.)

= Annuaire du Monde. Musulman. Paris, 1925.

= Salmam Pak (S. E. I), Paris, 1934.

= Esquisse d'une bibliographie Qarmate, 1922.

= Article Karmates (Encyclopedia of Islam).

Mayer (L. A.)

= Bibliography of Moslem Numismatics, India Excepted. London, 1939.

Mercier (Louis)

= La Chasse et les Sports chez les Arabes. Paris, 1927.

Mez (Adam)

= Die Renaissance des Islames. Heidelberg, 1922.

نقله إلى العربية فى جزئين الأستاذ محمد عبد الهادى أبو ريدة بعنوان «الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى»، القاهرة ١٩٤٠ م.

Milne (J. Grafton)

= A History of Egypt Under Roman Rule. London, 1924.

Minorsky (V.)

= Tadkkirat al- Mulûk. A Manual of Safavid Administration. London, 1943.

Mohammed Ben Cheneb

= Classes Des Savants de l'Ifriqiya. Alger, 1920.

Mubarak (Zaky)

= La Prose Arabe au IVe Siécle. Paris, 1931.

Muir (William)

= The Caliphate: Its Rise, Decline and Fall. Edinburgh, 1915.

Munier (Henri)

= L' Egypt Byzantine, Précis de l'hist. D'Egypte, t. II. 1932.

Nicholson (R. L.)

= Studies in Islamic Mysticism. Cambridge 1921.

نقل الأستاذ الدكتور أبو العلا عفيفى إلى العربية طائفة من الدراسات التى قام بها نيكولسون ونشرت فى القاهرة سنة ١٩٤٧م بعنوان: «فى التصوف الإسلامى وتاريخه».

Nutzel (H.)

= Königlische Mnseen Zu Berlin: Katalog der Orientalischen Münzen. Berlin 1898.

O'Leary (De Lacy)

= A Short History of the Fatimid Khalifate, 1923. Papyrus Erzherzog Rainer. Führer durch die Ausstellung. Wien 1894.

Pauty (Edmond)

= Bois sculptés d'Eglises Coptes. Le Caire, 1930.

= Les Bois sculptés jusqu'a l'époque Ayyoubide. Catalogue du Musée Arabe. Le Caire, 1931.

Pedersen (j.)

= Art. Masdjid. The Encyclopedia of Islam. Vol. III. Leiden. London, 1936.

Quatremère (Et.)

= Mémoires Géographiques et Historiques 2 tomes. Paris, 1811.

= Recherches Citiques et Historiques sur La Langue et la Littérature de l'Egypte. Paris. 1808.

= Mémoires Historiques sur la Dynastie des Khalifs Fatimid. J. A. 1836.

Rabino di Borgomale (H. L.)

= Coins and Seals of Shahs of Iran. Hertford 1945.

Répertoire Chronologique d'Epigraphie Arabe. T.V. Le Caire, 1934. Voir Combe.

Ross (E. Denison)

= The Art of Egypt through the Ages. London, 1931.

Sauvaire (M. H.)

= Matériaux pour servir à l'histoire de la Numismatique et de la Metrolgie Musulmanes. Extrait du Journal Asiatique, 7 eme Série, t. XIV, XV, XVIII, XIX. Paris, 1879.

Snouk Hurgronje (C.)

= Mekka 2 Bd. Haag, 1888- 1889.

Sobhy (Georgy)

= The Survival of Ancient. Egypt. Extrait du Bulletin de la Société d'Archéologie Copte. T, IV. Le Caire, 1938.

Strzygowski (J.)

= Asiens bildende Kunst. Wien, 1930.

Tornberg (C. J.)

= Mémoires sur les Monnaies des Ikhschidites (dans Nova Acta Regiae Societatis scientiarum Upsaliensis, 3 ème Série, vol. II).

Tousson (Omar)

= La Géographie de l'Egypte à l'Epoque Arabe. Tome Premier, Le Caire, 1926.

= Mémoire sur L'histoire du Nil(Mémoires de l'Institut d'Egypte, tomes VIII, IX, X). Le Caire, 1925.

Trimingham (J. Spencer).

= Islam in the Sudan. Oxford. 1949.

Trititon (A. S.)

= The Caliphs and their non – Muslim Subjects. Oxford, 1930.

ترجمة وعلق عليه الدكتور حسن حبشى بعنوان «أهل الذمة فى الإسلام»، القاهرة ١٩٤٩ م

Tyan (E.)

= Histoire de l'organisation judiciaire en pays de e'Islam. Paris, 1938.

Van Berchem (Max)

= Le Proprieté territoriale et l'impôt foncier sous les Premiers Califes. Genéve, 1886.

= Une Page Nouvelle de l'histoire d'Egypte. Journal Asiatique. Dixième série, Tome IX. Paris, Janvier. Février, 1907.

= Materiaux pour un Corpus inscriptionum Arabicarum:

a) L'Egypte. Mèmoies publées par les membres de l'Institut Français du Caire, 1894.

b) Jérusalem Ville, Mémoires… 1920 – 1922.

Vonderheyden (M.)

= La Berbérie Orientale sous la dynastie de Benoû L-Arlabe. Paris, 1927.

Weill (J. D.)

= Les Bois à Epigraphes jusqu'a l'Epoque Mamlouke. Catalogue du Musée Arabe. Le Caire, 1931.

Wiet (Gaston)

= l'Egypte Musulmane. Précis de l'histoire d'Egypte, t. II.

= L'Egypte Arabe. Histoire de la Nation Egyptienne. t. IV.

= Les Communications en Egypte au Moyen Age.

نقلها إلى العربية محمد وهبى بعنوان «المواصلات فى مصر فى العصور الوسطى» ونشرت فـى كتاب «فى مصر الإسلامية» أخرجه الدكتورين: زكى محمد حسن وعبد الرحمن زكى.

= The Governors and Judges of Egypt (Journal of the Royal Asiatic Society). July 1914.

= L'Historien Abul-Mahassin. Bulletin de l'Institut d'Egypte. T. XII. 1929 – 1930.

= Matériaux pour un Corpus Inscriptionum Arabicarum, T. II Egypte. Le Caire 1930.

= Catalogue génerale du Musée Arabe du Caire. Stéles Funeraires, T. V. Le Caire 1937.

= Les Mosquées du Caire. 2 vols Paris 1932.

= Notes d'Epigraphie Syro – Musulmane (dans Syrie) T. VII.

= Trois Formules d'independence dans l'Egypte Médiévale. Le Caire, 1942.

Wustenfeld (F.)

= Die Statthallter von Agypten Zur Zeit der Chalifen. Gottingen, 1875.

Zambaur (E. De)

= Manuel de Généalogie et de Chronologie pour L' Histoire de L'Islam. Hannover 1927.

Zettersteen (K. V.)

= Article Shurta (Encyclopedia of Islam).

فهـرس الموضـوعــات

فهرس الموضوعات

الكتاب الأول

فجر مصر الإسلامية

أو

عصر الولاة

الصفحة

الصفحة

الكتاب الثانى
ضحى مصر الإسلامية
أو
العصر الفاطمى

رقم الإيداع	١٤٦٩٢ / ٢٠٠٧
الترقيم الدولي	ISBN 978 - 977 - 02 – 7111 – 6

١ / ٢٠٠٧/ ٣٠

طبع بمطابع دار المعارف